

روایات اهلان

# الاحمد

بیرل بلک





# روايات الهلال

Rewayat Al - Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٣٧٣ - يناير ١٩٨٠ - صفر ١٤٠٠

No. 373 - Janvier 1980

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبرى أبوالمجد

رئيس التحرير : الدكتور حسين مؤنس

سكرتير التحرير : موسى عيسى

## الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى - ١٢ عددًا - في جمهورية مصر العربية جنيهاً مصرياً بالبريد العادى . وبلاد اتحادى البريد العربى والآفريقى وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى . وفى سائر أنحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادى وخمسة عشر دولاراً بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدماً لقسائم الاشتراكات بـدار الهلال فى ج.م.ع. بحوالة بريدية غير حكومية وباقى بلاد العالم بشيك مصرفى لأمم مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الأسعار الموضحة أعلاه عند الطلب أسعار البيع للجمهور فى البلاد العربية للأعداد العادية من «روايات الهلال» الشهرية اعتباراً من شهر يناير عام ١٩٧٩ :

بسعر ٢٠ قرشاً للقارئ فى مصر

سوريا ٣٠٠ ق. س « ثلاثمائة قرشاً سوريا »

لبنان ٢٥٠ ق. ل « مائتان وخمسون قرشاً لبنان »

الأردن ٢٥٠ فلساً « مائتان وخمسون فلساً أردنياً »

الكويت ٢٥٠ فلساً « ثلاثمائة وخمسون فلساً كويتياً »

« أ »

« ريال »

مرب القاهرة .



# روايات الله

---

مجلة شهرية لنشر القصص العالمية



الامر

بقلم

بيير لـ بلـ

ترجمة

محمود مسعود



دار الحلال



## مقدمة

إذا ذكرت الروايات الانسانية التي خلدت فى الآداب العالمية من طراز « البؤساء » لفكتور هوجو و « كوخ العم توما » للكاتبة الأمريكية هـ . ب . سترو و « دافيد كوبر فيلد » لتشارلز دكنز ، فإن رواية « الأم » تحتل بينها مكان الصدارة بما حفلت به من الصور الانسانية العميقة والمشاعر التحليلية الدقيقة والنماذج البشرية التي وإن كانت وليدة بيئة بعينها فإنها فى تقلباتها ومنازعتها قاسم مشترك فى كثير من البيئات على اختلاف المكان والزمان ، حتى لتحس وانت تتابعها بين فصول الرواية بأنك ازاء شخوص بشرية معهودة لديك ، وإن ما تتأثر به هذه الشخوص من الانفعالات والأحاسيس وما تنحو اليه من التصرفات وتسلكه من المسالك هو جزء من النفس البشرية فى ضعفها وتساميتها وفى انقيادها وتمردتها وفى خنوعها وعسفها وفى أطماعها وقناعاتها وفى غرورها وتواضعها وفى زللها وتندمها وفى سخطها ورضاها . والواقع أن ذلك يتجلى على أشده فى هذه الرواية التى صورت فيها الكاتبة الأمريكية الكبيرة بيرل باك حياة الريف الصينى تصويراً مستفيضاً رائعاً فى شخص هذه الأم الفتية التى تدأب على العمل نهارها فى الحقل مع زوجها متفانية كادحة ثم تتوفر آخر اليوم على رعاية الزوج والأطفال وتقبل على الانجاب كل عام قريرة العين دون أن تجد فى دورة هذه الحياة المتكررة المتجددة ما يصرفها الى شئ آخر - لولا ضيق الزوج الشاب المفتون بنفسه بحياة بعدها رتيبة مملولة وغيابه من حياتها هرباً الى المدينة مما كان بداية للكارثة التى عصفت بحياة الأسرة وقوضت سعادة الأم وعرضتها لزلة كانت فى اعتقادها هى السبب فيما امتحنت به من صروف وارزاء فى ذاتها وفى ابنائها . وبغير رغبة فى الاستطراد مع أحداث الرواية تفادياً لضياغ عنصر الجدة والتشويق فى هذه العجالة ، تراك وانت ماض فى السياق مشدوداً الى شخصية الأم التى لا يشنها شئ عن احتمال مشاق العمل وأعباء رعاية الأسرة مدفوعة بفريزة الأمومة وبهذا الدأب الذى ينتظم البيئة كلها كوحدة ناصعة منتجة . وانت واجد فى صورة الأم خاصة وأفراد



الأسرة الصغيرة وفي محيط البيئة من حولهم وفي شتى مسالكهم وتأثرهم بكل ما يعرض لهم في حياتهم البسيطة العانية شبيها غير قليل بما تراه وتقرأه وتسمع به في بيئات كثيرة أخرى من هذا العالم المتباعد الأطراف المتقارب في الخصائص والسمات البشرية ، مما يجعلك تحس احساسا غير قليل بوثاقة الروابط الانسانية بينك وبين هذه الصور المجلوة في قالب البساطة والصدق والواقعية . ومن ثم كان للرواية طابعها الانساني الذي يسلكها في عداد الادب العالمي ويهيئ لها مقومات الخلود .

ولن يكون من دواعي العجب ان تختص بيرل باك بهذه القدرة الباهرة في تصوير الحياة والاحياء في الصين وهي التي عاشت فيها منذ نعومة اظافرها حتى شبت وترعرعت ثم تزوجت وأصبحت أما ولا تكاد تبعد عنها حتى تعود اليها لتستأنف الحياة فيما عدته وطنها الثاني . فهي اذن قد خبرت هذه الحياة وأحببتها وشغفت بها الى الحد الذي جعلها تؤلف ثمانى روايات عنها من جملة رواياتها السبع عشرة . وكذلك كان تصويرها للحياة الصينية صادقا ينبض بالحيوية والنفاز الى اعماق الناس وأغوار السرائر . أضف الى هذا قدرتها كامرأة على تحليل طبائع المرأة وانفعالاتها ذلك التحليل البارع الذي يتأدى الى ادق البواطن وأخفى الخلجات ويميط اللثام عن مكنون المشاعر التي تنضج بها طبيعة المرأة في شتى المواقف مما يجلى للقارئ ذخيرة نفيسة رائعة من الصور النفسية والتحليلات العاطفية يندر أن يوفق الى مثلها الكتاب والمؤلفون من الجنس الآخر . وربما كان من أبرع هذه الصور ما أزوجته المؤلفة في تحليلها لشخصية الأم التي وصفتها بأنها كانت منذ شبانها مخلوقة ذات مشاعر متأصلة واحاسيس عميقة ولكنها ساكنة صامتة ولم يحدث قبل زواجها وحين كانت فتاة عذراء ان اتجهت بخواطرها الى الرجال من حيث هم رجال ، وكانت اذا هزتها المشاعر العنيفة والاشواق الغريبة عن نفسها لا تتطلع قط الى الرجال لترى كنههم ، بل كانت تطوى الضلوع على حنينها واشواقها وتحتملها في صبر وسكون وانتظار . فلما تزوجت وأدركت كنه الرجل سطع أمام عينيها قدر يسير من ذلك الحنين العميق الذي كان يجيش في صدرها وعرفت أنها لا تستطيع الحياة دون وجوده معها . « على أن الرجل وحده لم يكن يكفي ، بل كان ينبغي أن تحمل منه وان تستشعر الطفل يتكون في أحشائها وتلد فيه الحياة ، وبهذا تتم الزوجية ، وعندئذ كانت



نسمرها سوجة من السعادة بتحقيق مطمحها ومشتهاها . وكانت اذا طالعتها علائم حمل جديد ساورها احساس رضاء جسدى مستعذب وكأنها شبعت وارتوت ونامت ولم يعد ينقصها شيء من مطالب الجسد المادية . . . لقد كان هذا الاحساس اسمى واعظم حتى من النفل نفسه ؛ بل كان اسمى واعظم من شخصها ومن شخص الزوج ايضا . فقد كان الزوج رغم تعلقها به وكونه كل شيء في نظرها يمثل جزءا من الامومة ، ولم تكن تحبه لذاته فقط ومن حيث هو زوج ورجل .

فهل رايت اروع من هذا التحليل في تصوير طبيعة المرأة في عذريتها ، وزوجيتها وامومتها ؟ .

بل ان هذه الصور الدقيقة المستمدة من عمق البصر بطباع النفس البشرية عامة وطبيعة المرأة خاصة تتعاقب في سياق الرواية تعاقب اللوحات الرائعة في معرض فنى حافل . ولعل اغزرها بالمشاعر المؤثرة تلك التى تتصل بالكارثة الكبرى التى نزلت بالام بعد ان هجرها الزوج ندالة وعرضها لامتحان رهيب افضى بها الى الزلل في لحظة غواية عمياء . لقد كانت هذه الخطيئة هى اللعنة الكبرى التى عصفت بحياتها عصفًا شديدا وجلبت عليها غضب الالهة حتى لاحقتها الكوارث التى تمثلت في عمى ابنتها ثم وفاتها في ظروف مؤسفة ، وفي انحراف ابنها الاصفر الى اعتناق ذلك المذهب الهدام الذى افضى به الى الاعدام . واستمع الى صرختها المؤثرة اذ ناءت بهذه الارزاء : « اذا كنت اذنبت فى حياتى فلم ائل من الاحزان ما يكفى ؟ اذا كنت اذنبت فلم لا اموت وحدى واضع حدا لكل شيء ؟ . . . لكن اين هى المرأة الفاضلة المبراة من الذنوب ؟ . . ولم احتمل وحدى هذه الاحزان كلها ؟ الم ائل كفايتى من العقاب ؟ » .

وفي غمرة هذه الفواشى ، وكأنما استجيب لتندمها وابتهالها ، تجيء البشرى بمولد حفيد لها بعد طول ياس من الانجاب ، وسرعان ما تتبدد احزانها وتهتف والدموع تفر وجهها الذى كلة المشيب وقد رفعت المولود بين يديها : « انظروا . . اننى اشك فى امتلاء نفسى بالذنوب كما خيل الى فيما مضى » .

هكذا تنتصر الحياة الوليدة على الموت والعدم ويتغلب الامل البازغ على اليأس والاحباط ، ومن هذا المنطلق كان للكيان البشرى عند قزمها مكانته الاولى في حياة ان تكاثرت على هذه الصورة المعهودة حتى

أشرف تعدادها على ألف مليون نسمة ، فإن أفرادها جميعا كخلية نحل هائلة تنتج دائية وتبلغ من أسباب القوة ما طوع للأمة كلها أن تحتل مكانتها المرموقة في المجتمع الدولي وأن تكون قوة مؤثرة تناجز إحدى القوتين العظميين في عالمنا المعاصر ، وتخطب ودها القوة الأخرى .

**محمود مسعود**



## الفصل الأول

جلست الام في مطبخ الدار الريفية الصغيرة ، فوق مقعد منخفض من الخيزران ، وراحت تدس الأعشاب في فتحة الفرن الطيني حيث شبت النار منذ قليل تحت القدر الحديدية . واخذت تضيف اليها بين وقت وآخر غصنا صغيرا ، او حفنة من الأوراق والحشائش اليابسة التي اقتطعت في الخريف الماضي من سفح التلال . . . وفي احد اركان المطبخ انكمشت قرب النار عجوز شديدة النحول والتهدم ، مدثوة بجلباب سميك احمر اللون مصنوع من القطن ، يعلوه رداء أزرق مرقع .

كانت المعجوز تشكو في عينيها مرضا اليما كاذ يفقدها البصر ويطبق أجفانها . على أنها برغم ذلك كانت تستطيع أن تميز المرثيات من خلال الثقبين الضيقين ، واخذت تراقب وهج السنة اللهب التي كانت تتوالب وتضطرم بين يدي الأم المدربتين . ثم تكلمت أخيرا . فخرجت الكلمات كالفحيح من فم غائر تجرد من أسنانه ، قالت :

— عليك بالاعتقاد في الوقود . لا توجد عندنا سوى حزمة واحدة من الحشائش . ونحن لم نزل في أول الربيع وسيطول بنا الوقت قبل أن تنمو الحشائش وتصلح للقطع . وانت ترين حالي وما صرت اليه من الشيخوخة والضعف ، وأنا أشك في قدرتي بعد على الخروج لاحضار بعض الوقود . فقد صرت عجوزا لا نفع منها ، وأفضل لها أن تموت .

ألفت المعجوز أن تكرر كلماتها الأخيرة مرات في اليوم . وفي كل مرة كانت تنتظر من زوجة ابنها أن تجيبها بهذه العبارة التي قالتها لها الآن حقا :

— لا تقولي هذا الكلام يا أمي ! ماذا كنا نعمل لو أنك كنت غير موجودة لحراسة البيت اثناء ذهابنا الى الحقل ، للإشراف على الاولاد الصغار حتى لا يقعوا في التربة ؟ .

فسعلت المعجوز سعالا حادا وقالت وهي تلهث :

— صحيح انا افعل هذا . يجب حراسة البيت في هذا الزمن الفاسد ، زمن اللصوص والنهابين في كل مكان . ولو جاءوا يا ابنتي

لرفعت الصوت عاليا . واذكر ان الحال كانت تختلف عن هذا في شبابه . كان الانسان يترك فأسه خارج البيت في أول الليل فيجده مكانه في الفجر . او يقيد حيوانه خارج الباب فيجده كما تركه في اليوم التالي . . .

ومع ان الأم ضحكت مجاملة وقالت لها : « صحيح يا أمي ؟ » ، فانها لم تقف للاصفاء الى العجوز التي لم تكن تفتأ تثرثر طول النهار . بل تركتها تتكلم وراحت تتساعل في نفسها عما اذا كان الوقود سيكفى حتى نهاية الربيع اذ يتم نماء النبات ويتسنى لها ان تذهب بسكينها الى حيث تقطع افرع الاشجار الصغيرة وتلتقط ما تيسر من الحشائش والأوراق . وصحيح انه كانت توجد في فناء البيت حزمتان من قش الارز مضمومة أعواده بعناية ومغطاة بطبقة من الطمي الكثيف الصلب صونا لها من فعل الأمطار والثلوج . لكن قش الارز كان أثمن من ان يستخدم وقودا . فان أهل المدن هم الذين يجوز لهم وحدهم ان يصطنعوا الوقود من قش الارز . وكانت هي او زوجها يذهبان به الى المدينة بعد جمعه في حزم كبيرة حيث يجنيان من بيعه نقودا فضية طيبة . وهكذا لم يكن يجوز ان يوقد قش الارز في غير بيوت المدن .

جعلت الأم تغذى الفرن بالحشائش ، واستفرقت هذه المهمة عنايتها فصرفتها عما عداها . وانعكس وهج النار على محياها العريض القوي ذي الشفتين الممتلئتين ، والذي لوحته حرارة الشمس ولفحته الرياح فاكتسى لونا اسمر قائما ، ولعت عيناها السوداء ان الصافيتان في ضوء النار . واذا قيل ان وجهها لم يكن جميلا ولا وسيما فقد كان يشف عن حرارة العاطفة وفرط الطيبة .

كانت زوجة مخلصه واما بارة . كما كانت رفيقة بحماتها العجوز . واسترسلت العجوز في لغوها . فقد كانت تمضي نهارها وحيدة لا يؤنسها غير حفيديها الصغيرين . اذ كان ابنها وزوجته يسليخان بياض النهار كذا في الحقل . فلما عادت الزوجة التي كانت العجوز تحبها أخذت تنهال عليها بمختلف الحديث وهي تسعل بين حين وآخر بسبب الدخان المتدفق من فتحة الفرن . فراحت تقول :

— قلت دائما انه متى جاع الرجل ، وخصوصا اذا كان شابا قويا كولدى ، فان بيضة مخلوطة بالارز . .

ورفعت العجوز صوتها عاليا حين قاطعتها مناوشة طفلين تشبها بكتفى الأم التي انحنبت لامداد النار بالوقود .



لكن الأم ما فتئت منهمكة فى انجاز عملها ، وما برح وجهها محتفظا بهدوئه . أجل . كانت هادئة وكأنها لم تسمع مناوشة الولد والبنت ، ولا صوت العجوز المسترسلة فى الحديث .

كانت تفكر فى تأخيرها قليلا هذه الليلة عن الموعد المألوف . فقد كان فصل الربيع يقتضيها عملا كثيرا ، وقد بقيت فى الحقل لى تبذر آخر قدر من الفول . ولم يكن بد من أن يستغل الانسان الى اقصى حد هذه الأيام الدافئة والليالى الرطبة ، وهكذا فعلت حينما اتمت هذا البذر . وستدب الحياة هذه الليلة فى ذلك الفول الجاف . وملاّت نفسها هذه الفكرة بشعور الفبطة والرضاء . بل ستدب الحياة فى سائر نواحي الحقل هذه الليلة حيث التربة دافئة رطبة ، وحيث لم يزل زوجها يعمل هناك ويدفن البذور فى الأرض بقدميه العاريتين ، وقد تركته يعمل وحده اذ سمعت وهى فى الحقل بكاء الطفلين وهتافهما باسمها وسارعت بالعودة الى الدار .

ولما وصلت الى باب المطبخ الفت الطفلين يبكيان جوعا ، وكان الولد يبكى بكاء رقيقا متصلا لا اثر فيه للدموع ، والبنت تبكى بصوت خافت وتلعق يدها الصغيرة . وكانت العجوز تنصت اليهما فى غير ضيق ولا برم . فقد لاطفتها حينما . لكنهما بلغا الآن حدا لا تجدى معه ملاطفة ، ولذلك تركتهما وشأنهما .

على أن الأم لم تخاطبهما بكلمة . بل تقدمت بسرعة الى الفرن وانحنت فى طريقها وتناولت بعض الوقود . لكن هذه الدلالة كانت ابلغ من كل حديث . فان الطفل كف عن البكاء وركض خلفها بكل ما تسمح له سنواته الخمس . وتلتها الطفلة بقدر ما وسعتها قواها ، اذ كانت لا تجاوز الثالثة الا قليلا .

أخذ الطعام ينقل فى القدر . وانبعثت من فرجات الفطاء الخشبي سحائب البخار مشبعة برائحة سائغة . فتلاحقت انفاس العجوز وأخذت تطحن فكيتها العتيقين طحنا خفيفا . وتعالى السنة اللهب تحت القدر حتى بلغت قاعها . ولما لم تجد منصفا تمددت وانتشرت ، واستحالت دخانا كثيفا انصب فى فضاء الغرفة الصغيرة ، فتراجعت الأم الى الخلف وجذبت الطفلة معها . لكن الدخان الخائق وصل الى الطفلة فأخذت تغمض وتفتح عينيها وتدللكهما بيديها القلدرتين . وصرخت باكية وسرعان ما نهضت الأم وحملت الطفلة وأجلستها خارج المطبخ قائلة لها :

— أفعدى هنا ! الدخان دائما يؤذى عينيك ولا تكفين عن القرب منه .

ونشرت العجوز سمعها شأنها حينما تسمع زوجة ابنها تتكلم ،  
ووجدت في هذا مادة جديدة للكلام . فراحت تقول :  
- نعم . . قلت دائما أنه لولا اضطرارى لاشعال النار طول حياتى  
الماضية ، لما أصبت بهذا العمى . الدخان وحده هو سبب عمى .  
والدخان . .

لكن الأم لم تستمع لكلام العجوز ، بل كانت ملقية بسمعها الى  
بكاء الطفلة الصغيرة التى انبطحت على الأرض وراحت تصرخ وتندك  
عينيهما محاولة فتحهما . والحق أن عيني هذه الطفلة كان بهما حمرة  
دائمة ورمد متصل . بيد أنه لو قال قائل للأم أن بعيني ابنتها مرضا  
لبادرت بهذا الجواب :

- ليس بها شيء . وكل ما هناك أنها تدس رأسها فى الدخان كلما  
اشعلت النار فى الفرن .

ما كان بكاء الطفلة ليهز من نفسها وترا حساسا كما حدث فى  
الماضى . فقد كان عملها متواصلا هذه الأيام . والأطفال يأتون سراعا .  
وحينما رزقت بطفلها الأول لم تحتمل سماعه يبكى بتاتا . فقد تصورت  
فى ذلك الحين أنه ينبغى للأم عندما يبكى الطفل أن تسكنه على أى  
وجه من الوجوه . ولذلك كانت اذا بكى الطفل تكف عما هى آخذة  
به وترضعه نديها . وما تكاد تفعل حتى يكون زوجها قد غضب  
لامساكها عن العمل فى الحقل ، ويصبح فيها قائلا :

- ما هذا ؟ هل تفعلين هكذا وتركين العمل كله لى ؟ . أنت الآن  
فى أول عهدك بالأولاد وستقضى العشرين سنة القادمة فى ارضاع  
الأولاد . فهل احتمل هذا ؟ لست زوجة لرجل غنى حتى ينحصر  
عملك فى الولادة والرضاع واستئجار من يقوم بالعمل ؟ .

وكانت اذا سمعت منه هذا الكلام تواجهه غاضبة مهتاجة . فكلاهما  
فى عنفوان الشباب وحدة الطبع وفورة العاطفة ، ثم تصيح فى وجهه :

- وهل لا أجد تعويضا يسيرا لآلمى ؟ هل تعمل الشهور مشلى  
مثقلا بالحمل ؟ وهل تعاني آلام الوضع ؟ ، لا ، أنك لا تذهب الى  
البيت حتى تستريح . أما أنا فأطهو الطعام واهتم بالطفل والأطف  
العجوز وانظر فى هذا وذاك .

وهكذا كانت تنشب بينهما مشادات حامية لا غالب فيها ولا مغلوب  
اذ كانا متكافئين . لكن هذا الشجار لم يدم طويلا . فسرعان ما جف  
نديها ، اذ كانت تحمل فى سرعان وخصب الحيوان القوى  
الصحيح ، بل ان لبنها قد نضب فى الوقت الحالى ، وان كانت قد



أجهضت في الصيف الماضي على اثر اصطدامها بالمحراث وسقوطها على الأرض .

واذن فقد كان على الأطفال ان يصبروا . واذا لم يكن بد من بكائهم فليبكوا ما شاءوا . فلم يكن بوسعها ان تركض اليهم لأرضاعهم ثديها . ولا مفر لهم من الانتظار والصبر على الجوع حتى تعود اليهم . هكذا كانت الأم تتكلم . لكن الواقع ان قلبها كان أرق من حديثها . ولم يكن يسمعها الا ان تسارع الى أطفالها حينما تسمع نداءهم لها . ولما غلت القدر وقتا وامتزج الدخان بشذى الأرض جاءت الأم بصحفة وملأتها للعجوز ثم وضعتها على الخوان في الغرفة الكبرى حيث يعيش الجميع ، وسارت بالعجوز اليها وهي لا تكاد تعي لغوها وقولها : « واذا خلطت الباسلاء بالأرز نتج منهما لون شهى لليد » . ثم جلست العجوز الى الخوان وأمسكت بالصحفة بين يديها الجافتين الباردتين ولزمت الصمت وقد عرتها فجأة رعشة النهم ، وسال اللعاب من جانبي فمها المفضن . وقالت مستاءة :  
- أين الملعقة ؟ لا أجد ملعقتي .

فوضعت الأم الملعقة في يد العجوز وخرجت من الغرفة الى المطبخ ، حيث جاءت بصحفتين أخريين أصفر حجما وملأتهما أرزا ، وتناولت ملعقتين من خشب الخيزران وحملت إحدى الصحفتين الى الطفلة التي ما زالت تبكي وتفرك عينيها بيديها . وكانت الطفلة جالسة على الأرض وقد امتزج الوحل فوق وجهها بالدموع . فانهضتها الأم على قدميها ومسحت وجهها براحة يدها الخشنة السمراء ، ورفعت طرف جلبابها المرقع وجففت دموعها .

فعلت الأم هذا مترفقة ، فقد كانت عينا الطفلة حمراوين ، وتدلّت اجفانها وشابتها حمرة شديدة . ولما أشاحت الطفلة براسها وهي تغمض وتفتح عينيها باكية تركتها الأم ولم تعرضها وقد تأملت وقلقت لحالها . وضعت الصحفة فوق خوان خشن خارج الباب وقالت للطفلة بصوتها المرتفع :

- تعالى ... كلى .

وتقدمت الطفلة متعثرة ووقفت متشبثة بالخوان وهي تكاد تغمض عينيها المحمرتين في أشعة الشمس الأفلة . ومدت يديها الى الصحفة . فهتفت الأم :

- حاسبى .. سخن .. !

فترددت الطفلة ، وأخذت تنفخ في الطعام لتبريده . لكن الأم جعلت

تحقق فيها قلقة ، وغمغمت لنفسها :

- حينما يقصد الى المدينة حاملا قش الارز سأطلب منه ان يذهب الى أحد حوانيت الادوية لشراء دواء لرمد العيون .

وما لبث الولد ان تدمر لأنهبها لم تقدم له صحفته مثل اخته . فذهبت اليه ووضعتها فوق الخوان . وساد الصمت بعض الوقت . وأحست الام بتعب شديد حال دون ان تأكل فزفرت زفرة عميقة وحملت مقعدا صسفيرا من الخيزران ووضعتة قرب الباب وجلست فوقه . وتنفست من أعماق رئتيها وجعلت تسوى شعرها الأشعث الأغبر بيديها . وأدارت نظرها فيما حولها .

أخذ الظلام ينسدل فوق التلال المنخفضة المحيطة بالوادي ، وشحب وجه الأفق . وفي بطن الوادي حيث قامت المزرعة الصغيرة بدأت سحب الدخان تنبعث من مساكن القسرية مؤذنة بانهمالك أجليها في اعداد طعام العشاء وجعلت الام تراقب الدخان المتصاعد بطيئا في الهواء الساكن وهي راضية قريرة . فقد خطر لها فجأة انه ليس بين أمهات المزرعة المؤلفة من بضعة بيوت لا تجاوز أصابع اليدين من تعنى بأطفالها خيرا من عنايتها بأطفالها . وصحيح أن بعضهم كن أغنى منها مالا . فان زوجة صاحب الخان مثلا كانت تملك بعض الأقراط والخواتم التي كانت الام تشتتها في طفولتها دون ان تنالها . لكن الام كانت تفضل ان تمنح طفلها أفضل ما عندها من طعام حتى ينشأ صحيحين قويين . وقد أذاعت امرأة المزارع الثرثرة أن صاحب الخان اعتاد ان يطعم اولاده فضلات اللحم المتبقى في صحائف نزلاته . أما الام فكانت تقدم لطفلها خير ما تنبت أرضهما من الارز ، ولولا رمد عين الطفلة لما وجد ما يشكون منه . فقد كان الجميع صحاح الأجسام مكتملى النمو ، ويكاد الناظر يحسب الطفل في السابعة أو الثامنة من عمره . أجل . فقد كانت الأم توهب أبدا أطفالا صحاحا . ولو لم يلفظ ذلك الطفل الذى أجهضت فيه أنفاسه حينما صافحت عيناه نور الوجود لعاش الآن وكان ولدا ناميا صحيحا كأخيه ، يحاول أن يدب على قدميه .

تنهدت الأم ثانية . ومهما يكن من شيء فهي توشك ان تضع وليدا جديدا في غضون شهر أو شهرين ، وفي هذا ما يستغرق تفكيرها . لكنها كانت جذلة راضية . نعم . . كانت شديدة الجدل والرضاء كلما حملت طفلا وامتلات أحشاؤها بكائن جديد تدب فيه الحياة . ثم رأت الام شخصا يخرج الى شارع المزرعة الصغيرة من أحد



البيوت . وعرفت فيه امرأة عم زوجها . فقالت لها :  
- آه . أنت تطهين أيضا طعامك . انى فرغت منذ قليل .  
فاجابتها المرأة :

- نعم . وكنت أقول لنفسي الآن أنك فرغت ، وانك سريعة فى عملك .  
لكن الأم قالت بصوت مرتفع وبلهجة المجاملة :  
- لا . لا . الحقيقة أن اولادى يجوعون بسرعة ! .  
فهتفت زوجة العم :

- بل أنت امرأة قديرة ، سريعة .  
ثم دلفت ثانية الى داخل بيتها بعد أن حملت الحشائش التى  
خرجت لتناولها . وجلست الأم فى ضوء الشفق تعلو وجهها  
ابتسامة . فقد كان لها أن تفخر حقاً بنفسها ، وبقوتها ، وبطفلها ،  
وبزوجها . وفجأة رن صوت الولد قائلاً وهو يدفع صحفته الى  
الامام :

- أمى . ( كمان ) .  
فنهضت الأم لكى تملأ الصحيفة . ولما خرجت ثانية الى الباب  
رأت قرص الشمس ينحدر بين التلال المحيطة بالحقل حيث قضت  
نهارها فى العمل . ثم شاهدت زوجها عائداً الى البيت متأبطاً فأسه  
سائراً بخفة ونشاط . وفجأة سمعته يغنى . وكان صوته عالياً متموجاً  
صافياً . وكان يلم بكثير من المقطوعات الفنائية . وكثيراً ما كان يدمى  
أيام الراحة للقاء فى حانات الشساى حيث يزجى وقت الحضور  
ويسليهم . . ولما وصل الآن الى الدار لم يكف عن غنائه ، ولكنه جعل  
يغنى بصوت أقل ارتفاعاً . ثم وضع فأسه قرب الجدار . ولما سمعت  
العجوز صوته أفاقت من غفوة انتابتها بعد شبعها ، واستأنفت الكلام  
وكانها لم تسكت . فقالت :

- قلت أن ابنى يحب الباسلاء المخلوطة بالأرز ، وهو طعام شهى  
للديد .

فضحك الرجل ضحكة طبيعية متكاسلة ودخل البيت ، وقال  
بصوت عذب :

- نعم يا أمى . أنا أحب هذا اللون فعلاً .  
وفى خارج البيت كانت الابنة قد شبعت وجلست جامدة . ولما  
ذهبت الشمس فتحت عينيها قليلاً وتطلعت حولها فى يسر وفى غير ألم .  
وذهبت الأم الى المطبخ وملأت للرجل صحيفة حتى حافتها ووضعت  
فى وسط الارز الساخن بيضة اقتصدتها من بيض الدجاج القليل الذى

يملكونه . فقد كان حقا للرجل أن يظفر ببعض اللحم أو البيض وهو يكد طول يومه . ومهما حدث بينهما من التشاد فقد كانت تحب أن تراه ينال قسطا وفيرا من الطعام ، وكانت ترى أن هذا التشاد والتشاحن لم يكن يتجاوز اللسان الى القلب . وقالت المرأة العجوز : - انى وضعت بيضة طازجة في أرز ولدك . وقدمت له أيضا بعض الكرنب .

فما كادت العجوز تسمع هذا الكلام حتى قالت من فورها : - آه . نعم . بيضة طازجة . قلت دائما بيضة طازجة . هي افضل شيء للشباب . هي تعيد القوة .

لكن احدا لم ينصت اليها . فقد كان الرجل شديد الجوع وجعل يأكل مسرعا . وطلب الى الأم أن تملأ صحفته من جديد وهو يضرب بها فوق الخوان حتى يستحثها . ولما ملأتها وقدمتها له جاءت لنفسها بصحفة . لكنها لم تجلس بجانب زوجها . بل تناولت مقعدا منخفضا وجلست فوقه قرب الباب وجعلت تلتهم طعامها راضية متلذذة . وبين وقت وآخر كانت تنهض وتقتطع لنفسها بعض الكرنب من صحفة الرجل . وجاء الطفلان واستندا اليها وفتح كلاهما فمه اسكى يتلقف منها بعض الطعام ، فلم تبخل عليهما . ومع أنهما تناولا نصيبهما وشعرا بالامتلاء فقد كان الطعام من صحفة الأم احلى مذاقا والد طعاما . بل أن الكلب الأصفر تقدم نحوها مطمئنا . فقد انكمش حينما تحت خوان الرجل طمعا في بعض الفتات ، لكن الرجل ركله بقدمه وطرده بعيدا . فجاء الى الأم وجعل يلتقط بعض الارز الذي كانت تلقيه اليه .

كررت الأم ملء صحفة الرجل ثلاث مرات . ولما شعر بالامتلاء غمغم راضيا . . وصبت الأم في صحفته الخاوية ماء مغليا ، فأخذ الرجل يحتسيه . ثم خرج الى الباب وجعل يحتسي الماء بصوت مرتفع . ولما فرغ حملت منه الصحيفة ودخلت بها . ووقف في مكانه يردد نظره في هذه المنطقة الزراعية التي شملها الظلام . وبزغ الهلال ضئيلا في صفحة السماء . فحلق الرجل فيه وأنشأ يفني أغنية رقيقة .

ثم اخذ الرجال يخرجون من بيوتهم مثله . وجعل بعضهم يتنادى مع بعض بشأن لعبة ابتدأوا فيها في الخان . ووقف آخرون عند أبوابهم يتشاءمون .

وكف الزوج الشاب عن الفناء فجأة واستقر نظره عند الشارع .



كان هناك رجل واحد يواصل العمل والى كل مستسلم للراحة .  
ذلك هو عمه الذى لا يكف عن العمل حتى فى الليل . والقى عليه  
نظيرة وهو جالس أمام داره منهكا فى صنع سلة من اغصان  
الصفصاف . لكن هذا العم اذا رضى لنفسه هذا العمل المتصل فان  
الزوج الشاب ما كان يرضى ذلك لنفسه . ولا بد له من الراحة والترفيه  
عن النفس . ولا بد له من المقامرة قليلا . فأدار رأسه لمخاطبة زوجته  
فى هذا الشأن . وسرعان ما قابلته بنظرتها العسائية وقد أدركت  
قصده . فلم يتمالك الرجل أن لعنها فى سره . اليس من حقه أن  
يقامر بعض الوقت فى ليله بعد أن قضى نهاره فى الكد والعمل الشاق ؟  
هل كتب عليه أن يفنى حياته فى العمل المستمر على أنه لم يستطع  
أن يصمد لتلك النظرة الصارمة القاضية ، ولم يلبث أن هز كتفيه  
كالطفل المغلوب على أمره ، وقال :

— سأنام بعد هذا النهار الشاق ؟ . أنا متعب جدا . ولا أقدر  
على اللعب هذه الليلة .

ودلف الى داخل البيت والقى بنفسه فوق الفراش وتمدد وتشاءب .  
وفجأة قالت العجوز وهى لم تستطع أن تبصر شيئا فى الغرفة  
المظلمة .

— هل ذهب ابنى الى فراشه ؟  
فأجابها غاضبا :

— نعم يا أمى . وهل يمكن غير ذلك فى مثل هذا المكان المحدود  
الفارغ ؟ شغل ونوم ! . شغل ونوم .  
فقالت العجوز فى جذل دون أن تظن الى لهجة الغضب التى  
مازجت صوته :

— نعم ، نعم . شغل ونوم .

ونفضت من مكانها وجعلت تتحسس طريقها الى فراشها ، وهو  
مرتبة من القش فى ركن الغرفة خلف ستار أزرق من القطن . وفى  
هذا الوقت كان الرجل قد استغرق فى النوم .

ولما سمعت الأم صوت غطيط زوجها نهضت وتبعها الطفلان وهما  
يتشبشان بجلبابها . ففسلت الصحف بقليل من ماء ( الزير ) البارد  
الموضوع قرب باب المطبخ . ووضعتها فى تجويف فى الحائط المشيد  
بالطين .. وذهبت الى الجهة الخلفية للدار وملأت دلوا خشبيا من  
بئر ضحلة وصبت الماء فى ( الزير ) .. ثم عادت الى الخارج وفكت  
مقال الجاموسة وأطعمتها بعض القش وقليل من الحبوب . وقادتها

الى داخل الدار حيث قيدها الى احدى قوائم الفراش الذى نام  
الرجل فوقه .. وفى هذا الوقت كان الدجاج يوشك أن يستسلم  
لنوم أسفل الفراش . واخذ ينق قليلا عند دخولها . ثم لزم  
الصمت .

وخرجت مرة أخرى من الدار ورفعت صوتها منادية . فجوابها  
خنزير من خلال الظلام . وكانت قد اطعمته وقت الظهر ، ولذا لم  
تقدم له الآن شيئا من الطعام . وجعلت تدفعه أمامها برفق حتى  
أدخلته . وتركت الكلب الأصفر وحده فى الفناء ليقوم بواجب  
الحراسة .

وفى أثناء ذلك كله كان الطفلان يتبعانها جيئة وذهابا . وما لبثا  
الآن أن تشبثا بساقيها باكيين . فوقفت ورفعت الطفلة فوق ساعدها  
وقادت الولد من يده . ودخلت بهما الى الدار وأوصدت الباب خلفها .  
وتقدمت الى الفراش ومددت الطفلين عند قدمي الرجل . وجعلت  
تنزع ملابسهما وملابسها الخارجية فى رفق وهدوء . ولما تم لها ذلك  
تمددت بدورها بين الرجل والطفلين . وجذبت القطاء فوقهم  
جميعا .

انطرحت الأم فى مكانها ساكنة وقد أحس جسدها القوى بوطأة  
التعب . وكانت فى تمددها هذا كتلة من الرقة والحنو . ومهما  
نفد صبرها فى غضون النهار ، ومهما امتلأ صدرها بنزوات الغضب  
العارمة فقد كانت فى ليلا تستحيل مخلوقة رقيقة عاطفة . عاطفة  
على الرجل الذى يرقد بجوارها .. عاطفة على الطفلين اللذين  
استسلا لسلطان النوم . عاطفة على العجوز اذا انتابها السعال  
ليلا ، فتنهض من مكانها لموافاتها بقليل من الماء .. بل عاطفة حتى  
على الحيوانات اذا تدافعت واثار بعضها بعضا . اذ كانت تخاطبها  
بقولها : « اسكتوا .. ناموا .. النهار بعيد » .. ولا تكاد  
الحيوانات تسمع صوتها إلا جش الرحيم حتى تهدأ وتعود للنوم .  
وفى أبان الظلام تقلب الطفل فى مضجعه والتمس ثديها . فتركته  
يرضع وهى مستسلمة للخدر اللذيذ . ومع أن ثديها كان جافا  
فقد كان فيه للطفل ذكرى مريحة مسكنة . ولن يلبث أن يمتلىء  
عن قريب . وبجانب الطفل تمددت الطفلة موصدة العينين شديدة  
التصاق الجفنين . وكانت لا تنفك تفركما بيديها حتى فى نومها  
لفرط ما تحس من ألم والتهاب .

لكن سرعان ما استسلم الجميع للنوم . ولو نبج أحد الكلاب



فى اللبل ما استيقظ منهم أحد . فقد كانت هذه الأصوات مألوفة فى أسماعهم ، الا الأم التى كانت تستيقظ وتنصت ، حتى اذا لم تجد ما يدعوها للنهوض عاودت النوم من جديد .

## الفصل الثانى

ترى هل كانت الأيام تختلف وتتفاير فى نظر الأم ؟ . كانت الأم تنهض فى الفجر والكل نيام ، فتطلق الدجاج والخنزير والجاموسة وتقودها الى الفناء . ثم تنظف مرابطها وتحمل الروث المتخلف منها الى الكوم الموضوع فى أحد أركان الفناء السالف الذكر . وتذهب الى المطبخ حيث تغلى الماء لكى يشربه زوجها وامه العجوز وتضع بعض هذا الماء المغلى فى وعاء لكى تغسل به عيني الطفلة .

كانت هذه الطفلة تنهض صباح كل يوم موصدة العينين لا ترى بتاتا حتى تغسل الأم عينيها . وقد فزعت الطفلة أول الأمر وجزعت الأم لكن الجدة العجوز راحت تقول :

— كانت هذه حالى فى طفولتى . ولم أمت بسبب عيني ! . والآن قد ألف الجميع هذه الحال واطمأنوا اليها وعلموا ان هذا هو شأن الأطفال وانهم لا يموتون بسببه . وما كادت الأم تصب الماء حتى جاء الولد يقود أخته من يدها . فقد انسل كلاهما من الفراش بسكون حذرا من ايقاظ الأب والاستهداف لغضبه ، اذ كان رغم مرجه يغضب أشد الغضب اذا أوقظ قبل ان يستوفى قسطه من النوم ، ولا يتردد فى لطمهما بيديه .

وقف الطفلان لدى الباب ساكنين . وجعل الولد يفتح ويفمض عينييه من تأثير النوم ، وراح ينظر الى أمه وهو يتشاءب . أما البنت فقد وقفت فى مكانها صابرة ممثلة وهى مطبقة الجفنين .

ثم نهضت الأم مسرعة وتناولت المنشفة السمراء المعلقة فى وتد خشبى بالحائط ، فغمست طرفها فى ماء الوعاء وجعلت تمسح بتؤدة عيني الطفلة . فأخذت الطفلة تن وتبكي بكاء خافتا لا يكاد يسمع . وراحت الأم تناجى نفسها كما كانت تفعل صباح كل يوم :

— لابد من البحث عن دواء لعيني البنت . سأطلب منه حينما يذهب لبيع قش الأرز ، اذا لم انس ، أن يذهب الى أحد حوانيت الأدوية . فانى أعرف حانوتا عند باب المدينة فى شارع ضيق هناك .

وفيما هي تناجي نفسها بهذه الخواطر جاء الرجل الى الباب وهو يلتف بملابسه ويتشأب ويحك رأسه . وما لبثت الأم أن اعربت عما يخالج نفسها قائلة :

— عندما تذهب لبيع قش الأرز في المرة القادمة ، فاقصد الى حانوت الادوية القريب من باب المدينة ، واطلب دواء للعيون المريضة كعيني هذه البنت .

لكن الرجل كان ضيق الصدر من تأثير النوم . وقال متبرما : — ولم نضيع مالنا القليل في شراء دواء للعيون المريضة ما دام يستحيل أن تموت بهذا السبب ؟ انى كنت اشكو مرض العينين في صفرى . ولم ينفق أبى شيئا على لهذا السبب . رغم أنى كنت ابنه الوحيد الذى بقى على قيد الحياة .

رات الأم أن الوقت غير صالح للجدل . فلم تزد شيئا مما قالت . وصبت للرجل ما يحتاج اليه من الماء . غير انها كانت غاضبة كذلك . فلم تقدم الماء اليه . بل وضعت فوق الخشوان حتى يأخذه بيده .

وفجأة استيقظت العجوز ونادت بصوت خافت . فحملت لها الأم اناء من الماء الدافئ لكي تشربه قبل أن تنهض . وجعلت العجوز تحتسى الماء بصوت مسموع . ثم تجشأت وأخذت تشكو ما ينتابها من الضعف في الصباح .

ثم قصدت الأم الى المطبخ وأخذت في اعداد طعام الافطار . وجلس الطفلان فوق الأرض متضامين بسبب برودة الصباح الباكر . ثم نهض الولد أخيرا وذهب الى حيث كانت أمه تشعل النار . أما البنت فقد لزمت مكانها .

وفجأة أشرقت الشمس وغمرت أشعتها أرجاء المزرعة وسقطت فوق عيني الطفلة فأغمضتهما بسرعة . وكاد الألم يدفعها للبكاء غير انها أخذت تلهث وغالبت نفسها كما يفعل الانسان البالغ ، وجلست فى مكانها ساكنة وقد أطبقت جفניה المحمرين ولم تتحرك حتى وافتها أمها بالطعام ودفعته بين يديها .

أجل .. هكذا كان شأن الأم كل يوم .. لكنها لم تتأمل مرة من تعاقب الأيام على هذا النحو ولم تبرم بتشابهها وتمائلها . ولو خاطبها أحد في هذا الصدد لحدقت فيه دهشة بعينها السوداوين ، وقالت له :

— لكن الأرض تتطور بين زمن البدر والحصاد . ثم يجنى



المحصول من أرضنا ويدفع نصيب مالك هذه الأرض التي نستأجرها حبوباً . ثم هناك أيام الأعياد والسنة الجديدة . نعم . وحتى الأطفال يتغيرون ويشبون . ثم أحمل من جديد . كل شيء يتغير في نظري . بل كل شيء يتطور ويحملني على العمل من مطلع الفجر إلى مغرب الشمس .

وإذا انفتح أمامها الوقت رأت نساء المزرعة بين حامل توشك أن تضع ، وأخرى تندب وليداً لها مات ، وثالثة اهتدت إلى طريقة جديدة لتفصيل الثياب .

وكانت تقصد أحياناً إلى المدينة برفقة زوجها لبيع بعض الكرنب أو الحبوب ، وهناك ترى مناظر طريفة تستهوي اللب وتدعو إلى التأمل أن بقي أمامها وقت للتأمل والتفكير .

لكن الواقع أن هذه المرأة كانت من طراز لا يستهويه في الدنيا سوى مجاورة الرجل والأطفال ولا يفريها شيء بالتفكير في غيرهم . كل ما كان يعنيه من الدنيا هو أن تلمس عاطفة الرجل ، وأن تحس الحياة تدب وتنمو في أحشائها ، وأن تضع وليداً تقدم له ثديها .

ثم تنهض في الفجر فتقدم الطعام لأهل البيت وتقيت الدواب . وتبذر الحب وتجنّي الثمار . وترفع الماء من البئر لكي يشرب منه ذووها . وتمضي إلى الروابي والتلال فتجمع الحشائش البرية وتستشعر حرارة الشمس ولفح الهواء .

كانت تستمتع بمظاهر حياتها وتعاقب أدوارها فيها . تستمتع بالوضع والعمل في الحقل ، والأكل والشرب والنوم ، وكنس الدار وترتيبها ، وسماع نساء المزرعة يشنن على براعتها في العمل والحياكة . بل أن التشاحن مع الرجل كان أمراً طيباً وعاملاً على اذكاء عاطفتها . ومن أجل هذا كله كانت تستقبل اليوم الجديد بنشاط وحمية .

وفي هذا اليوم الذي تقدم وصفه ، افطر الرجل وحمل فأسه وقصد إلى الحقل متباطئاً كعادته . فتقدمت الأم إلى الصحاف لفسلها . واجلست العجوز في حرارة الشمس . وأمرت الطفلين باللعب قرب البيت ، بعيداً عن التربة . ثم حملت فأسها وسارت في طريقها ، غير أنها وقفت مرة أو اثنتين وألقت نظرة إلى الخلف .

حمل النسيم الى سمعها صوت العجوز الرقيق يتردد خافتا . فابتسمت وواصلت طريقها . فقد كانت حراسة الدار هي قصارى ما تضطلع به هذه العجوز . وكانت تقوم بهذا القسط فخورة مزهوة . فهي رغم شيخوختها واضمحلال بصرها لم تنزل بها القدرة على النظر وتمييز المخلوقات . ولو دنا من الدار كائن غريب لرفعت الصوت عاليا صائحة مستنجدة .

وصحيح أن العجوز كانت حملا ثقيلًا ، وعالة كالأطفال الصغار أو أشد كثيرا ، فكلما طعنت في السن زادت عنادا واستعصت على الزجر والتأديب . لكن الأم حينما سمعت زوجة العم تقول لها يوما هذه العبارة : « سيكون من دواعي راحتك وحسن حظك اذا ماتت هذه المخلوقة الطاعنة في السن ، فقد شاخت وعميت وتكاثرت عليها الأمراض والأوجاع وازدادت خرفا وعنادا » - لم يكن منها الا أن أجابت بلهجتها الوداعة الرقيقة : « نعم لكن ما زال بها نفع كبير لنا . فهي تقوم بحراسة الدار . وأرجو أن تعيش حتى تكبر البنت ويشتد عودها » .

أجل .. لم يكن من طبع الأم أن تقسو على العجوز وتشتد في معاملتها . وكانت قد سمعت عن النساء اللاتي يشهرن الحرب على أمهات أزواجهن ويضقن ذرعا بهن . لكن العجوز لم تكن في نظر هذه الأم الطيبة الشابة أكثر من طفل صغير ، وكثيرا ما كانت تحملها على ارتياد الروابي أو التلال لجمع بعض الأعشاب التي تشتهيها . على أنه حينما مرضت العجوز ذات يوم وأيقن الجميع من قرب موتها وجيء لها بنعش لنقل جثتها . كم كان فرح الأم إذ رأت العجوز تتشبث بالحياة . وتغالب الموت فتغلبه . نعم ... لقد أقنت هذه العجوز كفتين ، لكن الأم كانت تفرح كل مرة بعودتها الى الحياة . وكان أهل المزرعة يتندرون بجلد العجوز ويتفكهون بمغالبتها للفناء . وكانت العجوز ترتدى الجلباب الأحمر الذي صنعه الأم كفنا لها ، تحت جلباب آخر أزرق ، كما كانت العادة في تلك الجهات .. حتى اذا بليت أطرافه وتناثرت خيوطه صنعت لها الأم جلبابا ثانيا فلبسته العجوز فرحة به . وكلما سألها سائل : « ألا تزالين أيتها العجوز على قيد الحياة ؟ » - أجابته في جدل : « نعم .. لا زلت أعيش ، وارتدى كفنى ، وسأبليه كما أبليت سابقه .. ولست أعلم كم سأبلى غيره ! » . وهكذا كانت العجوز تضحك وتفرق في الضحك كلما رأت أنها



ما زالت تستروح نسيم الحياة وتقصر عنها يد الموت والفناء .  
القت الأم نظرة أخيرة خلفها باسمه حينما استعرضت هذه  
الذكريات وسمعت العجوز تقول لها : « اطمئني يا ابنتي . أنا  
موجودة احراسة الدار » .  
أجل .. انها ستحرم من معاونة هذه العجوز اذا طواها الموت .  
لكن الموت غالب لا يقهر . ولا سبيل الى دفع عواذيه اذا حم  
القضاء .  
وهكذا مضت الأم فى طريقها هادئة النفس ساكنة الخاطر .

### الفصل الثالث

ما كاد نبات الفول الذى غرست الأم بذوره ينمو ويزدهر  
ويمتلئ الهواء بشذاه حتى وضعت الأم طفلها الرابع . ولم تكن  
توجد قابلات فى هذه المزرعة كما هو الشأن فى المدن والبلدان  
والقرى الكبيرة . لكن نساء المزرعة كن يتعاون فى مسائل الوضع ،  
وكان بها جدات قادرات على التلقين والارشاد اذا وقع خطأ أو  
استعصى وليد أو تحيرت أم فى الولادة . بيد أن الأم كانت حسنة  
التركيب لا عيب فى بنيانها . بل انها لم تعان مشقة حتى حين  
أجهضت ، فقد وضعت فى سر ولم تقاس شيئا من الألم الا ألم  
الحسرة على الوليد الذى لم يستكمل عدته ، وذهب جهود الحمل  
فى غير طائل .

كانت الأم اذا حضرته الولادة تستعين بزوجة العم ، كما  
تستعين هذه بها اذا حانت ساعتها .

ففى يوم من أيام الربيع رق نسيمه وصفت سماؤه أحست الأم  
بأن ساعة الوضع قد حانت . فاجتازت الحقل حتى اذا أشرفت  
على الدار تركت الفأس من يدها ونادت زوجة العم التى كانت  
تفسل ملابس ذويها عند حافة التربة . فسارعت الى الأم وهى  
تجفف يديها .

كانت زوجة العم امرأة طيبة القلب صافية السريرة ، ذات وجه  
مستدير أسمر وأنف افطس وفم كبير أحمر . وهى فوق هذا  
ثرثارة بعكس زوجها الصموت . وما كادت تسمع النداء حتى  
ركضت وهتفت ضاحكة :

— من حسن الحظ يا اختى اننا لا نلد فى وقت واحد . انى

راقبتك زمنا وجعلت اتساءل من منا تسبق الأخرى في الوضع .  
لكنى تأخرت في الحمل هذه السنة عن مألوف عادتي ، وأنت على  
وشك الولادة في الوقت الذي بدأت أنا أحمل فيه .

فاهت زوجة العم بهذه الكلمات في صوت مرتفع رنان كعادتها .  
فسمعتها نساء المزرعة ونادين من بيوتهن فرحات :

— جاءت ساعتك يا أختي ؟ . نتمنى لك حظا .. وولدا ..

وكان بين نساء المزرعة أرملة ثرثارة . فقالت من بيتها :

— نعم . استنفدي زوجك ما دام معك . فهانذا امرأة صالحة  
للحمل والولادة ولا رجل عندي .

لكن الأم لم تجب . وإنما ابتسمت ابتسامة يسيرة وقد بدا  
لونها شاحبا لما شأبها من الغبار والعرق . ثم دلفت الى داخل  
الدار .

وتبعتها العجوز الى الداخل وهي تثرثر وتضحك سرورا بهذه  
المناسبة ، وقالت :

— كنت أقول كلما جاءت ساعتى ، وأنت تعلمين يا ابنتى انى  
وضعت تسعة أولاد كانوا جميعا أصحاء أقوياء حتى مماتهم .. كنت  
أقول دائما ..

لكن الأم لم تنصت اليها . بل تناولت مقعدا صغيرا جلست  
فوقه دون أن تتكلم ، وجعلت تسوى شعرها الأشعث بيديها اللتين  
غمرهما العرق ، لا عرق الحقل ، وإنما عرق الألم . ثم تناولت طرف  
جلبابها ومسحت وجهها وفكت جدائل شعرها الطويل الكثيف  
وعقدته من جديد . وفجأة انتابها ألم حاد . فانحنيت الى الأمام  
صامتة . وجعلت تنتظر .

وكانت العجوز مسترسلة في الكلام بجانبها زوجة العم تضحك  
منها فلما رأت هذه انحناء الأم أسرع الى الباب واغلقتة ووقفت  
تنتظر . لكن سمع طرق الولد فجأة على الباب . فقد رأى الباب  
يوصد بالنهار وأمه في الداخل ، فأخذته الخوف وصرخ وطلب أن  
يفتح الباب ، فقالت الأم أول الأمر « دعوه في الخارج حتى أنتهى .  
بسلام » . وتقدمت زوجة العم الى الباب وصاحت من فتحته :  
« انتظر مكانك حتى تنتهى أمك » وأعقبها العجوز قائلة « انتظر  
مكانك يا ولدى . وسأعطيك ما تشتري به بعض الحلوى اذا  
بقيت تلعب ، وسترى ما تجيء به أمك بعد قليل ! » .

لكن الولد تملكه الخوف اذ رأى الباب يوصد في النهار وصمم

على الدخول . وأخذت البنت تبكى كذلك كعادتها كلما رأت أخاها يبكى وتقدمت تتحسس طريقها الى الباب وأخذت تضربه بقبضتي يديها النحيلتين . ففضبت الأم آخر الأمر وزاد غضبها حينما اشند بها الم المخاض . ونهضت من مكانها واندفعت الى الباب ولطمت الولد بشدة وصاحبت في وجهه : « طول عمرك تعذبني ولا تسمع كلامي ! وهذا ولد آخر سيجيء مثلك ! » .

لكنها ما كادت تضرب الولد حتى لان قلبها وذهب غضبها وقالت في لهجة أرق : « لكن تعال ادخل اذا لم يكن بد من دخولك . ولن ترى شيئا غريبا » . ثم استطردت تخاطب زوجة العم : « اتركي انباب مفتوحا قليلا فهم لم يعتادوا هذا » .

ثم عادت الى الجلوس وأمسكت رأسها بيديها واستسلمت للألم صامتة . أما الولد فقد دخل ولمسا لم ير شيئا وأحس بزوجة العم تحدجه بنظرات صارمة وكأنه ارتكب شيئا فقد خرج ثانية . لكن البنت دخلت وجلست على الأرض قرب أمها وظللت عينيها بيديها تخفيها لآلها .

وهكذا جلسن جميعا منتظرات . . الأم صامتة متألدة . . والمرأتان الأخريان تتجاذبان أطراف الحديث عن شئون المزرعة وأحوال أهلهن ، وتكلمت زوجة العم عن ذلك الرجل المقيم عند طرف المزرعة ، الذي أنهك في المقامرة تاركا أرضه خواء ، وكيف أنه تشاجر اليوم مشاجرة حامية مع زوجته واغتصب آخر ما يملكان من دراهم ، وغادر بيته للمقامرة ، فخرجت الزوجة البائسة الى باب الدار تندب حظها وتبث الجميع شكواها . وقالت زوجة العم : - « وهذا الرجل لم يكسب مرة في حياته . فهو يخسر دائما . وهذا ما يحزن زوجته ويزيد كربها » .

فلما سمعت العجوز هذا الكلام تنهدت وبصقت على الأرض وقالت :

- نعم . من المحزن ان يخسر الرجل دائما ولا يربح شيئا . لكني أعرف رجالا كثيرين بهذا الوصف . على اني أحمد الإلهة ان هذا بعيد عن بيتنا . فان ولدي يربح دائما في المقامرة .

لكن العجوز ما كادت تتم كلامها حتى صرخت الأم واستدارت في مكانها بعيدا عن الابنة وفكت حزامها وانحنى فوق المقعد . فأسرعت زوجة العم اليها وتناولت في يدها المولود الذي ينتظره . . واذا هو ذكر . .



أما الأم فقد ذهبت إلى الفراش وتمددت فوقه تستريح من  
جهدها الشاق . وكم كانت الراحة عذبة على نفسها في هذا  
الوقت ، نامت نوما عميقا متصلا .

وعملت زوجة العم إلى المولود ففسلته ولفته ووضعته قرب  
الأم النائمة التي لم يوقظها صراخه . ثم انصرفت زوجة العم عائدة  
إلى دارها بعد أن أوصت العجوز أن تبعث بالمولود في طلبها عندما  
تستيقظ أمه .

ثم جاءها الولد بعد ذلك صائحا : « هل تعرفين أن لى الآن  
أخا ؟ » ففادرت زوجة العم دارها على الأثر حاملة إناء به حساء ،  
وقالت للولد تعاكسه ضاحكة : « وكيف لا أعرف وقد حملته بين  
يدي ؟ » .

فوقف الولد يفكر قليلا ، ولما أعلن اشفاقه وخوفه ألا يبقى الوليد  
في بيت والديه لم تتمالك زوجة العم أن ضحكت من سداجته  
وشاركتها العجوز ضحكها .

وتناولت الأم الحساء الذي حملته إليها زوجة العم ممتنة  
شاكرا ، وغمغمت قائلة : « هذا كرم منك يا اختى » .  
لكن زوجة العم أجابتها قائلة :

— الست تفعلين مثل هذا لأجلى إذا جاءت ساعتى ؟ .  
وهكذا شعرت المراتان بهذه الرابطة الوثيقة التي تجمع بينهما  
صديقتين متعاطفتين متساندتين ! رابطة الولادة . تلك التي تتجدد  
وتتكرر كل عام .

## الفصل الرابع

ذلك كان شأن الأم .  
أما الأب فكان له شأن آخر . فقد كانت الحياة لا تتغير في نظره  
ولا أمل أمامه في جديد .

بل أن ولادة الأولاد التي كانت الأم تجد فيها لذة وسعادة لم تكن  
بالجديدة في عينيه . فقسيد كان الأولاد يولدون جميعا سواء  
متشابهين . لهم عليه واجب القوت والكسوة . وإذا كبروا وجب  
تزويجهم . ثم يولد لهم أبناء بدورهم فيجيئون جميعا سواء  
متشابهين . وهكذا كانت الأيام تتعاقب متماثلة . وكل يوم لا يأتى  
بجديد .

وهو نفسه قد ولد في هذه المزرعة الصغيرة . ولم ير في حياته

جديدا الا ما كان من ذهابه احيانا الى البلدة الصغيرة الكائنة وراء التل على ضفاف النهر . وهو اذا استيقظ في الصباح صافح عينيه منظر التلال المنخفضة والسماء التي لا تتغير ولا تتبدل . ثم يذهب الى الحقل فيظل يكد ويكدح حتى يعجن الليل . ثم يعود الى البيت الذي ولد فيه وينام فوق الفراش الذي نام فيه من قبل مع والديه حتى كبر واعدت له ( مرتبة ) خاصة .

اجل . . وها هو ذا الآن ينام فوق هذا الفراش مع زوجته واولاده وتنام امه العجوز فوق ( المرتبة ) . وهو هو نفس الفراش ونفس البيت . بل لم يكن من جديد في هذا البيت سوى بعض الأدوات القلائل التي جىء بها عند زواجه . وهى اثناء لظى الشاي وغطاء أزرق فوق الفراش وشمعدان جديد واله جديد من الورق نصب فوق الحائط . وكان هذا الاله يمثل رجلا كهلا عليه مظاهر الغنى والمرح يرتدى ثوبا مؤلفا من ألوان حمراء وزرقاء وصفراء متماتقة مؤتلفة . لكنه رغم هذا المظهر الباذخ لم يجىء بالغنى المنشود الى هذه الدار . وطالما تطلع الرجل الى هذا الاله ولعنه في ضميره لانه كان يشرف في مرح على هذه الغرفة الحقيرة التي كانت حقارتها لا تتغير ولا تتبدل .

وكان احيانا يعود الى البيت من المدينة بعد يوم راحة ، أو عقب المقامرة في يوم مطير مع بعض الكسالى المتسكعين في الخان . وما يكاد يبلغ هذا البيت الصغير الضيق ويعود الى هذه المرأة الولود التي تضع له اولادا عليه ان يكدح لاطعامهم حتى يرى وقد ملك عليه الجزع والرعب شعاب نفسه انه لن يجد في حياته ما عاش الا ان يستيقظ في الصباح ويذهب الى هذه الأرض التي لا يملكون منها الا قليلا والتي استأجروها من المالك الذي يحيا حياة الدعة والرفاهية في احدى المدن القاصية ، والا ان يسلمخ يومه في هذه الأرض المأجور كما فعل أبوه من قبل ، والا ان يؤوب الى البيت ويطعم هذا القوت الجاف الخشن وهو أسسوا ما تغل الأرض التي يكدح فيها ، أما الطيب فيباع لغيره لكي يستمتعوا به ، والا ان يأوى الى فراشه ليلا ثم ينهض في الصباح لكي يستأنف يومه على النحو الذي بدا .

بل ان غلة الأرض لم تكن ملك يمينه . فقد كان مضطرا لاعطاء نصيب منها للمالك الأرض ، وآخر لوكيل المالك المنوط به جباية المحصول ، وكان اذا فكر في هذا الوكيل لم يطق ذكراه . فقد كان رجلا من اهل المدن طالما تافت نفسه ان يكون على غراره . اذ كان

يرفل في الحرير وعليه مظهر الدعة والرخاء التي تطبع أصحاب المدن ممن يؤدون عملا يسيرا ويطعمون طعاما طيبا كثيرا .  
كان الرجل اذا ألحت عليه هذه الأفكار والخواطر يضيق صدره ويشتد تبرمه وسخطه ولا يخاطب المرأة بشيء الا لسكى يسبها لبطنها فيما تقوم به من عمل . وشد ما كان يسره ، اذا استفز طبعها الحاد فأنبرت له غاضبة ، أن يشتبك معها في شجار حامى الوطيس . وكان يجد في هذا ترفيها عن نفسه وشفاء لوجده ، وان كانت دائما تظفر عليه وتتم لها القلبة في النهاية اذ هي احد منه طبعها وأقوى شكيمة . على أنه لم يكن يستطيع أن يصمد للغضب طويلا فقد كان يكل ويعمد الى شيء آخر يسرى به عن نفسه وينسى غضبه .  
وكان غضبها يبدو في أشد صورته وأعنف مظاهره اذا ضرب احد الطفلين أو صاح فيه منتهرا لبكائه . فهي لم تكن تطيق هذا منه . بل كانت تهتاج وتواجهه مواجهة عنيفة وتستنقذ الطفل منه ، فيخرج هو أبدا مهزوما ويجئ الحق دائما في جانب الطفل . ولذلك كان يحنقه منها أن تفضل الأطفال عليه وتؤثرهم دونه . أو هذا ما كان يتصوره .

أجل كان اذا تحالفت عليه تلك الخواطر ، يضيق بكل شيء ولا يجد لذة في شيء ، حتى في أيام العطلة القلائل وأيام الأعياد وأيام الشتاء الطويل الذي لا يؤدي فيه عملا ، بل يلزم فراشه ، واذا لم يستطع الى النوم سبيلا قضى وقته في المقامرة .

وكان في المقامرة رجلا مجدودا موفقا . وطالما عاد الى بيته حاملا أضعاف ما خرج به ، وكم خيل اليه ان حياته تكون هائلة على هذا المتوال لو أنه كان وحده . وكان يحب المقامرة وما تقترن به من لذة الانفعال والحماسة ، كما كان يستهويه أن يرى الرجال يحفون به وهم يبدون اعجابهم ببراعته وخفة أصابعه . والواقع أن الحظ كان يكمن في أصابعه الرشيقة الخفيفة التي لم تتصلب بتأثير المحراث والفأس . فقد كان فتى في ميعة الشباب ونضارة الصبا ، لا يجاوز الثامنة والعشرين من عمره ، ولم يشتغل يوما أكثر مما يجب .

لكن الأم لم تطلع يوما على قلب الأب ولم تقف على شيء مما يساوره . وكانت تعرف هيامه بالمقامرة . ولكن ماذا يضرها من هذا وهو لا يخسر في اللعب ؟ والحق ان براعته في اللعب كانت موضع زهوها وفخارها . وحين كانت رفيقاتها من أهل المزرعة يندبن حظهن اذ يفقد أزواجهن على مائدة الخان ما يربحونه من الدراهم المحدودة



اثناء العمل في الحقول ، كانت تبتسم راضية مسرورة من مقدرته على الربح ولا تنحى عليه باللائمة الا اذا ارادت ان تتخذ من هذا ذريعة لشجار جديد .

ولم تكن تشتد في لومه اذا لم يواصل العمل في الحقل ويثابر مثابرتها ، وان كان في هذه المناسبات لا يسلم من لسانها اللاذع . فقد كانت تعلم ان الرجال لا يقرون على العمل كالنساء . وقد الفت ان تستمر في عملها بينما يلقي زوجها فأسه ويتمدد فوق الحشائش النامية بين الحقول وينام ساعة او ساعتين . لكنها اذا عاتبته مؤنبة بحكم العادة ، اجابها قائلاً : « نعم . من حقى ان انام . فقد اشتغلت ما يكفى لقوتى » .

وكانت تود في مثل هذه المناسبات ان تقول له : « اليس لنا اذن اطفال ومن واجبنا ان نعمل كل ما في وسعنا لكي نوفر القوت لهم ؟ » . لكنها كانت تمسك عن مثل هذا الكلام لانه كان يبدو لها حقاً ان الاطفال هم اطفالها وحدها ما دام زوجها لا يعمل شيئاً لاجلهم . وفوق هذا فلم يكن لها حضور بديهة في الجواب .

لكنها كانت تغضب أحياناً وتشتد في الغضب حين تراه يبتاع من المدينة بعض الحطب التافهة من النقود التي باع بها شيئاً من غلة الأرض ، او حين يسكر في غير ايام الأعياد .

كان غضبها يبلغ مداه في مثل هذه المناسبات ، ويكتسب مرارة تنسيها انها تحبه في أعماق قلبها . ويظل هذا الغضب يعمل في نفسها ساعات طوالاً حتى يعجز عن مجاراتها ويلتمس ما ينسيه غضبها . ففي احد ايام الخريف عاد اليها متحلياً في اصبعه بخاتم من ذهب ، او زعم انه من ذهب . وما كادت تراه حتى ثار غضبها وصاحت فيه مهتاجة حائقة :

— انت .. انت .. لا تحب ان تساهم بنصيبك في بؤس حياتنا .. بل تذهب وتبذر مالنا القليل في شراء خاتم تلبسه في اصبعك ! . هل سمع احد ان رجلاً فقيراً مسكيناً يلبس خاتماً في اصبعه ؟ . ان الفنى هو الذى يحق له ان يفعل هذا ولا لوم عليه . لكن اذا فعله رجل فقير ، فهل لذلك من معنى مشرف ؟ . ذهب ؟ ! . من سمع ان خاتماً من ذهب يشتري بدراهم من نحاس ؟ . وما كاد الرجل يسمع هذا الكلام حتى صاح فيها وقد ثارت ثائرتة وتمرد عليها .

— هو من ذهب كما قلت لك ! . ان الرجل الذى باعه اخبرنى انه

مسرووق من بيت أحد الاغنياء ، وقد ارانيه سرا في الطريق اثناء سيري وكان يخفيه تحت سترته ، وسمح لي أن اراه حينما كنت في طريقي .

... لتكتها قالت له ساخرة :-

- نعم .. فقد رأى امامه مفعلا يسهل خداعه . واذا صح انه من ذهب فهل لم يخطر ببالك أنهم قد يروونه معك في المدينة ويقبضون عليك ويزجون بك في السجن بتهمة السرقة ؟ . فكيف اذن نعيد لك حريتك ، أو نطعمك في السجن ؟ . ارنيه حتى انظر ان كان حقا من ذهب .

لكنه لم يرض ان يعطيها الخاتم ، وهز كتفيه متبرما كالطفل . فلم تطق هذا منه . وهجمت عليه وخمشت وجهه الأملس الوسيم وانهالت عليه بضرب عنيف حتى ارتاع منها ولم يسعه الا ان يخرج الخاتم من اصبعه ويلقيه اليها بازدراء ، ولكن في خوف ايضا قائلا :-

- خذيه ! أعرف أنك غاضبة لأنى اشتريته لنفسى ولم اشتره لك انت ! .

ساورها غضب جديد حين سمعت منه هذه الكلمات ، فقد كانت تعلم انه يقول الحقيقة ، وكانت تعاني في نفسها الما خفيا اذ تراه لا يبتاع لها حلية تضعها في اذنيها أو في اصابعها كما يفعل الأزواج لزوجاتهم ، وقد ساورها هذا الخاطر حين وقع نظرها على الخاتم . وجعلت تحديق فيه ، فقال لها في صوت متهدج بالأسى لحظة السيء وحياته القاسية :-

- انت دائما تستكثرين على اتفه الأشياء . وتحبين ان يتحول كل شيء لهؤلاء الاطفال الذين تربينهم ! .

واخذ يبكى بكاء لا ريب فيه وذهب الى الفراش فانطرح فوقه واستمر في بكائه بصوت عال حتى يصل الى سمع زوجته . وكانت أمه قد سمعت هذا الشجار خائفة مشفقة . فأسرعت اليه تواسيه وتسرى عنه حتى لا يلم به مرض . ورمقت زوجته بنظرات عدائية وقد كانت تحبها دائما وتعطف عليها . وبكى الطفلان لبكاء أبيهما . ورابا في أمهما امرأة قاسية غليظة القلب .

لكن الأم لم تهدأ نائرتها بعد .. فتناولت الخاتم الذى القاه الرجل على الأرض ووضعت بين أسنانها وعضت عليه حتى ترى ان كان حقا من الذهب ليفيدوا منه فائدة محققة . فقد كان المعروف ان

الادوات المبروقة تباع دائما بثمن بخس . على ان المعدن لم يلن تحت اسنانها كما كان يجب لو انه من ذهب حقا . وهتفت في غضب متزايد :

— اذا كان من ذهب ، افلم يكن يلين تحت اسناني ؟ هو معدن صلب من نحاس .

وعضت عليه مرة ثانية ثم قالت وهي تبصق الطلاء الزائف الذي يعلوه :

— انظر ! انه لم يكد يطل حتى بماء الذهب ! .

لم تطق الام ان ترى الرجل يغمر به على هذا النحو الصبياني . فابتعدت عنه وخرجت الى الحقل لكي تشتغل وقد قسا قلبها حتى لم تلق نظرة على الطفلين الباكيين ، ولم تستمع للعجوز التي راحت تقول في صوت متهدج يشف عن القلق :

— عندما كنت في شبابي كنت اترك زوجي يلهو ويتمتع . يجب على الزوجة ان تترك زوجها يتمتع قليلا .

نعم . لم تستمع الزوجة لهذا الكلام . ولم تر فيه ما يهدى غضبها ويخفف حنقها .

على انها بعد ان عملت بعض الوقت في الحقل ذهب غضبها دون ان تشعر بتأثير هواء الخريف العليل ، وسكنت نفسها قليلا ، وعادت اليها طبيبتها . وفيما كانت يدها تنثر الحنطة الشتوية في التربة المحروثة تسلك الهدوء الى نفسها وتذكرت انها تحب هذا الرجل حبا جما وارتسمت امام عينيها صورة محياه الضاحك فهزت من فؤادها وترا حساسا . وقالت لنفسها مؤنبة :

— سأصنع له في الغداء لونا لذيذا . ومهما يكن فاني اسرفت في الغضب بسبب دراهم يسيرة .

اشتدت بها اللفة اذن وعادت الى البيت لاعداد الطعام اللذيذ لكي تبرهن له على انها تبدلت وصفت . لكنها الفتنه لم يزل في الفراش غاضبا ، وقد تمدد موليا وجهه شطر الحائط ولم يشأ ان يقول كلمة واحدة . ولما اتمت اعداد الطعام الذي يحبه ونادته لم ينهض ولم يقبل ان ياكل . وقال بصوت شديد الخفوت وكأنه مريض :

— لا يمكن ان آكل . انك قتلت شهيتي .

لم تجب بكلمة . بل وضعت الصحيفة جانبا وذهبت لاستئاف عملها في الحقل وقد زمت شفتيها ، ولم تنضم الى العجوز وهي



تحاول أن تحمل ابنها على الأكل .  
تذكرت الأم غضبها ورفضت أن تتقدم نحوه بالرجاء . وفيما هي  
تفادر الدار لحق بها الكلب وهو يهمهم جائعا مستعطفا . فعادت  
الى المطبخ حيث كانت الصحيفة التي أعدتها للرجل ، ومدت يدها  
نحوها قائلة :

— لا بأس . سأقدمها للكلب .  
لكنها لم تفعل . ومهما يكن فقد كان هذا الطعام لبنى الانسان ،  
ولا يمكن اضاعته على حيوان . ولذلك أعادت الصحيفة الى السكوة  
الصغيرة في الحائط وجاءت بقليل من الارز وقدمته للكلب .  
على انها ما كادت تستلقى ليلا في الفراش بجانب الطفلين من ناحية  
والرجل من ناحية اخرى حتى تلاشى غضبها . في هذا الوقت بدا لها  
ان هذا الرجل لا يعدو أن يكون طفلا كذلك ، وانه يعتمد في وجوده  
عليها مثل غيره من أفراد البيت .

ولما طلع النهار نهضت هادئة النفس وادعة الخاطر ، وبعد ان  
افطر الجميع الا زوجها ذهبت اليه واخذت تلح عليه لكي يقوم  
ويأكل . فلما بدا له ذلك منها نهض متباطئا كأنما يقوم من مرض  
وتناول قليلا من الصحيفة التي أعدتها له ، ثم اتى عليها حتى آخرها  
اذ كانت من لون يحبه . وفيما كان يأكل راحت المعجوز تنظر اليه في  
محبة وهي تطرق مختلف الأحاديث .

لكنه لم يشأ ان يعمل في هذا اليوم . وفيما كانت الأم تفادر  
البيت ذاهبة الى الحقل جلس فوق مقعد منخفض في مدخل البيت  
تحت اشعة الشمس ، وهز رأسه في ضعف وقال :

— انى احس بفتور والم في قلبي ، وسأستريح اليوم .  
ورات الأم انها اخطأت في حقه حينما أغلظت في معاملته على ذلك  
النحو ، وندمت على ما بدر منها من الغضب ، وقالت له مواسية :

— لك أن تستريح اذن .  
وذهبت الى الحقل .  
على انها ما كادت تذهب حتى دب الملل الى نفسه وضاق ذرعا  
بثرثرة أمه . فان المعجوز له لهما أن تنفرد بولدها طول اليوم  
واسترسلت في الحسديث . اما هو فقد تبرم بكلامها وسئم رؤية  
الطفلين يلعبان .

ولذلك نهض من مكانه وقال لأمه انه يريد ان يتناول بعض الشاي  
حتى يستدق به ، ومضى في الشارع الصغير الى الخان الذي يديره

منه الخامس . وفى هذا الخان رأى أناسا يشربون الشاي ويتجاذبون أطراف الأحاديث . وفى خوانات معدودة تحت قماش مشدود فى عرض الطريق حيث يمر المسافرون وينالون قسطا من الراحة والشراب . وكان يتاح للجلوس اذا مر أحد هؤلاء المسافرين أن يسمعوا بعض القصص الطريفة فى مختلف الشئون . كما يمر بالخان أحد القصاص ويلقى ما عنده من القصص والسير . وهكذا كان الخان مكانا حافلا بالمسرة والنشاط .

على أنه صادف فى طريقه عمه الصموت عائدا من الحقل لتناول الطعام بعد أن قام بقسط من العمل منذ الفجر . وسأله العم قائلا :  
— الى أين تذهب ؟ ولم لا تستقل ؟ .

فاجاب الرجل بلهجة الضعف والشكوى :

— أن امرأتى استنزلت على المرض لاختلافنا على مسألة لا أكاد أمرفها ولم أستطع إرضاءها . ونتج عن هذا أصابنى بمرض جزعت منه هى نفسها حتى أنها امرتنى أن أستريح اليوم وأن أذهب لشرب بعض الشاي تدفئة لمعدتى .

فما كاد العم يسمع هذا الكلام حتى بصق وسار فى طريقه دون أن يقول شيئا . فقد كان قليل الكلام ، وكان بطبعه يحتفظ بأرائه القليلة لنفسه .

وهكذا كان الرجل متبرما بزوجته . ولم يطق التفكير فى جمود حياته وسيرها على هذا النحو يوما بعد يوم وعاما بعد عام ، حتى يهرم ويموت . وشق عليه أن يسمع من المسافرين القلائل الذين كانوا يعرجون على الخان عن وجود أشياء عجيبة مدهشة فيما وراء هذه الروابي والتلال وعند مصب النهر .

هنالك ، على حد قولهم ، كان النهر يلتقى بالبحر . . وهناك توجد مدينة عظيمة حاشدة بالناس من مختلف الأجناس والألوان . والمال ميسور ثيله بعد جهد قليل . ونوادى المقامرة منتشرة فى كل مكان . وفيها فتيات مفضيات حسان لا يحلم أصحاب هذه القرية برؤية مثلهن مدى الحياة .

وفى المدينة بعد ذلك مشاهد أخرى عجيبة . . ففيها الشوارع الممهدة ، والمركبات المختلفة ، والدور الشاهقة كالجبال ، والحوانيت ذوات الواجهاة الحافلة بصنوف السلع المجلوبة فى السفن من وراء البحار . وقد يمضى الانسان حياته كلها فى التطلع الى هذه الواجهاة دون أن يحيط بها . وفيها الطعام الجيد الوفور واللحوم والأسماك

المنوعة . واذا اكل الانسان انتقل الى ملاعب كبيرة تمثل فيها مختلف المشاهد الحية والمتحركة . فيهنّا ما يضحك الناظر حتى يتشقق بطنه . ومنها العجب المخيف المروع . ومنها الملىء بالدهاء والشر . بل أعجب وأروع من هذا كله أن الليل في هذه المدينة العظيمة ساطع كالنهار ، تضاء فيه مصاييح لا توقد بالأيدي ولا باللهب ، بل بنور صاف يستمد من السماء .

وكان الرجل يلعب أحيانا مع أحد هؤلاء المسافرين ، فلا يملك هذا إلا أن يندى عجبه ودهشته من وجود مثل هذا اللاعب الماهر في مثل هذه المزرعة الصغيرة ، ويقول له ، « أنت تلعب يا صاحبي كأهل المدن ، وبإمكانك أن تلعب في أي ملهى في المدن ! .. » .

فإذا سمع الرجل هذا الثناء ابتسم وقال بلهجة الجد : « هل تحسب أنني أستطيع أن أفعل هذا حقا ؟ » . ثم يناجى نفسه في ازدراء ولهفة بهذه الكلمات : « صحيح أنه لا يوجد في هذا المكان الكتيب من يجاريني في اللعب ، أنني أصمد في البلدان الصغيرة لكل واحد من لاعبيها » .

كان كلما فكر في هذا الشأن اشتدت لهفته لهجر هذه الحياة الريفية التي يمقتها ، وطالما ناجى نفسه وهو ينهال بفأسه على الأرض بهذه الكلمات : « هأنذا شاب جميل في أصابعي حظ وبراعة ، ولكني محصور كالسمكة في قاع بئر .. وكل ما أراه هو هذه السماء المستديرة فوق رأسي ، في صحوها ومطرها .. وهذه الزوجة التي تلد أطفالا متتابعين متشابهين يكون ويصرخون ويطلبون القوت .. فما الذي يحملني على افناء قوتي لأطعامهم وما الذي يضطرنى ألا أتمس لنفسي تسلية في حياتي الخاصة ؟ » .

والواقع أنه لم يستطع أن يكتم تبرمه بزوجته وحنقه منها حين حملت ووضعت هذا المولود الأخير ، وما برم بها وحنق منها إلا لأنها كانت تحمل في سرعة ويسر ، وإن كان يعرف أن هذه طبيعة تحمد للمرأة ولا توجب لومها ، وكان يوجد أساس لشكواه لو أنها كانت عاقرا ، لا ولودا تنجب له أبناء كل عام .

لكنه لم يكن يستمع لصوت الحكمة والعدل في هذه الأيام . فقد كان فتى في بعض أطواره ، وكان أصفر من زوجته بعامين كما هي العادة في تلك الجهات حيث يستحب أن يكون الرجل أصفر من زوجته سنا ، وكان فؤاده ينبض في صدره بالحياة الدافقة والعاطفة الفائرة ، ولم يكن يعنيه في شيء أن يكون أبا لأطفال بل كان يعنيه



اللهو والمرح والمشاهد الطريفة والمسرات التي يستطيع أن يلتبسها في أية مدينة بعيدة .

والواقع أن تركيبه الجسدي كان يهيئه لهذا اللهو . فقد كان متناسق الجسم ، قوى البنية خفيف الحركات ، رشيق الإيماءات . وكان صبوح الوجه بارق العينين بشوش المحيا . وهو يتقن الفناء ويجيد القاء العبارات التي تبدو بسيطة في ظاهرها ، ولكنها مليئة بالدلالات الخفية التي يحبها أهل المدن . وكان بوسعه أن يضحك الناس بأغانيه ونكاته ، وكان القوم من أفراد الجنسسين يحبونه ويستطيعون مجلسه ، وكان إذا سمعهم يضحكون رقص فؤاده طربا لقدرته وبراعته فإذا عاد إلى بيته ورأى وجه زوجته الرزين الساكن وقوامها المتين خيل إليه أنها وحدها لا تعرف قدره في الرجال ، إذ كانت لا تتوجه إليه بأى مدح أو ثناء . ومن المقرر أنه لم يكن يمزح في بيته وقلما كان يداعب أطفاله ، بل يؤثر الأجانب بدعاباته ونكاته . وكانت المرأة تعرف فيه هذه الصفات ، فتفضيها هذه المعرفة حيناً وتشير إليها حيناً آخر . إذ كانت رغم حبها له لا تظفر منه بهذا المرح الذي يختص به قوما غيرها .

ثم حدث بعد مولد الطفل الرابع في مطلع فصل الصيف أن نشب بينهما شجار حاد ، بل لعله أسوأ واحد ما شجر بين زوجين . حدث هذا في الشهر السادس من العام . في يوم صفت سماؤه واعتل نسيمه وغردت أطياره وتمأملت خمائله وأفنائه وفاح شذاه عطرا يسكر النفوس ويبعث الأحلام المسذبة والأخيلة الجميلة في الرءوس .

في هذا اليوم اشتدت حرارة الطقس فلم يستطع الرجل أن يذهب للعمل في الحقل . بل لم يستطع أن ينام لفرط ما كان اليوم ينبض بالحياة والمرح .

وحوالى ظهر هذا اليوم المشرق مر بالقرية رجل يبيع اقمشة صيفية مختلفة الألوان والرسوم ، يحملها على كتفه - وكان ينادى في طريقه عليها .

ولما جاء البائع إلى هذا البيت حيث جلس الرجل والمرأة والعجوز والأطفال الصغار في ظل شجرة الصفصاف يتناولون غداءهم ونادى :  
- « هل أقف يا سيدتى وأريك أقمشتى ؟ » ..

لكن الأم أجابته قائلة :

- لا نقود عندنا ، إلا إذا كان عندك فضلة من قماش عادى رخيص

لهذا المولود الجديد . نحن فلاحون فقراء لا نملك شراء أقمشة جديدة  
الا ما كان ضروريا لستر أجسادنا .

ولم يكن بد من أن تضيف العجوز شيئا من عندها كشأنها أبدا  
فقالت فى صوتها الراعى :

— نعم . ان زوجة ابنى قالت الحقيقة . والأقمشة فى هذه الأيام  
أصبحت ضعيفة تبلى بعد غسلها مرة أو مرتين . وأذكر أنى فى شبابى  
ليست جلبسب جدتى ، وقد عاش حتى تزوجت وكان فى حالة  
صالحة ، ولم أغيره الا عملا بالمظاهر .

وما كاد البائع يسمع هذا الكلام حتى آنس فرجا ودنا من اهل  
الدار . وكان رجلا شديد اللبابة واسع الحيلة كأهل مهنته . فأجاب  
الأم والعجوز بكلمات طيبة . واستطرد :

— يا أمى . عندى قماش جيد كالأقمشة القديمة التى تتكلمين  
عنها ، وهو يصلح أيضا لحفيدك . وهذه يا ( ست ) فضلة بقيت  
من ثوب كبير اشتريته منى سيدة غنية فى احدى القرى الكبيرة التى  
مررت بها . وقد ابتاعته لولدها الوحيد . وقد أخذت منها ثمنا  
مناسبا لأنها كانت قطعة كاملة سليمة . ولكن ما دامت هذه الفضلة  
قد بقيت معى فانى امنحها لك أيتها الزوجة الطيبة اكراما لهذا الطفل  
الجميل الذى تحمله فوق صدرك .

فاه الرجل بهذه الجملة فى نعومة وفى نفس واحد . ثم أخرج  
من بضاعته فضيلة جميلة خضراء اللون منقوشة بورود حمراء  
كبيرة .

وما كادت العجوز تراها حتى هتفت سرورا اذ استطاعت تمييز  
لونها فى يسر وفى غير عناء . كما أعجبت بها الأم . ثم أقيت نظرة  
على الطفل الرضيع فوق صدرها وكان عاريا لا يكاد يستره سوى  
خرقة بالية حول وسطه . وكان حقا طفلا بضا جميلا ، بل كان أجمل  
أطفالها الثلاثة ، وهو اقربهم شبها بأبيه ، ولو أنه لبس هذا القماش  
المنقوش بالورد لبدا أكثر جمالا ..

دارت هذه الخواطر برأس الأم ، واحست بقلبها يلين ويستسلم ،  
وقالت مكرهة :

— ما هو ثمنها اذن ؟ .. لكنى مع ذلك لا أقدر على شرائها  
لأننا لا نكاد نملك ما يكفى لاطعام هؤلاء الأطفال وهذه العجوز ودفع  
اقساط المالك . لا يمكننا شراء أقمشة طيبة كالتى تشتريها النساء  
الفنيات لأطفالهن الوحيدين .

بدت على العجوز دلائل الكآبة حينما سمعت هذا الكلام . وتسالت البنت من مكانها ودنت من البائع لالقاء نظرة على القطعة ، وجعلت تحديق فيها بنظرات الكليل عن كئيب . واستمر الولد يأكل دون أن يحفل بشيء . أما الرجل فجلس فى مكانه متكاسلا يفنى قليلا ولا يعنيه شيء من هذا الذى يدور لا لشيء الا لشراء قماش لوليد صغير .

ثم أدنى الرجل قطعة القماش من الطفل وقال يستحث المرأة بصوت خافت :

- قماش متين ! . بضاعة طيبة ! . لون جميل ! . ان يدي أمسكت قماشاً كثيراً . لكنى لم أحمل أفضل من هذه القطعة . لو كان لى ولد لاحتفظت بها له . لكن زوجتى امرأة مسكينة عاقر . ولا يمكن أن أفسد مثل هذه الفضلة باعطائها لها .

ما كادت العجوز تسمع قصة الزوجة العاقر حتى وجدت فيها مادة طيبة للكلام ، فهتفت ؟ .

- مسكين . وانت رجل طيب . ولكن لم لا تتزوج مرة ثانية وتجرب حظك من جديد ؟ .

لم تسمع الأم هذه الكلمات . . وجلست فى مكانها مترددة مفكرة وزاد قلبها ضعفا واستسلاما . . وألقت نظرة ثانية على الطفل فاذا هو قد زاد جمالا حينما طرح البائع قطعة القماش فوق جلده الذهبى ووجنتيه الموردين . واستسلمت آخر الأمر قائلة :

- ما هو اقل ثمن تطلبه اذن ، لانى لا اقدر على دفع ثمن كبير . حدد البائع ثمنا . ولم يكن كبيرا كما خافت ، فرقص قلبها فرحا . لكنها هزت رأسها وعرضت عليه نصف هذا الثمن كما كانت تقاليد المساومة فى هذه الجهات . ولكن هذا الثمن كان ضئيلا فلم يسع البائع الا أن يسترد القطعة ويعيدها الى بضاعته واستدار فى مكانه متظاهرا بالانصراف . ثم تذكرت الأم طفلها الجميل وعرضت عليه ثمنا وسطا وظلت المساومة سجالا بين البائع والشارية حتىلقى الأول بضاعته ثانية وأخرج منها الفضلة السالفة الذكر بعد أن قبل ثمنا أدنى قليلا مما حدده . . فنهضت الأم لاحتضار النقود من الكوة الكائنة بالجدار .

حدث هذا كله والاب جالس فى مكانه متكاسلا يفنى تارة ويشرب الماء المغلى الذى اعتاد شربه بعد الأكل تارة اخرى ، دون أن يساهم بشيء فى هذه الصفقة .



لكن البائع كان رجلا بارعا قديرا على انتهاز الفرص . فبسط قطعة من الكتان الأزرق متظاهرا بعدم الاكتراث واختلس نظرة الى الرجل حتى يرى ان كان ملتفتا اليه ، وقال له ضاحكا :

— هل اشتريت جلبابا لنفسك هذا الصيف ؟ . اذا لم تكن فعندى جلباب لك . وأحلف أنه أرخص مما تشتريه في أى حانوت في المدينة . لكن الرجل هز رأسه وظللت وجهه سحابة قاتمة وقال بمرارة :

— ليس عندى نقود في هذا البيت اشترى بها شيئا . وليس لى الا أن اشتغل دون أن انال شيئا . وكل ما أربحه يذهب فى القوت . كان البائع قد طاف كثيرا وتوفرت له خبرة بأحوال الرجال . ورأى بنظرة واحدة ان هذا الرجل يميل الى اللهو والسرور ، وأنه مضطر أن يحيا حياة لا يميل اليها ، فقال له متظاهرا بالشفقة والرثاء :

— فى وسعى أن أرى أنك رجل تعيش عيشة قاسية . لكن اذا اشتريت جلبابا جديدا فستراه كالدواء الشافى يدخل السرور على قلبك ، وليس كالرداء الصيفى يجلب السرور الى نفس الانسان . واذا جلوت هذا الخاتم وصففت شعرك بالزيت ولبست هذا الرداء فلن أجد فى المدن رجلا أجمل منك منظرا .

طرب الرجل حينما سمع هذا الكلام . وضحك عاليا فى شيء من الحياء . ثم تذكر نفسه وقال :

— ولم لا اشترى لنفسى رداء جديدا مرة فى حياتى ؟ لا يوجد أمامى الا الأطفال يولدون واحدا بعد الآخر . وهل كتب على أن ألبس الخرق البالية الى الأبد ؟ .

ومال الى الامام بسرعة وجعل يتحسس القماش بأصابعه . وكانت العجوز قد سمعت كلامه وتحمست لرأيه . فهتفت :

— هذا قماش جميل يا ولدى . واذا كان لايد من رداء فليس أجمل من هذا الرداء الأزرق الذى هو أجمل ما رأيته فى حياتى . وأذكر أن أباك اشترى رداء مثله . وهل .

لكن الرجل قال فجأة بخشونة :

— كم ثمن الرداء من هذا القماش ؟ . .

وما كاد البائع ينطق بالثمن حتى عادت الأم ومعها النقود ، فهتفت فى جزع :

— لا يمكن أن ننفق أكثر من هذا ! .

فلما سمع الرجل صيحتها تصلب قلبه وقال باصرار :

— لكنى سأخذ رداء من هذه القطعة وأنا أفضلها ولايد أن انالها

فى الحال . وىوجد عندنا تلك القطع الفضية الثلاث التى اعرف اننا نملكها .

كانت هذه القطع ذات قيمة مالية طيبة وقد جاءت بها الام حين زواجها هدية من امها . وهى لذلك كانت تقدرها وتعز بها ولم تشأ يوما ان تفرط فيها . بل انها حين ابتاعت نعل العجوز وقد كان الظن انها توشك ان تموت اقترضت من هنا ومن هناك ولم تنفق شيئا من هذه القطع ، فقد كانت تعدها ثروة مدخرة لايام الشدائد كالحروب والكوارث التى تنزع منهما ارضهما . وكانت مطمئنة الى انهم يستطيعون اذا نزلت بهم هذه الملمات ان يتقوا شر الجوع حينئذ من الزمن بفضل هذه القطع الفضية الثلاث . ولذلك لم تمالك ان هتفت :

— لا يمكن ان تنفق هذه الفضة .

لكن الرجل وثب من مكانه بسرعة الصقر ومرق بجانبها فى عنف وذهب الى كوة الجدار وفتش عن الفضة حتى وجدها .. بيد ان الام لحقت به واستوقفته وتشبثت به . لكنها لم تكن فى مثل خفته ونشاطه فقد دفعها جانبا فسقطت على الارض وهى تحمل الطفل بين ذراعيها . وركض صائحا :

— اقطع اثنتى عشرة قدما من هذا القماش ولا تنس القدم الزائدة كالعادة !

اسرع البائع بتلبية هذه الرغبة وتناول النقود فى عجلة رغم انها كانت اقل مما طلب ، لكنه كان متلهفا للابتعاد وبيع القماش فى وقت واحد . ولما جاءت الام كان البائع قد مضى فى طريقه ووقف الرجل فى ظل الشجرة حاملا الثوب الازرق الزاهى الجديد بين يديه ، وقد ذهبت نقودها الفضية .

وجلست العجوز خائفة مشفقة ، ولما رأت الام تدنو سارعت بالكلام قائلة فى صوتها المتهدج :

— هذا جلاب جميل يا ولدى . وهو ليس غالبا . ولم تشتتر رداء صيفيا منذ زمن طويل .

لكن الرجل رمى زوجته بنظرة صارمة وقد احتقن وجهه ، وصاح هادرا وقد جعل منه الغضب رجلا مستاسدا :

— هل تصنعينه اذن ، او اذهب به الى امراة اخرى وادفع لها اجرا واقول لها ان زوجتى رفضت صنعه ؟

لكن الام لم تنبس بكلمة . بل جلست فوق مقعدها الصغير صامنة

ساحبة اللون مرضوضة بتأثير سسقطتها ، وكان الطفل يصرخ بين يديها مذعورا خائفا . فلم تهتم به وأجلسته على الأرض وتركته في صراخة وعقدت شعرها المهدل . وأخذت تلهث قليلا وازدردت ريقها . ثم قالت أخيرا دون أن تنظر الى الرجل :  
- هاته ! . سأصنعه ! .

فقد خجلت أن تصنع الثوب امرأة أخرى وتقف على تفصيلات المشاجرة أكثر مما عرفت سائر النسوة التي كن يرقبن من بيوتهن ما يجرى بعد أن سمعن صيحات الزوجين .  
لكن الأم أسرت في نفسها هذا الموقف لزوجها . ومع أنها أخذت تصنع الثوب ببراعة لأنها كانت بارعة في ذلك ولأن القماش كان من نوع طيب ، فإنها لم تجد أقل لذة في هذا العمل ، ولزمت الصمت والصلابة أزاء الرجل طول الفترة التي استغرقها صنعه .  
ونقم الرجل منها هذا المسلك وضاق بها ، فكف عن الفناء ، وكان إذا تناول طعامه يسرع الى الخان حيث يجلس مع الرجال ويشرب الشاي ويقامر الى وقت متأخر في الليل ، وذلك لكي يستيقظ متأخرا في اليوم التالي .

وكان إذا فعل ذلك في الأيام العادية انحت عليه باللوم حتى يلعن ايثارا للسلم . أما الآن فقد كانت تتركه ينام وتذهب وحدها الى الحقل وقد امعنت في صمتها وجفائها مهما بدا لها منه وان كانت تحس في نفسها وحشة والمأكلما قست عليه وجفته .  
ولما تم صنع الرداء أخيرا بعد أن استغرق وقتا طويلا لانهماكها في زراعة الأرض لم تقل له رأيا فيه حينما لبسه . أما هو فقد جلا الخاتم بمسحوق الأحجار وصفف شعره بزيت صبه من زجاجة المطبخ ، وخرج الى الشارع يسير متهاديا .

وقد جعل الناس يهتفون معجبين بزيه الجديد ممتدحين بحسن هندامه ولكنه لم يطرب ولم يطمب نفسا كما كان يجب .  
أما هي فلم تقل له كلمة واحدة . ولما وقف متسكما عند الباب قليلا استأنفت كنس الأرض حول البيت دون أن ترفع رأسها أو تسأله هل تناسب الرداء مع قوامه وهيكله ، كما كان شأنها حتى حين كانت تصنع له حذاء جديدا ولم يتمالك آخر الأمر أن قال في حياء :

- يبدو لي أنك صنعت هذا الرداء أفضل من أي رداء غيره ، وهو يناسبني كأنه رداء أحد أهل المدن .



لكنها مع ذلك لم تتطلع اليه بل وضعت المكنسة القصيرة في أحد الأركان وجاءت بقدر من الصوف المنقوش وجعلت تفزله خيوطا بعد أن استنفدت ما كان عندها من الخيط في صنع الثوب الأزرق . وأخيرا قالت بمرارة :

— بل يجب أن يبدو كرداء الإمبراطور بعد أن كلفني هذا الثمن . على أنها مع ذلك لم تنظر اليه . بل لم تنظر اليه حتى حين سار في الشارع . ولم تختلس نظرة واحدة خلفه بعد أن أدار لها ظهره وذهب .

فقد أحسبت في نفسها بمرارة البينة منه ، وإن كانت تعترف بأن الرداء كان متسقا فوق جسده .

### الفصل الخامس

جعلت الأم طوال هذا اليوم تترقب عودة الرجل إلى البيت . وكان يوما يستطيع الإنسان فيه أن يترك في الحقول وعوس التبت الصغير الغض تمايل في الهواء اليسير تحت أشعة الشمس الدافئة . ولم يكن بالزراع من حاجة للذهاب إلى الحقول في يوم كهذا . وهكذا جلست الأم في ظل شجرة الصفصاف تفزل خيط الصوف ، وجاءت المعجوز فجلست قريبا وقد لذ لها أن تجد من يستمع لها . وفيما كانت تسترسل في الحديث فكت ثوبها وبسطت ذراعيها النحيلتين المفضنتين تحت أشعة الشمس وجعلت تستشعر حرارتها الطيبة في عظامها . وجعل الطفلان يتراكضان عاريين في أشعة الشمس كذلك . لكن الأم لظمت الصمت وأفرقت في صمتها . وجعلت تفزل خيوط الصوف بيد مدربة قديرة . وكلما فزلت منه قدرا لفته حول عود من الخيزران أعدته لهذا الغرض . وكانت الخيوط قوية متينة .

ولما توسطت الشمس كبد السماء تركت الفزل ونهضت قائلة بلهجة جافة :

— سيعود إلى البيت بعد قليل وقد اشتد جوعه رغم ثوبه الأزرق .

وقالت المعجوز وهي تضحك ضحكتها الضعيفة :

— نعم . أن الذي فوق بطن الرجل يختلف عن الذي في داخله . قامت الأم اذن وملات كيلا من الأرز من سلة تخزينه فيها ، وسوت

سطح الارز بيدها الثانية حتى لا يسقط منه شيء ، وأفرغت الارز في سلة أخرى مصنوعة من الخيزران الدقيق المشقوق ، ثم قصدت الى حافة التربة وصوبت نظرها في الشارع وهي في طريقها . لكنها لم تلمح اثرا لثوب أزرق جديد .

انحدرت الأم محاذرة فوق شاطئ التربة واخذت تفصل الارز . فدست السلة في الماء وجعلت تفرك حبات الارز بيدها السمرء القوية ، وكررت هذه العملية مرات حتى بدا الارز ناصع البياض كاللؤلؤ .

وفي طريقها الى الدار انحنت وانتزعت رأسا من الكرنب النامي ، وألقت بعض الحشائش الى الجاموسة المقيدة الى أحد الاشجار ، ثم عادت الى البيت .

ثم جاء الولد من الشارع يقود اخته من يدها ، فسأله الأم بهدوء :

— هل رأيت أباك في الشارع ، أو في الخان ، أو عند بيت من البيوت ؟

فأجاب الولد :

— أنه جلس قليلا في الصباح يشرب الشاي في الخان . وأنا رأيت ثوبه جديدا وأزرق ولامعا . ولما رآه عمى وعرف ثمنه قال انه كلف أبى كثيرا .

فقالت الأم وقد اكتسب صوتها فجأة رنة الصلابة :

— نعم ! وأيم الحق قد كلفه كثيرا !

وقالت الابنة تردد كلام أخيها :

— تماما . كان ثوبه أزرق . وأنا ايضا رأيت انه كان أزرق .

لكن الأم لم تزد شيئا عما قالت . فقد كان الطفل الوليد نائما في سلة مصفورة واستيقظ وأخذ يبكي . فأنحنت الأم وفتحت رداها وحملته الى صدرها وجعلت ترضعه بينما ذهبت لطهى الطعام . لكنها قالت أولا للعجوز :

— اقعدى مكانك يا أمى وراقبى الشارع . وإذا رأيت لون رداؤه الأزرق نبهينى حتى أضع له الأكل فوق الخوان .

فقالت العجوز راضية مسرورة :

— حسنا يا ابنتى .

لكن الارز تم نضجه ولم يأت الرجل بعد . ثم نضجت الكرنبة وصبت الأم فوقها بعض الصلصة كما يحب الرجل . لكنه مع ذلك

لم يرجع الى البيت .  
انتظر الجميع قليلا ودب الجوع في احشاء العجوز ونفذت رائحة  
الطعام الى خياشيمها فكاد يغمى عليها ، وهتفت غاضبة لفرط  
جوعها .

— لا تنتظري هذا الابن اكثر من ذلك . ان اللعاب يسيل من فمى  
وبطنى خاوية كالطبل ، وهو لم يأت بعد .  
وهكذا قدمت الأم العجوز صفحتها واطعمت الطفلين كذلك وقدمت  
لهم جميعا جانبا من الكرنبة لكنها استبقت قلبها للرجل . ثم اكلت  
بدورها ، وان لم تصب من الطعام سوى قدر يسير اذ احسنت  
بازورار هذا اليوم . هكذا بقى للرجل نصيب وافر من الارز ،  
وشطر كبير من الكرنبة . ثم ارضعت الطفل فنهل حتى ارتوى ونام  
في أشعة الشمس الحامية قوى البنية ممتلىء الجسم موفور الصحة  
مورد الوجه . وتمدد الولد والابنة في ظل شجرة الصفصاف  
واستسلما للنوم وأغفت العجوز فوق مقعدها . وخيم فوق المزرعة  
الصغيرة سكون القيلولة وهذا الظهيرة . بل حتى الدواب جمعت  
فى مرابطها مدلاة الرؤوس خدرا .

لكن الأم وحدها لم تنم . فقد تناولت مغزلهما وجلست فى ظل  
شجرة الصفصاف واستأنفت الغزل ولف الخيط . لكنها لم  
تستطع ان تواصل الغزل بعد قليل . فقد كانت تفعل هذا فى ضحوة  
النهار فى يسر وسهولة لكنها لم تستطع الآن ان تلزم السكون .  
فقد خيل اليها ان قلقا غريبا يستقر فى نفسها . وهى لم تعهد من  
الرجل قط ابطاء فى العودة لتناول طعامه . وغمغمت قائلة لابد انه  
ذهب الى البلدة للمقامرة او لى شىء آخر .

لم تكن قد فكرت فى هذا الشأن من قبل . لكنها كلما فكرت فيه  
الآن خيل اليها انها تزيد اقتناعا . ثم خرج العم من داره ذاهبا  
الى الحقل . وبعد قليل افاقت زوجته من نومها حيث تمددت قرب  
احدى الاشجار وسألتها :

— هل ذهب زوجك الى مكان ما ؟

فأجابت الأم ببساطة :

— نعم . ذهب الى البلدة لبعض شأنه .

وقال العم وهو يفتش بين فتوسه ومجارفه :

— نعم . وأنا رأيته مسرورا بثوبه الأزرق الجديد ذاهبا الى

البلدة .



سرى عن الام قليلا بعد هذا الحديث . وانشأت تفزل او فر نشاطا  
واكثر انبعاثا . فقد رآه العم يمضى الى البلدة . ولا ريب انه ذهب  
يلتمس بعض اللهو والمرح انتقاما لنفسه منها . وهذا ما يمكن ان  
يفعله بعد أن لبس الرداء الجديد الأزرق وجلا الخاتم النحاسى  
وصفف شعره بالزيت . وقد حاولت ان تغضب قليلا ازاء هذا  
الخاطر . لكن غضبها كان قد خمد . ولم يكن بوسعها أن تحييه من  
جديد ، فقد شابهها قلق غريب رغم كلمات العم .

وأخذ النهار ينصرم متثاقلا مشحونا بالحسرة . واستيقظت  
العجوز وهى تهتف شاكية من جفاف حلقها ، فنهضت الام وجاءتها  
بقليل من الشاي واستيقظ الطفلان وأخذوا يتمرغان فى التراب قليلا  
ثم نهض أخيرا وانشأ يلعبان . واستيقظ الطفل وتمدد ، طروبا  
فى سلتة سعيدا بنومة .

لكن الام لم تذق طعم الراحة والسكون . ولو استطاعت لعالجت  
النوم . ولو كان يوما غير هذا الأخذتها سنة من النوم حتى وهى تفزل  
فقد كانت سليمة البنية موفورة الصحة وكان النوم يلم بها عميقا  
هنيئا دون أن تلتسمه . لكنها اليوم كانت تحس لدعا فى قلبها جعلها  
دائمة اليقظة والاصفاء لكل صوت .

ثم نهضت أخيرا متبرمة من طول الانتظار متضجرة من اقفار  
الشارع الذى بدا مقفرا فى نظرها مذ كانت لا ترى فيه من ترقبه .  
فحملت الطفل ووضعت خلف ظهرها وتناولت الفأس قاصدة الى  
الحقل ، وقالت العجوز :

— سأذهب لتنقية القمح عند التل الجنوبى .

وفيما هى تمضى فى طريقها رأت انه أيسر لها الا تبقى فى الدار وان  
الساعات تمر سريعا اذا تشاغللت بعمل شاق مضم .

وهكذا أمضت ساعات العصر تشتغل فى حقل القمح ، وحجبت  
وجهها بمنديل أزرق من القطن دفعا لحرارة الشمس . وجعلت ترفع  
وتهوى بفأسها بين سنابل القمح الخضراء اليانعة . ولم يكن هذا  
الحقل سوى منطقة صغيرة محدودة . أما الأرض فقد برعت أرزا  
لأن الأرض طعام أقوم واجلب للربح .

وكانت أشعة الشمس تنصب فوق سطح التل المكشوف وتغمرها .  
وسرعان ما ابتل رداؤها بالعرق . لكنها لم تشأ أن تستريح الا بعد  
أن بكى الطفل . فافتрشت الأرض وأرضعته وجففت وجهها الملتهب  
وسرحت طرفها فى أرجاء الحقول المشرقة ، فلم تر شيئا .

ولما شبع الطفل وضعته ثانية على الأرض ونهضت واستأنفت عملها وظلت تكدح حتى دب الألم إلى جسدها وكلت قواها . وأخيرا استقرت الشمس عند حافة الأفق . وخيم الظل فوق الوادي فجأة . واذ ذاك استقامت في مكانها ومسحت وجهها بردائها وغمفت بصوت عال :

— لابد أنه الآن ينتظر في البيت . ويجب أن أعود لأعداد طعامه . وحملت الطفل وعادت به إلى البيت .  
لكن الرجل لم يعد .

لما وصلت إلى الدار لم تجده . ورات العجوز تحديق في قلق شطر الحقول . وجلس الطفلان فوق عتبة الباب ينتظران في أعياء واستقبلاها بالصياح حينما وقع نظرها عليها . فقالت في حيرة :

— أبوكم . ألم يأت بعد ؟

فهتف الولد :

— كلا . وأنا جوعان .

وردت الابنة كلام أخيها في صوتها المتقطع ، وجلست مطبقة الجفنين في أشعة الشمس الفسارية . ونهضت العجوز وسارت منمالة ونادت العم إلى بيته قائلة :

— هل رأيت ولدي في أي مكان ؟

لكن الأم هتفت فجأة متبرمة :

— كفى يا أمي .

فقالت العجوز وهي تحديق في اضطراب :

— حسنا . لكنه لم يعد .

لكن الأم لم تقل شيئا . بل قدمت للطفلين أرزا باردا . ودفأت بعض الماء وصبته فوق الأرض وقدمته للعجوز ، وألقت للكلب ببعض الفضلات . وتركتهما جميعا يأكلون وخرجت إلى الشارع حاملة طفلها فوق ذراعها وقصدت إلى الخان .

لم تجد في الخان سوى أشخاص قلائل . وصادفت في الطريق رجلا أو اثنين عائدين إلى القرية المجاورة فقد انتهى عمل النهار وأذنت الساعة بالأياب إلى البيوت . وقد خطر لها أنه قد يكون جالسا إلى خوان قريب من الشارع حتى يرى ويسمع ما يجري ، أو جالسا إلى خوان مع أحد الأشخاص لأنه لم يكن يتأخر في العودة ما استطاع ، أو ربما كان مشتركا في بعض اللعب الدائر .

ولكن لما وصلت إلى الخان وأدارت النظر لم تلمح أثرا لرداء

أزرق ولم تسمع صوت لعب دائر . فدخلت الخان ونظرت فيه ، بيد أنها لم تجده في الداخل . وانما وجدت صاحب الخان واقفا يستريح بعد انتهاء العشاء مستندا الى الحائط قرب الفرن . وكان وجهه اسود اللون بالدخان والشحم المتراكم اياما ، فقد رأى من العيب في مثل هذه المهنة أن يفسل وجهه ، إذ يعود سيرته الأولى من السواد بعد قليل .

وقالت له الأم :

— هل رأيت أبا أولادى ؟

لكن الرجل جعل يقضم أظفاره السوداء وقال متكاسلا :

— انه جلس هنا فترة في الصباح بردائه الأزرق الجديد ، ثم ذهب الى جهة البلدة .

ولما آنس في هذا الشأن مادة للحديث والتعليق هتف فجأة :

— هل حدث شيء ؟

فأجابت الأم بسرعة :

— لا شيء . لا شيء . انه انشغل في البلدة وتأخر . ولا شك .

ولربما بات الليلة في الخارج وعاد الى البيت غدا .

فقال صاحب الخان وقد استفزه الفضول فجأة :

— وما الذى شغله ؟

فأجابته قائلة :

— وكيف أعرف ، ولست الا امرأة ؟

عادت الأم الى البيت ، وفي طريقها اليه كانت تجيب سائلها بطرف اللسان وتفكر في شأن آخر . ولما وصلت الى الدار قصدت الى كوة الحائط وفتشت فيها . فاذا هي خاوية .

كانت تعلم ان فيها مبلغا لا بأس به من العملة النحاسية وقدرا يسيرا من النقود الفضية ايضا . فقد باع قش الارز بثمان طيب منذ نحو يومين اذ هو بارع في مثل هذه الصفقات ، وعاد الى البيت بقسط كبير من هذه النقود . وهى قد أخذتها منه ووضعتها في الكوة وكان يجب ان تبقى حيث كانت . لكن لم يكن لها الآن اثر .

اذ ذاك أيقنت وهى في ذهول انه ذهب حقا . فجلست فوق الأرض الطينية وأمسكت الطفل بين ساعديها وجعلت تهتز الى الخلف والى الأمام فى صمت وتؤدة .

اذن فقد ذهب حقا !

وبقيت وحدها مع المعجوز والأطفال الثلاثة .



وقبأة اخذ الطفل يتعلم ويتبرم ، فأخرجت له ثديها دون أن تفكر فيما تفعل . وجاء الطفلان الى الداخل . وكانت البنت تبكي بهرب حافت وبفرك عينيها . وجاء العجوز ايضا متدنه على عصاها وهي لا تفتأ تبديء وتعيد :

— ترى أين ولدى ؟ . هل قال ابني الى أين ذهب يا ابنتي ؟ . عجيب أين ذهب ابني ؟ .

فما كادت الأم تسمع هذا الكلام حتى نهضت وقالت :  
— سيعود غدا ولا شك يا أمي . فارقدى الآن ونامى . سيعود غدا . أصفت اليها العجوز ورددت قولها وقد سرى عنها :  
— نعم . سيعود غدا ولا ريب .

ثم ذهبت الى فراشها لتحسس الطريق فى الغرفة المظلمة .  
أما الأم فقد ذهبت بالطفلين الى الفناء لكى تفسلهما كما كانت عاداتها فى ليالى الصيف قبل النوم . فصببت اناء من الماء فوق كل منهما . وجعلت تدلك جسديهما الأسمرين الأملسين براحة يدها . لكنها لم تلتفت الى ما قال كلاهما ، ولم تعبأ بأثنين البشت وشكواها من عينيها .

ولما ذهبوا للنوم فى الفراش دهش الولد لغياب أبيه ، وهتف :  
— اذن أين سينام أبى ؟ .

وفى هذه اللحظة فقط أفاقت الأم من ذهولها ، وأجابت :  
— سينام فى البلدة بغير شك . ويرجع غدا أو بعد يومين . ثم أردفت وقد انتابها الغضب فجأة :

— سيعود ولا ريب بعد أن تنفذ منه تلك النقود . واستطردت فى لهجة مريرة :

— وبعد أن يتسخ رداؤه الجديد ولا يبقى بد من غسله .  
وداخلها السرور الى حد ما إذ رأت انها استطاعت أن تفضب منه وتحقق عليه ، وتشبثت بهذا الغضب وهذا الحنق ، فقصد بدا لها أنه أقرب اليها كذلك . واستمسكت بهذا الاحساس المبتسر وهي تؤوى الدواب وتوصد الباب .. وغمفت :

— لا ريب انى سأكون سابعة فى النوم حينما يعود فى الليل ويترك الباب . لكن سرعان ما قارقها الغضب وانتابها الخوف فى جنح الظلام وفى هدأة الليل الحار وفى سكون الغرفة الموصدة .

ترى ماذا تفعل اذا لم يعد ، وهي امرأة وحيدة شابة ؟ .  
بدا لها الفراش فى خوائه رحبا ممتدا . ولم تربها من حاجة

الى التضييق على نفسها . فقد كان يمكنها ان تبسط ذراعيها وساقها كما شاءت .

وفجأة هبط عليها حنين حار وتلفف شديد الى رجلها . فقد تمددت بجانبه طوال هذه الأعوام الستة الأخيرة . ومهما غضبت منه في النهار فقد كانت تنسى قربيه في الليل عبثه وصبيانياته . وتذكرت في هذه اللحظة جماله ووسامته ، فلم يكن خشن الفم كريبه الأنفاس كأغلب الرجال ، بل كان شابا لطيف الصورة ، ناصع بياض الأسنان .

وهكذا تمددت في مكانها يهفو بها الحنين اليه ، وتلاشى من صدرها كل أثر للفضب .

ولما طلع النهار نهضت متعبة مسهدة ، واستطاعت ان تعود الى الصلابة . ولما زائلت الفراش ولم يأت بعد وأخرجت الدواب وأطعمت الأطفال والعجوز ، تزايدت صلابتها وغمغمت بصوت مسموع :  
— سيعود بعد ان تنفذ منه النقود . عند ذلك فقط سيعود الى البيت .

ولما حلق الولد في الفراش الخاوي قال في دهشة وعجب :  
— أين والدي ؟

فأجابته فجأة في صوت مرتفع :

— قلت انه غائب يوما او اثنين . وان سألك احد في الشارع فقل انه غائب يوما او اثنين .

ثم ذهب الطفلان للعب والعبث هنا وهناك ، لكنها في هذا اليوم لم تذهب الى الحقول . بل جلست فوق مقعدها الصغير مستقبلة شارع القرية الوحيد حتى ترى من يأتي من بعيد . وفيما كانت تجيب على لغو العجوز قالت لنفسها ان الرداء الأزرق ذو لون واضح تسهل رؤيته عن بعد ، وجعلت تغزل الصوف وهي تختلس النظر بين حين وآخر الى الشارع . وراحت تحصى في خيالها النقود التي أخذها وتقدر كم تكفيه من الأيام ، فبدأ لها انها لن تدوم معه سوى ستة أو سبعة أيام ، الا اذا قامر بأصابعه الرشيقة وربح قدرا آخر من النقود ، فيستطيع ان يطيل الغياب . وخيل اليها أحيانا انها لن تصطبر على سماع لغو العجوز وثرثرتها ، بيد انها وطنت نفسها على الاحتمال طمعا في رؤية الرجل عائدا الى البيت .

ولما عاد الطفلان وقت الظهر جائعين ورأى الولد صفحة الكربن المهيأة الأبيه وطلب شطرا منها ، لم تجبه الأم الى ما طلب . ولما

الح في الطلب لطمته بشدة ، وقالت بصوت مرتفع :  
— لا . انها لايبك . فهو حين يرجع في الليل سيكون جائعا  
ولا شك انه سياكلها كلها .

وتعاقبت ساعات بعد الظهر الطويلة ولم يأت بعد . وغربت  
الشمس كدأبها ، متثاقلة تفيض بالأشعة الذهبية ، وتفرر الوادي  
في ضوئها حيناً من الزمن ، ثم جن الليل وانتشر الظلام ، واذا ذلك  
لم تستطع ان ترفض . فقدمت الصحيفة للطفلين قائلة :

— كلوا كفايتكم . لئلا تفسد لو بقيت يوما آخر . ومن يدري .  
وقدمت الى العجوز قلب الكرنبة المفموس في الصلصلة قائلة :  
— كليها . وسأطهو له غيرها اذا عاد غدا .  
فقلت العجوز :

— وهل سيعود غدا اذن ؟

فاجابت الأم في كآبة :

— نعم : ربما عاد غدا .

وفي هذه الليلة تمددت فوق الفراش محزنة النفس شديدة  
الخوف والجزع . وكاشفت نفسها في غير مواربة بارتياحها في  
احتمال عودته حقا .

غير انها مع ذلك جعلت تعمل النفس بنفاد النقود منه بعد انصرام  
الايام السبعة .

\*\*\*

ثم تتابعت هذه الايام يوما بعد يوم . وكان يبدو لها لفرط الانتظار  
كلما اقبل يوم جديد منها انه سيعود حقا .

ولم يكن من دأبها ان تنطلق في القرية تقتل الوقت باللفس مع  
نساءها . لكن نساء القرية جئن اليها واحدة بعد الاخرى ورحن  
يسألنها :

— نحن جميعا بيت واحد في هذه القرية وتجمع بيننا وبينه صلة  
نسب .

وأخيرا دفعتها الكبرياء الى اختلاق قصة ، فقالت لهن بجرأة :  
— ان له صديقا في مدينة بعيدة . وقد أخبره هذا الصديق  
بوجود مكان يعمل فيه ويربح اجرا طيبا فلا نحتاج الى اجهساد  
انفسنا بالعمل في الحقول . واذا لم يناسبه هذا العمل فسيعود  
سريعا . اما اذا طابق هواه فلن يعود حتى يمنحه سيده عطلة .

فاهت الأم بهذه الكلمات في هدوء وكأنها تقرر حقيقة ، حتى لقد



ذهلت العجوز وهتفت :

— ولم لم يخبرنى بهذه القصة الطيبة ، وأنا أمه ؟ .

فانتحلت الأم قصة أخرى واجابت :

— طلب منى يا أمى الا أخبرك بهذا لأنه يعرف لسانك المحلول  
ويخاف أن يعرف أهل القرية أكثر مما يجب ، ولأنه يريد أن يعرفوا  
شيئا اذا لم يستطب هذا العمل .

فقالت العجوز وهى تنحنى فوق عصاها وتحقق فى زوجة ابنها  
وقد آلمها هذا القول :

— هل قال هذا حقا ؟ صحيح يا بنتى اننى كثيرة الكلام ، لكن  
لسانى غير محلول .

وجعلت الأم تكرر هذه القصة لكل من يسألها . وكانت كلما  
أعادتها أضافت إليها ما يكسبها رنة الحقيقة التى لا يداخلها كذب  
ولا زور .

وكان بالقرية أرملة تعيش فى بيت أخيها ، ولم يكن لها عمل  
تؤديه سوى قضاء اليوم فى نقش أزهار فوق حذاء تصنعه  
لنفسها . وكانت تبتدىء وتعيد فى كل خاطر غريب يمر ببالها . وذات  
يوم طاف برأسها خاطر فأسرعت ركضا الى الأم وقالت لها :

— لكن لم يصل الى هذه القرية منذ زمن أية رسالة ، ولم أسمع  
عن رسالة وردت من زوجك ! .

وذهبت الأرملة سرا الى رجل فى القرية يتولى تحرير وقراءة  
الرسائل القليلة المتبادلة فيها ، فسألته :

— جاءت رسالة باسم (لى) الأول بن (لى) الثالث فى الجيل الأخير؟ .  
فلما اجاب الرجل بالنفى هتفت الأرملة الثائرة .

— لكن زوجته قالت ان رسالة وردت منه منذ أيام قليلة ! .  
واذ ذاك ثار الحسد فى نفس الرجل خيفة أن تكون الأم ذهبت  
بالرسالة الى كاتب آخر من أهل القرى المجاورة ، فنفى هذه الحقيقة  
وشدد فى النفى ، وقال لها :

— أعرف تماما أنه لم ترد رسالة ما ، ولم يأت أحد لقراءة أو  
تحرير أية رسالة أو لشراء طابع لوضعه فوق رسالة . وأنا وحدى  
اقتنى مثل هذه الطوابع . ولم يجرى الى هنا رسول منذ عشرين  
يوما أو أكثر .

فلما سمعت الأرملة هذا الكلام توسمت فى الأمر سرا غريبا  
وذهبت تهمس فى كل مكان ان زوجة ( لى ) الأول كذبت وانه لم

تردها رسالة ما . وان زوجها قد هجرها بلا ريب وابتعد عنها . ألم تنشب بين الزوجين معركة حامية بشأن الرداء الجديد وقد سمعهما أهل القرية يتبادلان السباب واللعنات ثم ألم يقل الطفل أنه قد ألقيها على الأرض قبل ضربها ؟ .

على أن هذا الكلام حينما تسرب إلى الأم قررت بلهجة التوكيد أنها قالت الحقيقة وأنها صنعت له الرداء الجديد خصيصا لمناسبة ذهابه إلى المدينة البعيدة وأن ما شجر بينهما من خلاف كان لشأن آخر . أما الرسالة فهي لم ترد وإنما تلقت الأم هذه الأنباء على لسان بائع متنقل جاء من جهة الساحل .

وهكذا جعلت الأم تكذب وتمعن في الكذب والاختلاق وتحبك أطراف كذبها حتى تسبغ عليه طابع الحقيقة . وصدقت العجوز . هذا الكلام وآمنت به وأنشأت تتحدث عما سيصيب ولدها من الفنى واحتفظت الأم بالهدوء والسكينة ولم تبك قط كغيرها من النساء حين يهجرهن أزواجهن ويجلبن عليهن العار والشماتة . وأخيرا بدت القصة صحيحة في أعين الجميع واضطرت الأرملة الثرثرة إلى السكوت ، غير أنها كانت تقول كلما خلت إلى نفسها :

— سنرى على مر الأيام إذا جاءتها رسالة أو نقود ، أو إذا عاد إليها حقا .

وهكذا سكنت القصة وانصرف أهل القرية إلى غيرها من الشئون ونسوا الأم وقصتها .

ثم استقبلت الأم حياتها في ثبات ومثابرة . ومضت مدة طويلة بعد انقضاء الأيام السبعة ولم يأت الرجل بعد . وتفتح الأرض في أبان ذلك وحل موسم الحصاد ولم يأت الرجل أيضا . فأنشأت الأم تحصده وحدها إلا يوما أو يومين حين أقبل العم لمعاونتها بعد أن حصده أرزه وجمعه في حزم كبيرة . وقد سرت الأم بهذه المعاونة وأن توجست من الرجل خيفة كذلك . فقد كان رجلا صادقا قليل الكلام ، وكان يتحرى البساطة في أسئلته ويصعب التمويه عليه . لكنه جعل يعمل صامتا ولم يفتحها في شيء ، ولم يقل إلا ما قضت الضرورة بقوله حتى حل موعد انصرافه ، فقال لها :

— إذا لم يعد وقت اقتسام الحبوب مع المالك فاني سأساعدك . لأن الوكيل الجديد رجل مكر ذكي ومن طراز يصعب على المرأة أن تعامله وحدها .

فشكرته الأم بهدوء وقد سرتها هذه المعاونة ، فانها لم تعرف هذا

الوكيل الا لاما ، اذ كان غريبا عن هذه الجهات فى السنوات الاخيرة  
وكان رجلا مخاتلا من اهل المدن .

وهكذا توالى الايام وكانت الام تنهض كل يوم قبيل الفجر فتترك  
الأطفال والعجوز نياما وتعد لهم طعام الافطار حتى يتناولوه حين  
يستيقظون . ثم تحمل الطفل الرضيع فوق ساعدها وتأخذ المنجل  
القصر المقوس بيدها الثانية لى تستخدمه فى الحصد وتمضى الى  
الحقول .

وقد نما الطفل واصبح يستطيع الجلوس وحده فكانت تقعه فوق  
الأرض وتتركه يلعب ويعبث ما شاء له اللعب والعبث . فيحفن  
التراب بيديه ويضعه فى فمه ويأكل منه ثم يبصقه منكرا مبغضا .  
ولا يلبث أن ينسى ويأكل منه ثانية حتى يتلطح بالوحل والطين . لكن  
الام لم تكن تستطيع ان تفعل نحوه شيئا مهما بدر منه . فقد كان  
يجب أن تؤدي عمل اثنين ، وقد اضطلعت بهذا الواجب ، واذا بكى  
الطفل فليبك ما شاء حتى تكل من فرط الجهد فتجلس للراحة وتقدم  
ثديها لفمه الملتح بالوحل ينهل منه ويرتوى ، وكان يبلغ منها التعب  
والاعياء حدا لا تحفل معه بالبقع التى يتركها فوق ثديها .

وكانت الام تحصد سنابل الارز حقة حقة وهى تنحنى كل مرة ،  
ثم تجمعها فى حزم صغيرة . وكانت اذا حام حولها المتسقطون  
لالتقاط ما يتساقط من الحبوب شأن المتسولين فى موسم الحصاد  
انبرت لهم متجهمة الوجه لفرط ما تعاني من مرارة العمل الشاق  
المضنى وقد ارهقها العرق والغبار . وتروح تستمطر اللعنات عليهم  
وتصيح فيهم قائلة :

— هل تلتقطون الحب من امرأة وحيدة لا معين لها ؟ انا اتعس منكم  
ايها المتسولون ! ايها اللصوص الملعونون ! .

وكانت تستنزل اللعنات بمرارة عليهم وعلى امهاتهم وعلى ابنائهم  
فيخلون لها الحقول اخيرا خوفا من عنف لعناتها .

ثم حملت حزم الارز حزمة حزمة الى الجرن لدرسه . فقيدت  
الجاموسة الى الجرن الحجري وجعلت تسوقها فى ابان ايام الخريف  
الحارة الساكنة وتسوغ نفسها معها ايضا . ولما تم درس الحب  
جمعت القش الفارغ وكومته واخذت تدرى الحب بمساعدة الهواء .  
وقد اضطرت اخيرا الى حمل الغلام على العمل ايضا . فاذا تكاسل  
أو حن الى اللعب كانت تلطمه لفرط ما تعاني من الاعياء والاجهاد  
والياس .



لكنها لم تستطع ان تجمع القش في الحزم الكبيرة المعهودة . فقد كان هذا من عمل الرجل الذى الف ان يتقنه ويبرع فيه اذ كان احب اليه من اعمال اخرى . ولذلك التمس من العم ان يعلمها كيف تقوم بهذا العمل مرة حتى يتسنى لها ان تقوم به مع الغلام فى الاعوام القادمة اذا غاب الرجل اكثر من عام . فجاء العم وعلمها . فنهضت للعمل وجعلت تبسط الحشائش وتناولها له وهو معتل سطح الحزم الكبيرة ، فيكسو هذه الحزم بالحشائش ويسويها بالطين . وهكذا انتهى حصاد الارز .

غير انها هزلت من فرط الجهد وذهب لحمها ، واسمرت بشرتها فيما عدا وجنتيها وشفتيها التى احتفظت بحمرتها . ولم يبق لها سوى اللبن فى ثدييهـــــا غزيرا موفورا . ومن النساء من يستحيل غذاؤها سمنة ولا يبقى منه لغذاء الطفل . لكن هذه المرأة خلقت للأطفال . وكانت امومتها تسلب جسدها بلا رحمة كل غذاء تصيبه اذا كان لها طفل تربيته .

ثم جاء يوم اقتسام الحب واخراج نصيب مالك الارض منه . وكان مالك هذه القرية والحقول المحيطة بها لا يأتى بنفسه لآخذ نصيبه من المحصول . فقد كان يعيش عيشة الدعة والترف فى احدى المدن البعيدة بعد ان ورث هذه الارض عن آبائه . وكان ينب عنه وكيل لآخذ هذا النصيب . وفى هذا العام جاء وكيل جديد اذ تركه وكيله القديم فى العام الماضى بعد ان جمع من المال فى العشرين عاما الماضية ما جعله يعتزل العمل .

فلما جاء هذا الوكيل الجديد جعل يطوف بيوت الفلاحين بيتا بيتا . وانتظرت الام حضوره عند باب بيتها بعد ان كومت الحب فى الجرن .

كان الوكيل من اهل المدن من قمة رأسه الى اخمص قدميه . وكان رجلا طويل القامة ناعم البشرة يرتدى جلبابا حريريا وحذاء من جلد وله يد كبيرة ملساء كان يرفعها الى شفته الحليعة ، واذا تحرك انبعثت منه رائحة عطرية .

وحين جاء الى الام تراجعت قليلا فسألتها :

— اين الفلاح ؟

فلزمت الام الصمت وتركت المعجوز تجيبه قائلة :

— ان ابنى يشتغل الآن فى المدينة . ونحن وحدنا فى الارض .

واوفدت الام غلامها الى العم وانتظرت صامته . ثم تقدمت نحوه

وقدمت له الشاى دون أن تخاطبه بغير عبارات الترحيب المألوفة ،  
غير انها أحست بنظراته الحادة التى جعل يصوبها الى وجهها وإلى  
قدميها العاريتين .

ووقفت الأم جانبا بينما جاء العم يكيل الحب ويخرج منه نصيب  
المالك ، وكانت مطمئنة الى نزاهة العم وأمانته فلم تربها من حاجة  
الى الاقتراب منه والتحقق من الكيل . لكن شق عليها كما كان  
يشق على سائر الفلاحين أن تمنح المالك نصيبا من ثمار كدها .  
لكنهم كانوا ينزلون عنه صاغرين . فحذت حذوهم . فقد كانت  
تعلم أن من لا يفعل يتعرض للأذى والعنت . وكان الوكيل نفسه ينال  
أجرا له دجاجة سمينة أو كيلا من الأرز أو عددا من البيض أو بعض  
النقود الذهبية .

وفوق هذا كله كان على القرية فى مجموعها بعد تمام الكيل أن  
تولم وليمة للوكيل يساهم فيها كل بيت بنصيب .  
ورغم هذا العام الذى بقيت فيه الأم وحدها فقد ذهبت دجاجة  
لكى تساهم بها فى الوليمة وانضجتها طويلا فوق نار رقيقة حتى  
استحال لحمها مريئا طريا . وكانت رائحة الدجاجة بعد انضاجها  
أكثر مما يستطيع الطفلان احتمالها . فجعلا يحومان حول المطبخ ولم  
يتمالك الفلام أن هتف :  
- يا ليتها كانت لنا .

لكن نفس الأم كانت تفيض مرارة لفرط أعيائها ، وقالت :  
- ومن يستطيع أن يحصل على لحم كهذا الا الرجل الفنى ؟ .  
غير أنها ذهبت الى المائدة بعد انتهاء الوليمة التى اختلطت فيها  
الوان الطعام وتناولت عظمة بقيت من دجاجتها تخلقت بها قطعة من  
الجلد ومزقه من اللحم ، فأعطتها لكى يمتصها وقالت له :  
- خذ هذه . وعندما تكبر تستطيع أن تجلس بجانب الرجال  
على المائدة وتنال نصيبك كاملا .

فقال الفلام بسذاجة :

- وهل يرضى أبى بجلوسى الى جوارهم على المائدة ؟ .

فأجابت الأم بمرارة :

- ثق أنه سوف يرضى . وان لم يكن موجودا فستحل محله .

\*\*\*

ثم انصرمت شهور العام وأوشك الخريف على نهايته . ولم يكد  
الطفلان يذكران أنه كان بالفراش غيرهما وغير أمهما . بل ان العجوز

ما كانت تتكلم عن ابنهسا الا لاما . فقد سرت برودة الطقس الى عظامها وأحيت آلامها . وكان لها ما يشغلها في التماسر الأماكن الدافئة البعيدة عن لفح الهواء تحت أشعة الشمس . . وجعلت تشكو وتواصل الشكوى لأن الرياح كانت تتغير ولأن الشمس بدت لها وقد تناقصت حرارتها هذا العام عما كانت في سابقه .

واخذت الغلام يشتغل الآن كل يوم ويؤدي نصيبه من العمل .

واذا لم يكن له ما يعمل قاده الجاموسة الى الروابي وتركها ترعى الكلاً القصير وهو ممتط ظهرها طوال النهار . أو يثبت عندها ليجلس فوق أحد القبور حيث يتصيد الجداجد ويصنع لها اقفاصا صغيرة من سيقان الحشائش . فاذا عاد الى البيت علق على الاقفاص بالباب فتأخذ الجداجد في الصغير ويطرب الطفل والبنت من صغيرها .

ولكن سرعان ما حال لون الحشائش فوق التلال لقدم الشتاء وحين الوقت لقطعها اذ يتخذ منها وقود الشتاء . . فذهب الغلام مع أمه التي كانت تقضي النهار في قطع الحشائش الجافة بمنجلها القصير ، فيضفرها الغلام ويصنع منها حزما صغيرة . وكان الناظر يرى على سفح الجبال أينما ولى بصره بقعا زرقاء اللون هي أناس مثل الأم وابنها راخوا يقطعون الحشائش ويجعلون منها حزما لوقود الشتاء . فاذا قبل المساء وغربت الشمس وهب هواء الليل قارسا من قمم الروابي هبط الناس منحدرين الى الممرات الضيقة يحمل كل منهم حزمتين كبيرتين مدلاتين من قضيب فوق الكتف . وعلى هذا النحو كانت تفعل الأم ، كما كان الغلام يحمل بدوره حزمتين صغيرتين .

واذا عاد الى البيت مضت الأم اول ما تمضي الى الطفل ترضعه ثديها ، فينهل منها ظامئا متلهفا اذ كان يطعم في النهار دقيق الأرز معجونا .

وكانت العجوز في مطلع هذه الأيام الباردة تدلف الى فراشها التماسا للدفء حالما تغرب الشمس . وكانت البنت تسعى الى الباب وهي تتحسس طريقها وتغمض عينيها قليلا حتى في هذا الضوء الشاحب الأقل ، وتجلس في مدخل البيت لكي تستقبل أخاها طروبة اذ كانت تفتقده نهارا وهو يعمل في الحقول .

ولى الخريف اذن . وحين وقت حرث الأرض لبذر القمح . ولقنت الأم غلامها كيف ينثر الحب بمساعدة الريح وكيف يتقن تجميعها



فى بقعة دون اخرى . ثم أقبل الشتاء وقد بسقت سنابل القمح قليلا وتقلصت الحقول وانكمشت التربة يقـدوم الشتاء والبرد . وفى هذا الوقت أخرجت الأم ملابس الشتاء من تحت الفراش حيث كانت تحفظها ، فبسطتها فى الشمس حيناً وأخذت تعدها للبس . لكن عمل الحقول الشاق فى ابان الصيف والخريف قد شقق يديها حتى كان القماش القطنى الخشن يعلق بشقوقهما كما تصلبت أصابعها ويبست .

غير أنها لم تكل عن العمل . بل جلست فى مدخل البيت فى الشمس وجعلت تصلح أولا ثياب المعجوز التى اشتدت عليها وطأة البرد . فأمرت أن تبقى فى الفراش يوما أو يومين وتنزع الكفن الأحمر الذى كانت تلبسه . ودست الحشو القطنى الذى كانت نزعته فى الصيف بين سطح الجلباب والبطانة . بينما جلست المعجوز راضية قريرة العين وجعلت تثرثر مسرورة قائلة :

— هل ترين يا ابنتى أنى سافنى هذا الكفن ؟ انى اعتقد هذا فى الصيف أما فى الشتاء فلا ، لأن طعـامى لا يدفنى كما كان فى الماضى .

فأجابتها الأم وهى غائبة الدهن :  
— ستميشين يا أمى . ولم أر معمرة مثلك تعيش بينما ذهب غيرها .

فطربت المعجوز من هذا الكلام وقالت وهى تضحك وتسعل :  
— نعم . أنا مخلوقة معمرة .

ولزمت مكانها راضية النفس فى انتظار اعداد ردائها . وتأهبت الأم لاصلاح ملابس الأطفال . فأصلحت للطفل الرضيع ملابس البنت ، ولهذه ملابس أخيها ، اذ كانوا لا ينالون فى العام أكثر من ثلاثة أثواب .

وجعلت تتساءل بعد ذلك ماذا تلبس الغلام حتى يتقى شر البرد . فوجدت أمامها سترة الرجل المرقعة والسراويل التى لبسها ثلاثة أعوام كاملة حتى تمزقت وأصلحتها أكثر من مرة . ولكنها لم تقو على أن تجعل منها كسوة للغلام . وأخذت تديزها بين يديها فى ألم ، وغمفت أخيرا :

— وماذا يكون اذا جاء ؟ لن افعل هذا الآن .  
لكن الغلام لم يظفر بكسوة الشتاء وكان يرتعد من البرد فى الصباح وفى المساء . فحزمت أمرها أخيرا وجعلت منها ملابس

للفلام وأخذت تهون على نفسها قائلة :

— اذا عاد يمكننا أن نبيع بعض الأرز ونشتري ملابس جديدة .  
واذا جاء في أول العام الجديد كان من حظه أن يرتدى ملابس جديدة .

وهكذا مضى فصل الشتاء وبدا للام أن الأب راجع حتما في مستهل العام الجديد ، ففي هذه المناسبة يعود كل انسان الى بيته اذا كان على قيد الحياة ولم يكن من الهائمين المتسولين . وكانت اذا سئلت في هذا الشأن تقول لسائلها :

— سيعود لمناسبة وليمة السنة الجديدة .

وجعلت العجوز تردد هذا القول عشرات المرات . وكان الأطفال بدورهم يرتقبون هذا الوعد ويتطلعون .

وكانت الأرملة الثرثرة تبسم ابتسامتها المليئة بالخبث والشماتة وتقول للام :

— عجيب انه لم ترد رسالة من زوجك . وانا أعلم انه لم ترد رسالة .

فكانت الام تجيب في اتم مظاهر الهدوء :

— لكنى عرفت أخباره مرارا على لسان رجل مسافر . ولم تألف عادة التراسل وانفاق المال في هذا السبيل . وان الكتاب ينسون تدوين أمور كثيرة . وان ما يكتبونه ويقرونه يذيع بين الناس وتلوكه كافة الألسن . ولذلك فأنا مسرورة لأنه لا يبعث الى برسائل .

بهذه الكلمات أسكتت الام الأرملة الحاسدة . وبلغ من تكرار توكيدها لعودته في مطلع العام الجديد أن بدا لها أنه لأبد عائد حقا . وحن الوقت وانهمك أهل القرية جميعا في اعداد معدات وليمة انعيد ولم يكن بد من أن تنهمك الأم كذلك في صنع احذية جديدة للأطفال وغسل ملابسهم القديمة وصنع قلنسوة للطفل الرضيع . بل لم يكن بد من أن تنهمك في الاستعداد لاستقبال الرجل أيضا .

فملأت سلتين كبيرتين أرزا كانت أدخرته وحملتتهما الى البلدة وباعتهما بثمان أن كان أقل مما ألف الرجل أن يبيع به ، فقد كان في ذاته طيبا لأنها امرأة تقوم وحدها بمساومة الرجال . وابتاعت بجانب من النقود شمعتين حمراوين وبخسورا لحرقة أمام الإله وكتابات حمراء تجلب الحظ لكي تلصقها فوق المحراث وسائر أدوات الزراعة التي كانت تستخدمها . كما ابتاعت قليلا من الشحم والسكر لصنع فطائر العيد . وقصدت الى أحد الحوانيت

فابتاعت بما تبقى معها عشرين قدما من قماش قطنى أزرق ، والى حانوت ثان واشترت خمسة أرطال من حشو مقوى مصنوع من الفطن المخلوط بالصوف .

أجل . . كانت موقنة تمام اليقين من عودته حتى لقد أعملت المقص فى القماش وأخذت تفصله بعناية وصبر وصنعت له أزرارا من فضلات القماش ضمتها بعضها الى بعض وخاطتها كثيرا . ولما تم لها ذلك تركت الملابس فى انتظار مجيء الرجل . وخيل للجميع ان هذه الملابس جعلت قدومه أمرا محققا .

لكن بزغ فجر العيد ولم يأت الرجل بعد . وجلس الجميع طوال النهار فى ملابسهم الجديدة . فأما الطفلان فلهما مظهر نظيف وقد أشفقا أن تتلوث ثيابهما . وأما العجوز فكانت حذرة يقظة حتى لا تريق الطعام فى حجرها . واعتصمت الأم بالجلد والثبات وجعلت تبسم طوال النهار وتقول لهم :

— لم يزل الوقت نهارا بعد ، وقد يأتى فى أى وقت .

وجاء الى الدار خلان زوجها لكى يحيوه تحية العيد اذا كان قد عاد الى بيته . فقدمت لهم الشاى وبعض الفطائر الصغيرة ، وقالت لهم حينما استفسروها عن الرجل :

— قد يأتى اليوم حقا . لكن يحتمل الا يأذن له سيده بالعودة هذه المسافة الطويلة ، وقد سمعت ان سيده يحبه كثيرا ويعتمد عليه .

ولما زارتها النساء فى اليوم التالى كررت لهن هذا الكلام وكانت تبسم وتبدو مطمئنة النفس مستريحة خاطر ، وقالت لهن :

— ما دام لم يأت ، فلا بد ان يرد منه نأ قريبا .

وحولت دفة الحديث الى نواح أخرى .

وهكذا كانت الأيام تمضى والأم تتكلم فى سر وفى غير تكلف فتصدقها العجوز ويصدقها الطفلان ويؤمنون بما تقول . لكنها كانت اذا أدلهم الليل تبكى فى سكون ومرارة .

كانت تبكى لأنه ذهب وهجرها لأنها أصبحت تستهدف للعار والفضيحة . ولأنها امرأة وحيدة فقد بدت لها الحياة شديدة القسوة وهى تعول أربع أنفس يعتمدون عليها .

وذات يوم وهى تفكر فى بكائها خطر لها انها تستطيع أن توفر على نفسها كل هذا العار . أجل . . فحين فكرت فى النقود التى أنفقتها لشراء ملابس جديدة دون أن يعود ، وفى الفطائر التى صنعتها وفى



البخور الذى أحرقته فى صلاتها وابتهاها لأجل عودته ، وحين فكرت فى نظرات الأرملة الخبيثة وفى الهمسات الخفية والنظرات المستريبة التى كانت تبدو لها من الجميع حتى من العم الطيب - حين فكرت فى هذا كله ورات أن الأيام تمر دون أن يعود هذا الرجل ، بدا لها إذ ذاك أن توفر على نفسها هذا العار وأن تضع حدا لهذه الفضيحة .

فكفكت الأم دموعها وأسرت فى نفسها أمرا .. فجمعت كل ما أدخرته من الأرز وما كان يجب أن تدخره من قش الأرز وذهبت الى البلدة حيث باعت هذا وذاك . ولما جمعت النقود القضية فى يدها طلبت من البائع إبدالها بورق نقدي . ثم قصدت الى كاتب الرسائل وهو رجل غريب لا تعرفه فى هذه البلدة . وكان يجلس فى كشك صغير قرب معبد ( كونفوشيوس ) . فقدمت فوق المقعد الصغير المجاور له وقالت :

- أريد أن أكتب رسالة بلسان أخ لى يشتغل ولا يمكنه أن يعود الى بيته ، فكتب ما أقول لك . وهو مريض طريح الفراش ، ولذلك فانى أكتب بلسانه .

فأخرج الرجل عويناته وكف عن التطلع الى جمهور المارة وتناول رقعة من ورق جديد وغمس فرشاته فى المداد ونظر اليها قائلا :  
- تكلمى اذن . لكن أخبرينى أولا عن اسم زوجة أخيك وعن بيتها وعن اسمك أيضا . فقالت له الأم :

- أن أخى سألنى أن أكتب بلسانه رسالة لزوجته . وهو يقيم فى مدينة جئت الآن منها ، وليس لاسمى أهمية . وذكرت الأم اسم زوجها باعتبارها اسم الأخ ، وذكرت اسم مدينة بعيدة كانت تعرف قريبا لمسقط رأسها . ثم ذكرت اسمها هى باعتبارها اسم زوجة الأخ التى ستوجه الرسالة اليها ، كما ذكرت اسم قرينتها لكى يبعث بالرسالة اليها ، وقالت له :

- اسمع ما يريد أخى أن يقول لزوجته : « انى اشتغل شسغلا متواصلا ولى مركز طيب والأكل متوفر لى وسيدى رجل كريم ، وكل ما أؤديه من العمل هو اعداد الشاى لسيدى وتقديم قصبة التدخين له وحمل رسائله الى أصحابه . وانى أتناول طعامى عنده واناى ثلاث قطع من النقود القضية فى الشهر ، وقد اقتصدت من أجرتى عشر قطع قضية حولتها ورقا ماليا له قيمة الفضة فى هذه الأيام ، فأنفقها على أمى وعلى نفسك وعلى الأولاد » .

وبعد ان املت الام هذا الكلام . جلست وانتظرت ، فأخذ الكاتب الكهل يحرق الرسالة ببطء واستغرق فيها وقتا طويلا ، ثم قال أخيرا : أهذا كل شيء ؟ .

فأجابت الام :

- لا . قل هذا أيضا : « ولم اتمكن من الحضور في عيد السنة الجديدة لأن سيدى يحبني كثيرا ولم يتيسر له أن يستغنى عنى . لكننى سأحضر في السنة القادمة اذا تمكنت ، واذا لم اتمكن فسأرسل اليك كل ما أدخره من أجرتى مرة في السنة » .  
وأخذ الكاتب الكهل يدون مرة أخرى . ثم قالت له بعد أن فكرت قليلا :

- قل هذا أيضا . . « أخبرى أُمى العجوز انى سأحضر لها عند رجوعى قماشا أحمر لصنع كنفها الثالث ، وسيكون من أجود الأصناف » .

وهكذا تمت الرسالة وذيلها الكاتب الكهل بالتوقيع وختمها بالشمع وجعل العنوان فوقها وبلل بريقه طابعا الصقه عليها ، وقرر لها أنه سيصدرها في مكان يعرفه . فنقدته الام أجره وعادت الى بيتها . وكانت هذه الفسكرة هى ما أسرته الام فى نفسها حينما كفكت دموعها .

## الفصل السادس

بعد مضي سبعة أيام أو نحوها جاء الى القرية رجل يحمل رسائل فى حقيبة فوق كتفه . وكانت هذه ظاهرة جيدة فى العصر الحديث لم يكن مثلها فى سالف الأيام ، وبدا لأهل القرية ان مجيء الرسائل على هذا النحو هو لون من السحر .

ثم تناول الرجل رسالة من حبيبته وامسكها فى يده ونظر الى الام طويلا وسألها :

- هل انت زوجة الملقب باسم ( لى ) ؟ .

فأدركت الام أن رسالتها جاءت واجابته قائلة :

- أنا هى .

فقال لها الرجل :

- اذن فهذه الرسالة لك وهى من زوجك . لأن اسمه مكتوب

فوقها .

وأعطاهما الرسالة .  
عند ذلك تكلفت الأم الهمتاف والفرح وصرخت تقول للعجوز :  
- جاءت رسالة من ابنك .  
والتفتت الى ولديها قائلة :  
- هو ذا خطاب من أبيكما .  
ولم يكدهما جميع يصبرون حتى تريهم لهم الرسالة . وذهبت الأم  
تفتسل وارتدت ثوبا نظيفا ومشطت شعرها بعناية . وفيما كانت  
تفعل سمعت العجوز تخاطب زوجة العم بأعلا صوتها قائلة :  
- جاءت رسالة من ولدي !  
وما كادت تقول هذا الكلام حتى جعلت تسعل وتضحك حتى  
انزعجت زوجة العم واسرعت اليها وأخذت تدلك ظهرها وتقول  
بصوتها الرقيق :  
- رفقا يا أمي والا قتلت نفسك .  
- ان هذه العجوز الفانية تكاد تختنق لأن رسالة جاءت !  
فابتسمت الأم وقالت :  
- هذا صحيح . وهذه هي الرسالة .  
وأبرزت الرسالة لكي تراها زوجة العم .  
ولما خرجت الى الشارع تقاطر الجميع في أثرها . فان الغلام تبعها  
وجعل يقول لكل من يسأله أن رسالة وردت من أبيه ، وسارت البنت  
خلفه متعلقة بجلبابه . واذ كان الوقت شتاء والعمل قليلا فقد تبعها  
جمع من الرجال والنساء المتبطلين وزحفوا جميعا الى بيت الكاتب  
الذي دهش من حضور هذا العدد العديد على هذا النحو الفجائي .  
على أنه حينما فهم ما يراد منه تناول الرسالة وتأملها قليلا وأدارها  
على وجهيها وجعل يتمعن فيها ، ثم قال أخيرا برزانة :  
- هذه الرسالة من زوجك .  
فقالت الأم :  
- أنا خمنت هذا .  
وصاحت الأرملة التي كانت بين الجميع قائلة :  
- وممن تكون غير زوجها يا رجل يا طيب ؟  
فضج الجميع بالضحك من هذه الكلمات .  
ثم أخذ الكاتب يتلو الرسالة في ثورة ، فخيم السكون على  
الجميع وأنصت الولدان وأنصت الجمهور . وكان الكاتب يتوقف  
بعد كل كلمة يتلوها لكي يفسر معناها لأن الكلام المكتوب غير الكلام

المنطوق من ناحية ، ولأن الكاتب أراد من ناحية أخرى أن يبين مبلغ علمه ومدى اطلاعه .

وكانت الأم تنصت وكأنها لم تسمع كلمة من هذه الرسالة من قبل ، وجعلت تومئ براسها بعد كل كلمة . ولما وصل الرجل الى الكلام المنبئ عن ارسال النقود رفع صوته عاليا واضح النبرات تنويعا بهذا الحادث الخطير . ومن الناس من ففر فاه وهتف :  
- لكن هل كان فى الرسالة نقود ؟ .

فأومات الأم براسها ايجابا وبسطت كفها وكشفت عن الورقة المالية التى استبدلت بها نقودها الفضية ، وقدمتها للكاتب لى يفحصها ، فقال فى لهجة خاشعة رزينة :

- أرى حقارقم ( عشرة ) . . ولا بد أنها تساوى عشر قطع فضية . عند ذلك طلب الجميع أن ينظروا الى الورقة المالية وأصروا على الطلب . فراوا صورة قائد بدين ذى شاربين مرسومة على الورق . ولم تتمالك الأرملة الثرثارة أن هتفت متزعجة حينما رأتها !  
- كم تغير زوجك يا أختى .

فقد حسبت أنها صورة الرجل نفسه ، وشاركها الجميع هذا الاعتقاد الا فيما عدا الزوجة نفسها ، وقد قالت لهم :  
- ليست هذه صورة زوجى . فأنا أعرف هذا .  
ولاذ الكاتب بخياله وقال :

- هى من غير شك صورة سيده .  
وجعل الجميع يتفرسون فيها ويعجبون من مظاهر الفنى والامتلاء البادية على صاحبها .

ثم لزموا الصمت وقد ساءورهم العجب والحسد ، وأخذوا يراقبون الأم وهى تطوى الورقة المالية الثمينة وتطبق عليها يدها فى حرص وحذر .

ولما اتم الكاتب تلاوة الرسالة طواها ووضعها فى غلافها وقال برزانة :

- انت زوجة موفقة كل التوفيق . فليس كل النساء يوفق أزواجهن فى الذهاب الى المدن الكبيرة واجساد مثل هذا العمل الطيب ، وليس كل من يوفى الى هذا منهم يرسل الى زوجته أجره على هذا النحو . فان فى المدن أماكن كثيرة لانفاق المال كما سمعت .

فما كاد الناس يسمعون هذا الكلام حتى تراجعوا امامها فى تجلة



واخترام . فسارت الى بيتها فخورة مزهوة ، وتبعها الطفلان يشاظرانها هذا المجد . ولما بلغت الدار قصت على العجوز كل شيء . فضحكت العجوز سرورا وطربت على الأخص مما قاله ولدها عن الكفن الثالث وهتفت في صوتها الراعش المتهدج وهى تضرب على ركبتيها سرورا :

— أما ولدى هذا ! احلف انه لا يوجد ولد مثله ! ولا شك أن قماش المدن من أجود أنواع الأقمشة .

ثم بدت عليها دلائل الرزانة وقالت مشفقة :

— نعم يا ابنتى . اذا كان هذا القماش من النوع الطيب الذى اشار اليه . فانى أشك فى أنى سأبليه قبل موتى . ويحتمل أن هذا الثوب سيكون كفى الأخير .

وبدت على وجه الغلام دلائل الرزانة حين رأى جدته كذلك ، وهتف مخلصا :

— لا يا جدتى . لن يكون كفنك الأخير . لأنك أبليت ثوبين ومحال أن يكون هذا الثوب أمتن من الاثنين معا .

فلما سمعت العجوز هذا الكلام عاد لها انتعاشها وضحكت مسرورة من ذكاء الغلام وقالت للام :

— جميل منك يا ابنتى انك تذكرت كل ما قاله . وكأنك كنت نفسك تقرئين كلامه .

فقالت الأم بهدوء :

— نعم . انى تذكرت كل كلامه .

ودخلت وحدها الى الدار ووقفت خلف الباب وجعلت تبكى فى صمت وسكون ، ولم تكن الرسالة ولا الورقة المالية التى لها قيمة الفضة سوى هباء أو كالهباء بالقياس الى كرامتها المجروحة . كانت الرسالة والورقة المالية شيئا تافها زهيدا فى نظرها . ولم يكن لهما أدنى قيمة ولا أقل مغزى .

غير ان هذا التدبير كان له قيمته ولم يعد احد من اهل القرية يتهم منها أو يعيرها بأنها امرأة هجرها زوجها . بل لقد كان من شأن هذه المناسبة أن تشعرها بالصلافة ازاء اهل القرية . فما كادوا يعرفون انها تملك ورقة مالية وانها ستتلقى مثلها فى العام القادم حتى سعى بعضهم سرا للاقتراض منها ، وكان فى طبيعتهم كاتب القرية وبعض الرجال المتبطلين الذين ارسلوا زوجاتهم للحصول على هذا القرض . فشق على المرأة أن ترفض لأن اهل القرية جميعا كانوا

من ذوى القربى وكانوا جميعا يلقبون باسم ( لى ) . لكنها جعلت  
تنتحل الأعداء وقررت أنها أنفقت الورقة المالية فى وفاء دين عليها .  
وكانت الأرملة كلما رأتها سائرة فى الطريق تقول ب لهجة ذات مقزى  
ان القماش أصبح غالى الثمن فى هذه الأيام وحتى الابن عز ثمنها  
وان ثمن الخيوط الملونة التى تصنع منها الأزهار ، فوق الاحذية قد  
تضاعف .

وكانت اذا وقفت ببابها هتف الجميع قائلين لها :  
- من حسن حظك انك لا تفكرين مرات فى كل درهم تنفقينه ،  
فان زوجك يربح الفضة ويرسلها اليك .  
وكان بعض الرجال يقول لبعض :

- انى أشك فيما اذا كان من الخير وجود مثل هذه المرأة الفنية  
فى قريتنا فتجذب اللصوص اليها . نعم . ان اللصوص يحومون  
حيث يكون الغنى ، كما يحوم الذباب حول العسل .

وبدا للام اخيرا ان هذه الورقة المالية ستكون مصدر قلقها الدائم  
ونفصها المستمر ، لا بسبب ما كان الناس يلوكونه بشأنه فحسب ،  
ومنهم من كان يجيء اليها لى ينظر الورقة عن كثب ، بل لان الام  
فوق هذا لم تألف حيازة نقود من الورق . وقد بدأت تمقتها اذ  
خافت ان يطيح الهواء بها او تعمل الفيران اسنانها فيها او يمسكها  
الأولاد وهم يلعبون ويمزقونها ظنا بانها لا شىء . وقد اضطرت كل  
ليلة ان تتحقق من وجودها فى سلة الارز حيث أخفتها ، اذ خافت  
ان هى وضعتها فى الجدار الطينى ان تلتصق به وتفسد .

ولما ثقلت على نفسها وطأة هذه الافكار أسرع الى العم يوما  
حينما رآته يهزم بالذهاب الى البلدة وهمست فى أذنه :

- اعمل معروفا وابدل هذه الورقة بفضة صلبة لى أشعر بها  
فى يدي . فان هذه الورقة لا تبدو شيئا كلما أمسكت بها .

وهكذا أخذ العم اثورة المالية . واذا كان بطبعه رجلا عفا امينا  
فقد أبدلها بفضة طيبة صحيحة ، ولما عاد الى الأم جعل يرن القطع  
بعضها ببعض لى يبين لها جودتها وسلامتها . فأعربت له الأم عن  
امتنانها وقالت له - ولو انها فى الحق قالت مكرهة الى حد ما -  
لولا أنها لم ترد ان تبدو فى مظهر الشح والجمود :

- خذ قطعة منها يا عمى جزاء تعبك وجزاء مساعدتك لى فى  
حصاد الارز ، فانى أعلم انك محتاج اليها . وان زوجتك حبلى .  
ورغم ان الرجل حذق فى قطعة النقود واستنشق بلهفة دون ان

يفطن لنفسه وجعل يغمض ويفتح عينيه متلهفاً ، رغم هذا كله فإنه  
ثم يأخذ القطعة ، وقال بسرعة قبل أن يغالبه تلهفه ، فقد كان حقا  
رجلا طيبا عفا :

— لا يا زوجة العم . انت امرأة وحيدة وأنا رجل قادر على  
العمل .

ف قالت الأم :

— لا بأس . لك أن تقترض اذا احتجبت .

وسارعت باخفاء قطعة النقود . فقد كانت تعلم ان الانسان مهما  
كان موفور الطيبة لا يقوى على اغواء المال وانما يضعفه دونه .  
وفى تلك الليلة نهضت الأم بعد ان نام الأولاد والعجوز فأضأت  
شمعة وحفرت حفرة بفأسها في تربة الأرض الصلبة ثم أخفت فيها  
قطع النقود العشر بعد ان لفتها بخرقه صونا لها من رطوبة الأرض .  
وقد أدارت الجاموسة رأسها وحدقت فيها بعينيها الواسعتين  
المتبلدتين . واستيقظ الدجاج المحبوس تحت الفراش وجعل ينظر  
اليها بهذه العين ثم بتلك وهو ينق نقيقا خافتا وقد أدهشه هذا  
الحادث الغريب فى الليل . لكن الأم ردمت الحفرة وداست فوقها  
مرات حتى تسويها بسطح الأرض ثم عادت الى الفراش وانطرحت  
فوقه فى الظلام .

ومن عجب أنها وقد تمددت فى مكانها بين اليقظة والحلم نسيت  
أو كادت تنسى ان هذا الذى دسسته تحت الأرض هو فضتها ، الفضة  
التي جنتها من بيع المحصول الذى حصده بيديها وكانت تنحنى  
وقد بلغ الاعياء منها مبلغه كلما جمعت حبوبه حفنة حفنة . أجل .  
نسيت الأم هذا كله . وخيل أو كاد يخيل اليها ان الرجل قد أرسله  
اليها حقا وأنه شيء أوفر واقوم مما كانت تملك ، وغمضت من  
قلبها : « هذه الفضة هى مكان الفضة التي أخذها وانفقها فى شراء  
الرداء الأزرق . بل هى أفضل . فهى أكثر » . وصفحت عنه  
واغتفرت له ما صنع . ثم استغرقت فى النوم .

وكانت اذا سألها سائل ان تريه الورقة المالية تجيبه بهدوء :

— انى أبدلتها بفضة عادية وانفقتها .

ولما سمعت الأرملة الثرثارة هذا الكلام هتفت وقد تدلى فكها :

— لكن هل أنفقتها كلها ؟

فأجابت الأم فى يسر وسهولة وهى تبتسم :

— نعم أنفقتها فى شراء ما كنت احتاج اليه من الأواني والأقمشة .

ونم لا انفقها وسأناك اكثر منها ؟ .  
ودخلت الدار وجاءت بالملابس الجديدة التي كانت صنعتها للرجل  
وقالت : هذا مثال من الأقمشة التي اشتريتها .  
فجعلت النساء الواقفات يحدقن في القماش ويجسسنه بأصابعهن  
ويبدن إعجابهن بجودته ومئاته . وقالت الأرملة برغمها :  
- احلف أنك امرأة طيبة لأنك تنفقين بعض المال في شراء ملابس  
له ولا تنفقينه كله على نفسك وعلى أولادك .  
فقالت الأم على الفور :

- لكنى وزوجى على تمام الوفاق . وقد أنفقت بعض النقود على  
نفسى . فانى أعطيت جانباً لصائغ وطلبت منه أن يصنع لى قرطاً  
واساور لأن زوجى كثيراً ما كان يقول أنه يجب أن تكون لى مثل  
هذه الحللى اذا توفر لنا بعض المال الزائد .

وقد انصتت العجوز الى هذا الكلام كله ، ثم هتفت أخيراً :  
- احلف أن أبنى هو كما وصفته زوجته . وهو سيشتري لى  
كفنى الثالث وسيكون من أجود الأقمشة التى تباع فى المدن . وهو  
ابن طيب يا جيرانى . وأنا أتمنى لكل منكم ولداً مثله ، ولا سيما  
لك يا زوجة العم ، فانى أرى بطنك منتفخة كالبطيخة الناضجة .  
فلما سمعت النساء هذا الكلام ضحكن وتفرقن واحدة بعد  
الأخرى اذا أقبل المساء . لكن الأم أخذت تتوجع فى نفسها بعد  
انصرافهن من جسامه هذه القصة التى قالتها . وأخذت تؤنب  
نفسها وتقول فى ضميرها : « ما الذى جعلنى أقول هذا الكلام  
الجسيم . ولا أقنع بما قلته حتى الآن ؟ أين أجد النقود لشراء هذه  
الحللى ؟ . ولكن يجب أن أفعل هذا على أى وجه حتى لا أفزع  
نفسى » .

ولم تتمالك أن تنهدت حينما فكرت فى ضخامة العبء الذى حملته  
نفسها .

## الفصل السابع

كانت هذه المرأة منذ بدء شبابها مخلوقة ذات مشاعر متأصلة  
واحساسات عميقة ولكنها ساكنة صامتة . ولم تكن مثل بعض بنات  
جنسها ، تسارع بتوزيع نظراتها على هذا الرجل أو ذاك وتطنب فى  
امتداح أى رجل تراه وتعجب به . كلا . بل كانت امرأة عميقة



العزاد ، موفورة الحياء . ولم يحدث قبل زواجها وحين كانت فتاة عذراء ان اتجهت بخواطرها الى الرجال من حيث هم رجال . وكانت اذا هزتها المشاعر العنيفة والأشواق الغريبة عن نفسها لا تتطلع قط الى الرجال لترى كنههم بل كانت تطسوي الضلوع على حنينها وأشواقها وتحتملها في صبر وسكون وانتظار . فلما تزوجت وأدركت كنه الرجل سطع امام عينيها قدر يسير من ذلك الحنين الصامت الذي كان يجيش في نفسها ، وعرفت حتى حين كانت تؤنب هذا الرجل أحيانا وتفضب منه انها لا تستطيع الحياة بدون وجوده معها .

على ان الرجل وحده لم يكن يكفي . بل كان ينبغي ان تحمل منه وأن تستشعر الطفل يتكون في أحشائها وتدب فيه الحياة . وبهذا تتم الزوجية . وفي الوقت الذي يتحرك فيه الطفل وينمو كانت تغمرها موجة من السعادة بتحقيق مطمحها ومشتهاها . أجل . وحتى حين كانت تسخط على أطفالها اذ يكون ويشتكون ويتشبثون بعناد الطفولة الفريزي - حتى حين يحدث هذا كانت اذا طالعنها علائم حمل جديد ساورها احساس رضاء جسدي مستعذب وكأنها شبعت وارتوت ونامت ولم يعد ينقصها شيء من مطالب الجسد المادية .

وكذلك كان حبها للطفل أمرا مقorra لا ريب فيه . بل كذلك كان شأنها في الأيام الخالية حين كانت فتاة عذراء في دار أبيها في قرية بين الروابي لا تزيد عن هذه القرية الا قليلا . فقد كانت هذه الدار حاشدة بالأطفال وكانت كبراهم وكانت بمثابة الأم لهم . لكنها ما كانت قط تستشعر لهم غير المحبة حتى وهي منهوكة الجسم تعباً من تأثير العمل المتصل المضني وهم يتراكمون حولها ويضايقونها بلهوهم وعيبتهم ولعبهم . فقد كانت ترى في طفولتهم وضآلتهم ما يرقق قلبها ، ويلين نفسها . وطالما كانت تحمل صفارهم سواء من بيت ابنها أو من بيوت جيرانها فتضمهم الى صدرها وتدلهم ما شاء لها احساسها ، اذا كان قرب الطفل الى نفسها يثير في صدرها سرورا حارا ولذة عنيفة ، وإن لم تكن تدري مصدر هذا السرور ومبعث هذه اللذة .

وكذلك كان كل ما هو صغير غض محببا الى نفسها قريبا الى وجدانها .

كانت في الربيع تحب الأفراخ وصفار البط وهي تنحدر من أغشيتها . وكانت اذا هجرت دجاجة عشها لسبب ما وتركت صفارها

فى إبان التفريخ عمدت هى الى البيض فجعلته فى كيس وضمته  
الى جسدها الدافئ ، وتظل تروح وتغدو به فى رفق ولين حتى يتم  
التفريخ ويخرج الصغار الى نور الحياة .

ولما خرج اطفال بيتها الصغار عن دور الطفولة واشرفت هى على  
سن الزواج وقع لها حادث نبهها واثار كامن عاطفتها . فقد كان بين  
اطفال جيرانها طفل صغير لا يكاد يقوى على السير ، وكان بضاً  
مستدير الوجه تحمله اخته فى ذلك الصيف عارى الجسد مشدوداً  
فوق ظهرها بقطعة من القماش . فكانت تعمد الى هذا القماش فتفكه  
وتحمل الطفل عن ظهر اخته التى تتخلى عنه مسرورة بخلاصها منه  
وتذهب للعب والمرح مع اترابها .

وتكرر هذا الحادث كل يوم . وجعلت الأم ، وهى فتاة فى ذلك  
العهد ، تترقب رؤية هذا الطفل البض المستدير الوجه كالبدن حتى  
أصبح مصدر سرورها وصار اثراً لديها ومحبباً عندها ، وكانت  
تمسكه وتشمم راحتي يديه البضتين وتستطيب وجنتيه المستديرتين  
وشفتيه الصغيرتين الورديتين . وكانت تحمله معها فى غدوها ورواحها  
واذا أنكرت أمها ذلك منها وعجبت من تشبثها بهذا الطفل ولديها  
العديد من اخوتها الاطفال كانت تجيبها ضاحكة : « انا لا امل الاطفال  
ولا أشبع منهم ! » .

وسرعان ما اثار هذا الطفل فى نفسها حنيناً لم تكن تشعر به من  
قبل دون أن تفطن الى ذلك . فقد كانت تريد أن يكون لها أبناء شأن  
النساء جميعاً ، وكانت ترى من حقها أن تظفر بهؤلاء الأبناء يوماً بعد  
زواجها . لكن هذا الطفل الهادئ الموفور الصحة اثار فى نفسها  
أكثر من مجرد الشوق الى الأبناء . وقد تطور ما كان أول الأمر عبثاً  
بالطفل تطوراً أعمق واستحال الى عاطفة عميقة غامضة وحنيناً لشيء  
لا تدرك كنهه أو تحديده .

وجعلت كلما أصبح الطفل بين يديها والكل منشغلون عنها بالعمل  
فى الحقول أو فى المطبخ واخته منصرفة عنه الى لعبها ، جعلت  
تنتحل الأعذار للانفراد بهذا الطفل وتضمه الى صدرها . وكانت  
تناجيه بالالفاظ الرقيقة وتدله بين ساعديها وتستشعر جسده  
الصغير البض الى جسدها . وكانت تمضغ له بعض الأرز وتدسه  
فى فمه والطفل دهش من أمرها ، فتضحك وان لم تكن تدرى سبب  
هذا الضحك ، فهى لم تكن تحس مرحاً ولا جدلاً ، وإنما كان ينتابها  
حنين جائش لا تدرى كيف تسكنه .

و ذات يوم قبيل زواجها كانت وحدها مع هذا الطفل وا قبل الظهر دون ان تأتى اخته لحمله الى امه كى تطعمه ، واخذ الطفل يتقلب متبرما متضجرا ولم يشأ ان يلزم السكون . فلما رأت جوعه على هذا النحو ذهبت به الى غرفتها يحفزها احساس غامض عنيف لم تفهمه ولكنها شعرت به يغلى فى دمها ، فأغلقت الباب وكشفت عن صدرها بيدين مرتعشتين وأسلمت للطفل ثديها فجعل يرضع ويمصه بشدة . وفى ذلك الحين أحست وهى تحقق فى وجه الطفل بتفاعل شديد فى دمها لم تكن تعده من قبل وانحدرت الدموع فى عينيها وجرت على شفثيها غممة متقطعة غامضة ليست كالكلمات وامسكت بالطفل تضمه الى صدرها دون ان تهتدى الى تفسير لهذا الاحساس الذى ألم بها . هذا الاحساس الذى كان لونا من الحنين الحاد واللهفة البالغة ، والذى كان اسمى وأعظم من الطفل نفسه ، بل كان اسمى وأعظم من شخصها .

ثم انتهت هذه اللحظة . فقد كان ثديها جافا وبكى الطفل مخيبا ، فضمت رداءها ثانية وساورها حياء من مسلكها وخرجت من غرفتها فجاءت اخت الطفل مسرعة وحملته وذهبت به الى امها . لكن هذه اللحظة كانت بادرة اليقظة وكانت أكثر من الزوج . فقد كان الزوج رغم تعلقها به وكونه كل شىء فى نظرها . يمثل جزءا من الامومة ، ولم تكن تحبه لذاته فقط ومن حيث هو زوج ورجل .

\*\*\*

ذلك كان شأنها فى عذريتها وشبابها . والآن وقد نضج جسدها والمث بكل شىء اذا هى تصبح وحيدة فى ابان نضوجها وعنفوان حياتها . وكان الاطفال يترمرعون كل يوم ويشبون وكلما ترمرعوا وشبوا بعد العهد بينهم بين الطفولة وبدوا اغرابا . كالأغراب عنها . فقد فرع الغلام واستطال عوده وبدا نحىلا . وكان يلوذ بالصمت ويستنفذ جهده فى أداء اعماله الشاقة وواجباته الثقيلة . وكانت الأم اذا أرادت حمل المحراث الخشبى الجافى الصنع آخر اليوم لكى تعود به الى الدار أمسك الفتى به وحمله فوق كتفيه الضئيلتين وسار يترنح ويتمايل به فوق التربة المتشققة ، ولما كان التعب يبلغ منها غايته أحيانا كانت تتركه يفعل ولا تعترض رغبته . وقد أخذ الفتى على عاتقه الآن رفع الماء من البئر واطعام الجاموسة ، وجعل يكافح للقيام بنصيبه وبأكثر من نصيبه فى عمل الحقل وكأنه هو رب البيت وعميد الأسرة .

غير انه برغم هذا كله كان هناك شيء غامض يبعده عن هذه المرأة ويقصيه عنها وهي أمه . وكانت تراه رغم اضطلاعه بهذا العمل عن طيبة خاطر وإقبال أيضا ، كانت تراه ينأى عنها على وجه لم تستطع له تفسيراً ولا فهماً ، ولم يكن يميل إلى القرب منها وإنما كان يقف بعيداً عنها ، وكأنما تنبث منها رائحة لا يطيق احتمالها . وكانا أحياناً يختلفان ويتشاحنان على شأن من شئون هذا العمل المشترك كأن تطلب منه أن يمسك القأس على نحو معين فيرقض الأذعان وأن كان في طريقته عنت وإرهاق له . غير أن كليهما كان يعلم أن العمل ليس هو مصدر هذا الخلاف أيضاً ، وإنما الباعث عليه سبب أكثر عمقا لا يدري أحدهما تحديده وتفسيره .

ولم تكن البنت بدورها مصدر فرح لها وهي كليلة البصر نصف عمياء . غير أن هذه البنت كانت تقوم بعملها صابرة باذلة فيه أقصى الجهد ، ولم تعد تشكو أو تتذمر كما كان شأنها من قبل . ولما ترعرع الطفل الأصغر واستطاع أن يسير وأن يجري واستطاب الركض في الشارع واللعب والصياح مع أترابه ، كانت البنت تتركه وتنضم إلى أمها وأخيها حيث يكدان في الحقول . لكنها حتى في هذا الشأن كانت مثار تعب لا مصدر عون لهما ، لا سيما في الحقول ذوات النباتات الغضة والمزروعات الصغيرة . فقد كانت من كفاف البصر بحيث إذا عالجت نزع الطفيليات لم تنظر مواءعها جيدا وتنتزع النبت الغض مكانها ، فكان الفتى يصرخ فيها غاضبا :

- خير لك أن تذهبي إلى البيت . فلا فائدة منك . روحي اقعدى عند جدتك العجوز .

فإذا نهضت البنت من مكانها وهي تبتسم ابتسامة يسيرة ازاء هذه الكلمات التي كانت تحز في نفسها حزاً أليماً راح الفتى يصرخ فيها ثانية قائلاً بخشونة :

- افتحي عينيك جيدا وانظري أي طريق تسلكين . انك تسيرين فوق المزروعات .

وهكذا كانت البنت تسرع في الابتعاد عن الحقل تدفعها كرامتها المجروحة إلى مفارقة هذا المكان . وكان قلب الأم نهبا مقسما بين هذين الاثنين . بين ابنها وبين ابنتها الكفيفة . وكانت تستشعر ما يساور قلبيهما . فقلب الفتى يفيض مرارة وأعياء من هذا العمل انشاق الذي يجاوز سنه . وألم البنت يغلب صبرها . وتروح تقول لها متنهدة وهي تقفل راجعة إلى البيت :



— صحيح يا ابنتي ان الفائدة منك قليلة وانك لا تقدرين حتى على الخياطة وعينك بهذه الحالة السيئة . لكن اذهبي الى البيت واكتسي الأرض وجهزى الأكل واوقدى النار . لان كل أولئك هو انسب الأعمال التى تستطيعين القيام بها على وجه مرض . وهناك تستطيعين ايضا الاشراف على أخيك الصغير والسهر عليه لئلا يقع فى التربة . وتصنعين لجدتك قدحا من الشاي . هذه كلها هى واجباتك ولما افرغ من عملى اذهب خصيصا لأحضر لعينيك مرهما .

بمثل هذا الكلام كانت الأم تهون على ابنتها ما تلقى وهى نفسها فى حاجة الى ما يهون عليها ما ترى من هذه البنت التى تجلس الساعات الطوال ساكنة صامتة تكفكف ماء عينيها المنحدر واجفانها الملتهبة وتبتسم ابتسامتها المنبئة عن الصبر والتسليم .

وكانت الأم اذا نظرت اليها احيانا وسمعت انحاء أخيها وتحامله عليها ورات تعلق الطفل الأصغر باللعب وغرامه بالابتعاد عنها ، لا تتمالك ان تسأل نفسها فى مرارة كيف كانوا وهم صغار يفيضون جمالا وبهجة فى عينيها وهم الآن أبعد ما يكونون عن تسكين خاطرها وتطيب نفسها .

أجل . . كانت هذه الأم احيانا تتطلع فى المساء شطر بيت العم وهى تفيض الما وحسدا . فقد كانت ترى فيه الزوج الطيب الأمين وذلك الفلاح الساذج . وهو وان لم يكن فى نظافة زوجها هى ووسامته فقد كان برغم هذا لا بأس به . وكان يثابر على أداء واجبه اليومى ويعود الى البيت لكى يأكل وينام كما ينبغى ان يأكل الرجال ويناموا . وكانت ترى الى جانبه أطفاله الذين ينجبهم بانتظام وزوجته التى تجلس طروبة مريحة راضية قريرة العين بطفلها الأخير الذى تحمله فوق ركبتيها ، واذا كان لسانها لا يكاد يستقر فى حلقها وكانت مخلوقة سطحية فهى رغم هذا طيبة القلب وجارة كريمة . وكانت احيانا تجيء اليها وتقاسمها نصيبا من اللحم تصيبه او تهدى أطفال الأم بعض الفاكهة او تدفع الى البنت الكفيفة بوردة صناعية لكى تضمها فى شعرها .

فقد كانت تخيم على هذا البيت اذن علائم الرضا والقناعة وكانت الأم تحسد أصحابه . وكان حنينها يزيد فى نفسها عمقا ويكتسب طابع الضيق والتبرم وعدم الرضا .

## الفصل الثامن

لو كان بوسع الأم أن تنسى الرجل وتقضى على ذكره في نفسها ، ولو كان في عداد الموتى وراته بعينها موسدا في التراب جثة هامدة فارقتها الحياة الى الأبد ، ولو صارت أرملة وايقنت من انتهاء عهد الزوجية - اذن لها ان على نفسها ما تلقى .

ولو عرفت القرية أرملة وتسنى لها ان تحتفظ بهذا الترمل نقياً لا تشوبه أدنى شائبة ، ولو أتيح لها أن تسير في الطريق فتسمع الناس يقولون عنها : « هذه زوجة ( لى ) الذى مات وقد بقيت من بعده أرملة وفيه طيبة وهو الآن راقد في التراب وهي تحيا من بعده عفيفة وفيه لذكره » - لو أتيح لها أن تسمع مثل هذا الكلام لكان مشدداً لنفسها ومسكناً لخاطرها ، ولعاشت كما ينبغي أن تعيش مثلها .

لكنها لم تكن أرملة . وينبى لها ان تجيب سائلها عن حال زوجها وأن تكذب وتمعن في الكذب والاختلاق وأن تذكره ابداً كلما عمدت الى هذا الكذب وهذا الاختلاق .

وكانوا يسألونها كلما سارت في الطريق حاملة فوق كتفها شيئاً تبيعه في السوق او عائدة الى البيت بالسلال الفسارفة : « هل تلقيت اخيراً رسالة من زوجك او نبأ شفوياً يخبرك عن أحواله وشئونه ؟ » - فتجيب وقد نال منها الجهد المميت والأعياء القاتل : « نعم . سمعت على لسان الرسل انه على خير ما يرام ، لكنه لا يكتب الا مرة واحدة في السنة » .

لكنها كانت اذا استقرت في البيت تتمزق قلباً بهذا الكذب المتصل وكانت أحياناً تفمرها الوحدة ويطفئ عليها الحزن فتتهافت من أعماق قلبها : « ما أتعسنى وأشد وحشتى . أنا التى اخلق لنفسى رجلاً من عالم الكذب والأوهام ! » .

وكانت تجلس أحياناً أخرى وتحقق في الطريق وتناجى نفسها بهذه الكلمات .

- اذا خطر له ان يجيء فان ردائه الأزرق يبدو من مسافة بعيدة فهو صاف شديد الزرقة .

وكانت حقاً اذا رأت جلباباً أزرق عن بعد يشب قلبها فرحاً . وكانت اذا مر أمامها عن بعد رجل لابسا جلباباً أزرق أمسكت عما هي آخذة فيه وكنمت أنفاسها حتى ترى أى طريق يسلك واى

وجهة يتجه . فاذا كانت في الحقول ألقت الفأس وظللت عينيها  
بيديها وجعلت ترقب صاحب الجلباب الأزرق لترى اذا جاء الى  
ناحيتها أو واصل سيره بعيدا عنها . وكان صاحب الجلباب  
يتجاوزها أبدا . فان الجلباب الأزرق لباس شائع يرتديه كل الناس  
إذا كانوا من العامة والفقراء .

لكنها كانت أحيانا أخرى تفضب من هذا الرجل لفرط  
ما يحملها عليه من الكذب وتقرر لنفسها أنه لا يستحق هذا  
كله ، وأنه إذا جاء حقا فلنستصب عليه جام غضبها وتستمطر على رأسه  
اللعنات . وكان هذا الغضب يدوم أياما فينتابها التبرم والضيق  
وتتنكر للأطفال والعجوز وتدفع عنها الكلب بالفأس في خشونة ،  
وان كانت اذا فعلت هذا تزيد من حزنها وتضعف من شجنتها  
وكرهها .

وجاء أوان قسمة محصول الأرض وهي فريسة هذا التاجر . فقد  
أخذت تكد وتكافح مرة ثانية وحدها الا ما كان الفتى يقدمه من  
من المساعدة والا يوما أو يومين اسدى فيهما العم الطيب اليها  
معونته ، حتى تم الحصاد أخيرا وحان وقت اقتسام المحصول .  
وقد خيل للأم في هذا اليوم أن الحنين والغضب قد جعلها من قلبها  
كتلة جريئة . فكان كل ما تراه يقع من قلبها موقعا اليها . ورات  
في هذا العام ما لم تكن ترى في الأيام السالفة .

وفيما هي تحت سلطان هذا الحنين وقد وقفت في الجرن قرب  
المحصول المكوم ، وجاء وكيل المالك وكان طويل القامة يرتدى ثوبا  
من حرير رمادي ويبدو وجهه مستديرا ممثلا وسيما . وقد رأت  
فيه هيئته الأنفة التي عرفتھا ، هيئة الأدب المتكلف . لكن عينيها  
كانتا ممثلتين ثقيلة الأجفان نصف مطبقة فوقهما . وفهمت المرأة  
من كيفية نظره اليها بهاتين العينين السالف وصفهما أنه سمع  
قصتها وعلم أن زوجها قد ذهب الى جهة أخرى ولم يعد أبدا .  
أجل . لقد كان قلبها اليوم طافحا بما جعلها تفهم من مظهره  
معرفته لأمرها . والحق يقال أنه كان رجلا من طراز هؤلاء الرجال  
الذين اذا رأوا امرأة مهجورة فطنوا في أعماق نفوسهم الى حالها  
وعرفوا تكوين قلبها وتحديد جسدها .

وكان هذا الرجل يتكلف في كلامه الاخلاص والصراحة ، لكنه كان  
رغم هذا الأدب المتكلف ورغم كلامه المعسول مكروها من أهل  
القرية الذين يخافون بأسه بسبب طبعه الحاد وتهديده من يختلف

معه يديه اللتين كان يضمهما ويركزهما في خاصرتيه . وفي هذه المناسبات يرفع جفنيه فتبدو عيناه مخيفتين لامعتين سوداوين تطل منهما القسوة . غير انهم كانوا مع ذلك يضحكون من كلامه ايضا . فقد كان اذا اعطوه ما يريد بغير مخاصمة القى عليهم بعض النكات التي تضحكهم ، وان كان ضحكهم لا يخلو من تحفظ وحذر .

وهكذا جعل الرجل حينما جاء الى بيت الام يتكلف المرح وخفة الروح . وكان يعلم انها تعيش وحدها بغير رجل . فقال للفتى الذى كان واقفا :

— ارى ان امك فى غير حاجة الى ابيك وانت موجود هنا للاشراف على الحقول .

فبدت على هيئة الفتى علائم الزهو والحياء معا اذ ارضاه هذا الثناء وقال :

— صحيح انا اقوم بنصيبى .

وبصق الفتى كما رآى الرجال يفعلون . ووضع ذراعيه خلف ظهره واحس بأنه قد شب وصار رجلا .

فضحك الوكيل ونظر الى الام كأنه يريد ان تشاركه هذا الضحك الرقيق بشأن فتاها ، ولم تتمالك الام من الابتسام ، وقدمت له قدحا من الشاي فى ادب ومجاملة كما تفعل لكل ضيف عابر ، ولم تتمالك وهى قريبة من عينيه الضاحكتين الا ان تنظر فيهما . واذا ذاك انعكس فى عينيها قلبها الظامىء الجائع المنهوم دون ان تفتن لذلك . وحدث الرجل فيها واحس عاطفتها الحارة القوية ، فجرى دمه حارا وبدت عليه دلائل الرزانة . ولما تناول منها قدح الشاي لمس يدها وكأنه لا يعلم موقعها لكن المرأة شعرت بلمسه وفطنت الى مغزاه وكان له وقع النار فى دماغها .

ثم تحولت عنه فى خجل ولم تستمع لصوت قلبها . بل تشاغلت بالحصول وتسلط عليها الخوف من نفسها فجأة وقالت للفتى فى صوت خافت :

— اسرع الى عمك وقل له ان يحضر لمساعدتى .

ثم ناجت نفسها محاولة تسكين ثوران قلبها :

— اذا جاء هنا . اذا جاء العم الطيب هنا .

لكن الفتى كان مزهوا بنفسه وقد لزم العناد وقال يجادل امه :



— « أنا هنا يا أمي . وسأساعدك . من غيري تريدن ؟ انظري .  
أنا هنا » .

فضحك الوكيل عاليا وضرب على عجزه وانتهر فرصة سداجة  
الفتى وهتف :

— صحيح أنت موجود يا ابني . وصحيح أن أمك لا تحتاج الى  
رجل آخر .

فتشجع الفتى بهذا الكلام وتحمس ، وقالت له الأم بلهجة  
ضعيفة :

— يكون أفضل إذا جاء عليك الى هنا .

فانتهر الفتى هذا الضعف وهتف :

— لا . لن أناديه يا أمي . أنا رجل فيه الكفاية .

ثم تقدم في زهوه الى الحب لكي يكيل المحصول ، فضحكت الأم  
في قلق وتركته يفعل . والحق أنها كانت تحس في نفسها شيئا  
دفعها الى تركه يتولى هذا العمل .

ولما تم السكيل وكالت الأم نصيبا آخر لكي تقدمه للوكيل  
خاصة رده هذا عنه في إباء وترفع ومطط شفته العليا الملساء وصوب  
الى المرأة نظرة ملتبهة ، فلم يكن أمامه سوى هؤلاء الأحداث وهذه  
العجوز التي كانت تميل برأسها كلما غالبها النوم . وقال للأم :

— لا ، لن أقبل هذا ، أنت الآن امرأة وحيدة وقد ذهب زوجك  
عن البيت وكل هذا المحصول من عملك الخاص . ولن آخذ من المحصول  
سوى نصيب المالك . ولن آخذ أى أجر منك أيتها الزوجة  
الطيبة .

وفي إبان هذه الفورة العاطفية العذبة المقرونة بالاشمزاز التي  
استولت عليها ، انتابها خوف فجائي واضطربت والحت على الوكيل  
في قبول أجره ، لكنه لم يقبل . بل دفع السكيل عنه وهو يلمس  
بدها بيده . ولما زادت الحاحا تناول السكيل وأفرغ ما فيه في  
السلة التي كانت تدخر فيها الحب . ولم يرض أن يأخذ منها  
شيئا .

ولم تأنس الأم من نفسها قسرة على الإلحاح عليه بعد . فقد  
أحست خلف هذا الوجه الأملس وهذه النعومة المتكلفة قوة غامضة  
غريبة خفية تنصب منه وتستحوذ عليها وتلدعها لدع النار الأكلة .  
ولم تتمالك أن لزمت الصمت وأطرقت برأسها كما تفعل فتاة  
عذراء ، ولما أفرغ الرجل الحب مكانه في السلة وانحنى أمامها

وذهب ضاحكا لم تستطع ان تنبس بكلمة . بل وقفت مكانها صامتة . واخذت يدها تعبت بطرف ردائها القطنى .

ولما ذهب الرجل رفعت رأسها وألقت نظرة خلفه . وفى نفس هذه اللحظة أدار الرجل رأسه وقابل نظرتها وانحنى وضحك مرة أخرى ثم واصل طريقه .

وكم ودت المرأة لو انها لم تنظر خلفه على نحو ما فعلت ، لكن لم يكن حيلة فى ذلك . ثم هتف الغلام مغتبطا :

— ما أطيب هذا الرجل الذى لم يقبل أن يأخذ أجرته يا أمى . انا لم اسمع فى حياتى أن وكيلا لم يقبل أن يأخذ أجرته .

فلما ذهبت الى المطبخ دون أن تجيب بكلمة وهى فى شبه حلم بعد الذى حدث ، تبعها الغلام هاتفا :

— اليس هو رجلا طيبا يا أمى بعد أن لم يقبل شيئا لنفسه ؟ .

فلما لزمتم الأم صمتها صاح الفتى مستاء متبرما :

— أمى . أمى .

هنالك انتفضت الأم فجأة واجابت بسرعة غير معهودة :

— آه . نعم يا ابنى .

واستمر الغلام فى لغوه قائلا :

— هو طيب جدا يا أمى . فهو لم يقبل أن يأخذ منك شيئا بعد أن عرف مقدار فقرك بسبب غياب أبى .

لكن المرأة وقفت جامدة فجأة وقد رفعت غطاء القدر فى يدها ، وتفرست فى الغلام وألقت على نفسها هذا السؤال وهى تشعر شعورا هو مزيج من الخجل والانفعال العذب المقرون بالاشمئزاز : « هل لم يكن يريد شيئا منى ؟ » وان كانت مع ذلك لم تقل شيئا للغلام .

وأما وكيل المالك فلم يستطع ان ينسى عاطفة المرأة القوية المحتدمة وجعل يتردد على القرية منتحلا مختلف المعاذير ، فتارة لمراجعة حساب بدا له انه اخطأ فى تقديره ، وطورا للشكوى من نقص الكيل الذى كاله أحد الفلاحين وتعرضه لمؤاخذه المالك وغضبه . وكان أكثر ما يتردد على دار العم القريبة من دار الأم يتحدث فى هذا الشأن وذاك ، وجاء مرة بنوع جديد من بذور القطن ينتج تيلة دقيقة ، وأخرى برفقة عامل يحمل قبدرا من السماد لاختصاب التربة واكسابها القوة . والعم فى كل هذا ذاهل مشدوه

لكثرة تروده واختلافه الى داره وقد توجس العم اول الامر وخاف ان يكون فى الامر شىء وان الوكيل يبيت له شرا . ولما لم يسفر هذا الامر عن شىء زاد قلق العم وقال مرة لزوجته :

— لا بد ان هذا الرجل يدبر شرا عظيما .

وجعل يراقبه فى نفس الوقت دون ان يقصر فى اداء واجب المجاملة والترحيب به فيتعرض لشره واذاه .

لكن لا العم ولا زوجته فطنا الى نظرات الوكيل شطر بيت الام ، ولا كيف كان يقصر امد الزيارة اذا لم يجد الام عند باب بيتها . اما اذا رآها فكان يجلس ويطيل الجلوس مقبلا عليها بوجهه . وكان يهتف فى صوت مرتفع وطيبة متكلفة :

— لا يا صاحبى الطيب . لا غرض لى سوى هذا وانا رجل عادى احب الجلوس فى حوش رجل امين واتلقى حرارة شمس الخريف . لكنه كان يقضى وقته فى التطلع الى الام وهى جالسة تفزل او تخطىط ملابس أهلها .

وفى هذا الحين كانت التربة الزراعية تستقبل فصل الراحة الذى يسبق الشتاء . وقد وضعت بذور القمح فى التربة الجافة انتظارا لنزول المطر الذى يرويه ويعجل بنمائه . وجعلت الام تستريح حيناً وكانت تجلس فى مدخل الدار تصلح ملابس الشتاء وتصنع احذية جديدة . فان كفاف نظر البنت لا ييسر لها اداء هذا العمل ولن ييسره لها .

كانت الام تجلس اذن فى الشمس التماسا للدفء والحرارة فتنصت لكلام العجسوز وكلام ابنائها . وكانت تبدو حالة او كالحالة ، تلوح عليها علائم الهدوء وتعلو بشرتها سمرة ذهبية من لفع الشمس ويبدو شعرها اسود لامعا ممشطا بعد ان توفر لها الآن من الفراغ ما يمكنها من تمشيطة يوميا . ومع انها لم تتجاوز الخامسة والثلاثين من عمرها فقد كانت تبدو اقل من هذه السن كثيرا .

وكانت تعلم حق العلم ان الوكيل يجلس على قيد خطوات منها فى الجانب الآخر من الطريق ، لكنها لم تكن ترفع راسها وتتطلع اليه . فاذا احسست بنظراته تلح عليها وتكاد تلتهمها نهضت ودخلت الدار وبقيت فيها فلا تخرج حتى ينصرف ويذهب لسانه . لكنها فهمت الفرض من قدومه وادركت انه ينظر اليها لفرض خاص ولم تستطع ان تنساه او تشتزع صورته من ذهنها .

والواقع انها لم تستطع الى نسيانه سبيلا طوال فصل الشتاء .  
ثم اشتد البرد اخيرا وحال دون قدومه حتى في سبيل الغرض  
الذى يضمه في نفسه . ولما تساقط الثلج وهبت رياح الشمال  
الغربي قارسة لاذعة كان يمكن ان تنساه ولكنها لم توفق الى هذا  
النسيان .

ثم اقبل العام الجديد وذهبت الى البلدة كما كانت تفعل في  
الأعوام السابقة ، فباعت قدرا من الحب وأبدلت العملة الفضية  
بورقة مالية والتهمت كاتبا آخر استكتبته رسالة جديدة تبدو  
للناس صادرة من زوجها . وعلم أهل القرية مرة أخرى بنبا  
الرسالة التي تلقتها والنقود التي بعث الرجل بها اليها .

لكن حسدهم لها هذه المرة وحديثهم عنها ورفعهم من شأنها  
لم يغمر قلبها الخاوي . بل ان الكبرياء لم تهون عليهما ولم ترفه  
عن نفسها . فقد انصتت الى تلاوة الرسالة في هدوء وبرود ، ولما  
اقبل الليل دفعتها في الفرن بين الحشائش الموقدة . ثم ذهبت الى  
خوان فيه درج ففتحته وبعد تردد تناولت منه الرسائل الثلاث  
التي كانت به بعد ان طال الأمد على غياب الرجل وحملتها الى النار  
والقمتها طعاما لها . وقد رآها الفتى وهي تفعل هذا فهتف مشدوها :  
— هل تحرقين رسائل أبي اذن ؟

فأجابت الأم في برود تام وهي تدمن النظر في السنة الذهب :  
— نعم .

فقال الفتى وهو يكاد يصرخ :  
— ولكن كيف نعرف اذن مكانه ؟  
فأجابت الأم :

— أنا أعرف . هل تظن انى انسى هذا .  
وهكذا أصبح قلبها خاويا .

ولكن كيف يبقى القلب خاويا ؟ .

فبعد أيام قليلة ذهبت الى البلدة وحدها لأبدال الورقة المالية  
بنقود فضية ، اذ أفت أن تكون وحدها ولم تشأ أن تثقل على  
العم في انجاز شئونها . ولما استقرت القطع الفضية في يدها  
وانشنت لكي تعود أدراجها اذا هي ترى رجلا بالباب وقف باسمها  
يمشط شفته اللساء . وعرفت فيه وكيل المالك .

ولم يكن هذا الرجل قد رآها منذ الخريف عن كثب . ولم يكن  
بقربتهما أحد يعرفهما .



وهكذا تفرس فيها الآن مجترنا باسمها وقال لها :

— ماذا تفعلين هنا أيتها الزوجة الطيبة ؟ .

— كنت أبذل بعض النقود .

وكفت عن اتمام جملتها إذ همت أن تقول أن هذه النقود وردتها من زوجها . لكن الكلمات وقفت في حلقها ولم تنبس بها .

فقال الرجل وقد رفع جفنيه وهو يكاد يلتمها بنظره :

— وماذا تفعلين بعد هذا ؟ .

فنكست المرأة رأسها وحاولت أن تتكلم بلهجة عادية واجابت :

— كنت أنوي أن أذهب لشراء مشبك فضي أو مطلي بالفضة

أشعري فان المشبك الذي كان عندي بلى وانكسر أمس .

والحق أن هذا المشبك قد انكسر على النحو الذي بينته وقد

قررت الحقيقة قبل أن تفكر فيها . ثم تحولت لاستئناف سيرها

وقد استحييت أن يراها الناس الذين لا يعرفونها تتحدث إلى رجل

في أحد شوارع البلدة . وكان رجلا تبدو عليه علائم الوجاهة إلى

حد ما وهو أطول من غيره من الرجال وقد ظهرت على وجهه المستدير

أمارات الشحوب حتى جعل الناس يتظلمون اليهمسا بفضول وهم

يسرون في طريقهم .

لكن الرجل سار خلفها . وقد عرف وهي تسير في رزاة وتواضع

انه يتبعها . وأشفقت ألا تفعل ما قرره أمامه ، وهكذا قصدت إلى

حانوت صائغ كانت تعسرفه ووقفت أمام خوانه وطلبت أن ترى

مشابك الشعر النحاسية المطلية بالفضة . وفيما كانت تنتظر جعلت

تعبت باقراط من الفضة كانت في متناول يدها . وقجاة وصل

الوكيل إلى الحانوت وتظاهر بأنه لا يعرفها وقال للصائغ :

— كم ثمن هذا القرط ؟ .

فأجاب الصائغ :

— سأزنه لتقدير ما فيه من الفضة ثم أبيعك إياه بالأمانة وبقدر

وزنه .

وأعرض الصائغ عن بيع المشبك بعد أن رأى أمامه رجلا مكسوا

بالحرير وتوسم فيه شاربيا أفضل من هذه الريفية ذات الرداء

القطنى الأزرق . ولم يسع المرأة إلا أن تنتظر واشاحت برأسها عن

العينين اللتين تختلسان النظر اليهسا في جراحة . ووقف الرجل

متكاسلا بينما وضع الصائغ القرط في كفتى الميزان الدقيق . ثم

قال في صوت مرتفع :

- أوقيتان ونصف .  
 ثم استطرد يستحث الرجل في صوت خافت :  
 - لكن اذا كنت تشتري هذا القرط لزوجتك الفساضلة فلم  
 لا تضيف اليه زوجا من الأساور ؟ . هذا زوج يلائم القرط وسيكون  
 هدية جميلة تحبها اى امرأة .  
 فابتسم الرجل حين سمع هذا الكلام وقال بغير مبالاة :  
 - ضمه اذن .  
 ثم استطرد ضاحكا :  
 - لكن ليست هذه الهدية لزوجتى . فانها ماتت منذ ستة  
 اشهر .  
 وسارع الصائغ بوضع الاسورتين على القرط راضيا بهذه  
 الصفقة ، وقال للرجل :  
 - اذن فلتكن هذه الهدية للزوجة الجديدة .  
 لكن الرجل لم يقل شيئا بل وقف مكانه وجعل ينظر امامه  
 ويمشط شفته . ولم يتظاهر مرة بأنه يعرف هذه الفلاحة أو يشعر  
 بوجودها . ثم حمل ما اشتراه وخرج من الحانوت . وما كاد يدير  
 ظهره حتى تنهدت الأم وتبعته بنظرات تشف عن حسدها  
 لتلك التى ابتاع الحلوى لها ، وكانت من لون محبب الى نفسها وطالما  
 تافت في صباها الى نيل مثلها . والواقع ان هذه الحلوى كانت عين  
 ما زعمت ان زوجها اوصاها بشرائه . وكثيرا ما جعلت الارملة  
 الثرثارة تسألها عنها وتطلب ان تراها ، فكانت الأم تشعر بالخرج  
 وتقول لها الارملة فى خبث وشماتة عظيمتين :  
 - هل لن تلبسى أبدا تلك الحلوى ؟ .  
 فأجابتها الأم قائلة :  
 - لست أجد ميلا لهذا . وسألبسها يوم يعود زوجى .  
 فلما ابتاعت الآن المشبك ودسته فى شسعرها قفلت راجعة الى  
 البيت . وهى تفكر فى هذه الحلوى الجميلة التى راتها . وتنهدت ولم  
 تأنس من نفسها قدرة على انفساق النقود التى تكسبها بعرق  
 الجبين فى شراء ما تتحلى به بعد ان بات مظهرها لا يعنى الآن أحدا  
 وليس امامها الا أن تسير على هذه الوتيرة الحالية .  
 وخرجت المرأة من باب المدينة وهى تدير فى رأسها هذه الخواطر  
 الموحشة وسارت فى الطريق القروى المؤدى الى قريتها وذهب بها  
 الفكر الى بيتها وإلى طعامها وهو الغزاء الوحيد الذى بقى بها .

وفجأة رأت الرجل يقف أمامها فى ظلال الشفق . رآته يقف فجأة كالنسيم وأمسك بمعصمها فى يده الكبيرة اللينة ولم يكن أحد قريبا منهما فى هذه اللحظة . فقد كان الهواء باردا مشبعاً بوحشة الليل وقد آوى القسريون الى بيوتهم ولم يتخلف الا من قضت الظروف ببقائه فى الخارج .

أمسك الرجل اذن بمعصمها وأحسست بيده ووقفت جامدة مأخوذة بهذه المفاجأة .

ثم تناول الرجل لفافة الحلوى الفضية التى كانت فى يده الثانية ودسها يدها التى أمسك بها وأطبق أصابعها فوقها قائلاً :  
- اننى اشتريت هذه لك وحدك . اشتريتها لك وحدك . وهى ملكك .

ثم ذهب وابتعد عنها وذاب فى ظل سور المدينة وبقيت وحدها تحمل الحلوى فى يدها .

وفجأة ثابت إليها نفسها وأسرعت خلفه راكضة هاتفة :  
- لا يمكننى . لا يمكننى .

لكنه ذهب .

ومع أنها أندفعت الى باب المدينة وجعلت تحقق بنظرها من خلال الأنوار المتراقصة المنبعثة من الحوانيت المفتوحة فانها لم تر له أثراً . واستحييت أن تدخل البلدة وأن تنظر فى وجه هذا الرجل وذلك فى الضوء اليسير . وهكذا وقفت مكانها مترددة خجلى حتى ضاق بها الجنود المنوطون بالباب وقالوا لها :

- اذا كنت تنوين الخروج من الباب هذه الليلة فاخرجى لأن الوقت حان لاغلاقه حذراً من الشيوعيين . هؤلاء اللصوص الجدد الذين نكبتا بهم فى هذه الأيام .

فلم تملك الا أن تعود أدراجها وأن تواصل سيرها واجتازت المرتفع الصغير وانحدرت منه الى الوادى . وبعد قليل دفعت الحلوى فى صدرها .

وبزغ القمر منبسطة فاترا بارقا ولما وصلت الى الدار الفت الأطفال والعجوز نياما الا الفتى الذىبقى يقظان وما كاد يراها حتى هتف : انى خفت عليك يا أمى . وكنت أريد أن أخرج للبحث عنك لولا خوفى من ترك الأولاد وجدتى .

لكنها لم تستطع أن تبسم حينما رآته ينعت أخويه بالأولاد كأنما هو رجل حقا ، وقالت له :

- نعم . أنا رجعت أخيرا وأشعر بتعب شديد .  
ثم ذهبت والتصت بعض الطعام فتناولته ولم تزل الحلى فى  
صدرها .

ولما فرغت من الأكل تطلعت الى الفراش فى ضوء الشمعة فرأت  
الفتى قد نام أيضا . فمدت الستار وجلست الى الخوان وأخرجت  
لفافة الحلى من صدرها وبسطت الورق الناعم الذى لفت به .  
رأت زوج الأساور لامعا ناصعا . وبدا القرط جميلا فى عينيها .  
ورأت فى كل قرط ثلاث سلاسل دقيقة تتدلى منها صور متنوعة .  
فتناولته بأصابعها وجعلت تنظر اليه عن كثب . فرأت سمكة ضئيلة  
مدلاة من إحدى السلاسل ، ومن الثانية جرسا صغيرا ومن الثالثة  
نجمة دقيقة . وكانت جميعا جميلة الصنع دقيقة الشكل تستهوى  
قلب المرأة . ولم يتح لها من قبل أن تحمل فى يدها الخشنة  
السمراء مثل هذه الحلى . وجلست مكانها تدمن النظر إليها ثم  
تنهدت ولفتها ثانية فى الورقة الرقيقة وهى لا تدري ماذا تصنع بها  
ولا كيف ترددها الى ذلك الرجل . على أنها حينما تسالت تحت  
الغطاء بجانب الأولاد لم تستطع الى النوم سبيلا . وبقيت وقتا  
طويلا ساهرة مسهدة ، ولما دب النوم الى عينيها ألم بها يسيرا  
متقطعا . وكانت ترى فى نومها حينما أشياء غريبة بارقة وتشعر حينما  
آخر بيد الرجل الحارة فوق يدها .

### الفصل التاسع

لم تر الرجل بعد طوال فصل الربيع ، وان بقيت ذكراه فى نفسها  
.. ثم رآته بعد ذلك ذات يوم فى أوائل الصيف حين بدأ القمح يتلون  
بلون ذهبى يسير وبسقت سنابل الأرض خضراء يانعة . وكان قلب  
المرأة فى هذه الأثناء يتدفق حرارة ويفيض عاطفة .  
وجاء يوم فى مطلع هذا الصيف سكن هواؤه وسادت حرارته .  
وأخذت الشمس تسكب حرارتها فى بطن الوادى كالخمر الصافية  
الحارة . وفى أمواج الحرارة المنبسطة فى أرجاء شارع القرية  
الوحيد أخذ الأطفال يتراکضون ويلعبون عراة تلمع أجسادهم  
الملساء عرقا .

وقفت الأم فى مدخل الدار فى هذا الهواء الساكن وخيل إليها  
أنها لم تر من قبل مثل هذه الحرارة الفجائية فى فصل الصيف .



وركض طفلها الاصفر الى حافة التربة . ومضى الفتى الى حقل  
القمح الفض وقد خلع سترته وشمر سرواله ووضع على راسه  
قبعة زخية عتيقة من الخيزران كانت لابييه من قبل . وجلست البنت  
في ظلام البيت تنهدت ووصلت زفرتها الى سمع الام . وبقيت  
المعجوز وحدها متعلقة بهذه الحرارة فقد جلست في أشعة الشمس  
ونزعت رداءها عن هيكلها المهدم الفاني التماسا لحرارة الشمس  
التي نفذت الى عظامها العتيقة وتديها الضئيلين البارزين من  
صدرها كأنهما قطعتان من جلد جاف مفضن . ولما رأت زوجة ابنها  
قالت لها :

— انا لا أخاف الموت في الصيف يا ابنتي . ان الشمس لمن كانت  
عجوزا جافة مثلي كالدم الجديد .

لكن الأم لم تحتل هذه الحرارة الخارجية . فقد كانت تحس في  
نفسها حرارة تماثلها . . وخيل اليها أن الدم يتدفق اليوم في  
عروقها حارا . فتركت الدار وقالت للمعجوز :

— لا بد أن اذهب لرى الارز بعض الوقت . فان الشمس اليوم  
تجفف كل شيء يا أمي .

وحملت فأسها ودلوها وسارت في الطريق الضيق الى قناة أخرى  
صغيرة تمتد عالية عن مستوى حقول الارز . وسرى عنها حين  
آنت الهواء في الطريق اخف حدة وحرارة من هواء الشارع  
المحبوس .

وتابعت سيرها دون أن تصادف أحدا في الطريق . فقد كانت  
ساعة القيلولة حين يأوى الرجال الى بيوتهم التماسا للراحة .  
وكان اذا خرج رجل الى حقله عمد الى الظل اتقاء الحرارة الشديدة  
التي يتعذر فيها العمل فيتمدد نائما تحت شجرة ويفطى وجهه  
بقبعته دفعا للذباب . بينما تقف دابة قربه وقد تدلى رأسها وتخدر  
جسدها بتأثير الفتور والحرارة . لكن الأم استطاعت احتمال هذه  
الحرارة لأنها آتية من السماء وليست محبوسة بين جدران أو  
ليست منبعثة من شرايينها .

وأخذت تعمل بعض الوقت في حقول الارز . فصنعت ثفرة في  
أحد الحقول واحتفرت مجرى صغيرا مؤديا الى القناة . ثم حملت  
دلوها المثبتين الى المحور الخشبي ودستهما في ماء القناة واحدا  
بعد آخر وسارت بهما الى المجرى الذي احتفرت فيه فصبت فيه  
ماءهما وكررت هذه العملية مرات وجعلت تراقب التربة وهي تتشبع

بالماء وخيل اليها انها تغذى كائنا حيا وتمده بالحياة .  
وفيما كانت تقوم بهذه المهمة بسطت قامتها مرة وتركت الدلوين  
وذهبت الى حافة القناة المخضرة وجست قليلا التماسا للراحة .  
وبينما هي جالسة صوبت نظرها الى ناحية القرية فرأت رجلا يقف  
ويسأل العجوز ثم شاهده يتحول ويقصد الى حيث كانت جالسة  
عند حافة القناة .

تفرست المرأة في الرجل وهو آت الى ناحيتها وما لبثت ان  
عرفته .

كان وكيل المالك . وفيما كان يدنو منها تذكرت ان حطيه ما زالت  
في حوزتها واطرقت براسها ولم تدرك كيف تحدثه عنها دون ان  
تردها اليه . ولم تجرؤ على المسودة الى الدار والتماس الحلى  
لردها الى الرجل في ريعان النهار وهي معرضة لكل انسان يراها  
وللعجوز المستيقظة التي لن يفوتها ذلك .

ثم وصل الرجل اليها . فنهضت الام متباطئة لانها ادنى منه  
مستوى ولانها امرأة امام رجل . لكنه قال لها في سر وفي غير  
كلفة :

— انى ما جئت ايتها الزوجة الطيبة الا لالقاء نظرة على زراعة  
القمح . هذه السنة وتقدير كمية المحصول فى الحقول . .

على انه فيما كان يخاطبها راحت عينه تتمشى في جسدها وهي  
لا ترتدى بسبب الحر سوى سترة واحدة وسروال من قماش أزرق  
أنحله طول الارتداء والتصق بجسدها ، واستقرت نظراته أخيرا  
عند قدميها . ولما تملكها الخوف من نفسها غمغمت بخشونة :

— الحقول هناك . فانظر اذن . وقلر .

فألقي الرجل نظرة على الحقول من مكانه وقال بلهجته المرحية :  
— هذه حقول طيبة ايتها الزوجة الفاضلة وسيكون محصول العام  
افضل من الأعوام السابقة .

وتناول كراسة صغيرة مطوية بسطها وكتب فيها شيئا بقلم يشبه  
العصا الدقيقة لم تر له نظيرا من قبل ، اذ لم يغمسه الرجل في  
مداد كما كان يفعل كاتب القرية ، بل كان مداده يجرى أسود من  
تلقاء نفسه . وجعلت الأم تراقبه وهو يكتب وقد خامرها بعض  
الفضول وسرت في نفسها روح الانفعال والزهو لأن رجلا مثقفا فاضلا  
مثل هذا الرجل قد نظر الى مثلها حتى ولو لم يكن ينبغى له ان  
ينظر ، وقررت الا تتكلم عن موضوع الحلى هذه المرة .

ولما فرغ الرجل من كتابته قال لها باسماء وهو يمطط شفته :  
- اذا كان عندك وقت فأرينى حقل الشعير لانى انسى دائما اين  
حقلك واين هو حقل عمك .  
فقال له مكرهة :

- حقلى هناك حول التل .  
وغضت بصرها وتكلفت النظر الى الفاس كأنما تهم بحملة  
ثانية .

فقال الرجل مرددا كلماتها :  
- حول التل .

ثم رقق صوته وجرى بيده الكبيرة اللينة فوق شفته وقال لها  
باسماء :

- لكن أرينى هذا الحقل ايتها الزوجة الطيبة .  
وجعل يدمن النظر اليها بصراحة وكان لنظراته قوة جعلتها  
تتحرك الى حد ما ، فألقت الفأس من يدها وسارت تتبعه شأن  
النساء ان يمشين مع الرجال .

وكانت الشمس ترسل عليهما اشعتها الحساسة والارض تحت  
اقدامهما دافئة خضراء يكسوها العشب الرطيب .

وفيما هي تسير أحست فجأة بالدم يجرى فى عروقها فبدأ رفيقا  
بتأثير الحرارة . وداخلتها دون أن تترك السبب غبطة عميقة وهي  
تطلع الى هذا الرجل الذى يسير امامها وتنظر الى عنقه القوى  
الشاحب الذى يلمع العرق فوقه والى قوامه المتثنى فى رداء الصيف  
الرقيق الناعم والى قدميه المكسوتين بجوارب بيضاء نظيفة وحذاء  
من قماش اسود .

وقد جعلت تسير صامتة فوق قدميها العاريتين ودنت منه فى  
سيرها ونفذت الى انفها رائحته التى هى مزيج من دم الرجل ولحمه  
وعرقه . وما كادت هذه الرائحة تنفذ الى خياشيمها حتى هفا بها  
الحنين وهزها الشوق كل الشوق حتى لقد ذعرت من نفسها ومما  
قد تندفع اليه . وهتفت فى صوت خافت وقد وقفت فوق الطريق  
المغطى بالحشائش :

- انى نسيت شيئا لحماتى .

ولما استدار ونظر اليها قالت ثانية فى صوت متهاافت أجش  
وقد فاض جسدها فجأة حرارة ورخاوة :  
- نسيت شيئا كان يجب ان افعله .

ودارت على عقبها وسارت مسرعة وتركته في مكانه يحسّدق خلفها . ولما وصلت الى الدار تسللت الى مدخلها دون أن يفطن اليها أحد . فقد كان الجميع نياما . واشتدت الحرارة بمضى الساعات . وجلست زوجة العم في مكانها نائمة فافرة الفم وقد نام طفلها الرضيع فوق صدرها . وكانت العجوز نائمة كذلك مدلاة الرأس مكشوفة الصدر كما تركتها . وخرجت البنت من الغرفة الخائقة وتمددت متوسدة حجرا رطبا ونامت بدورها . كما انطرح الفتى عاريا تحت شجرة الصفصاف ونام كذلك .

وقد تغير الطقس كذلك عما كان . فقد اشتد القيظ وشحب الضوء المنتشر وتجمعت في السماء من ناحية الروابي سحب عظيمة سوداء . لكنها كانت مضيئة الحوافي كأنما ينيرها ضوء داخلي غريب . كما خمدت أصوات الطيور والحشرات وخيم السكون فوق جميع الكائنات .

لكن الأم كانت أبعد ما تكون عن النوم . وذهبت بخفة الى الغرفة الداخلية المظلمة الساكنة وجلست فوق الفراش وقد جعل الدم يتدفق في أذنيها غزيرا . ذلك الدم المتولد في جسدها القوي المنهوم الجائع .

وقد فطنت الآن الى ما كان يساورها ويثقل على نفسها . ولم تحاول في هذه اللحظة أن توهم نفسها كما تفعل امرأة من أهل المدن في مكانها فتزعم أنها مريضة معتلة . كلا . كانت أوفر بساطة وأبعد من التجاهل وهي تعلم علم اليقين ما بها . واستولى عليها ذعر شديد لم تحس مثله في حياتها . فقد أدركت أن هذا النهم الذي يساورها الآن سيزيد استعارا وضراما اذا لم ..

وهي لم تحلم بأنها ستقوى على الرفض والتمنع وهي تعلم الآن أن هذا النهم الذي بها هو نفس النهم الذي به . وجعلت تئن أنينا عاليا وتناجي نفسها قائلة :

— من الخير ألا ينالني . أو اه .. كم أود ألا ينالني . وأن أنجو . على أنها نهضت عن الفراش حتى وهي ترسل هذا الأنين وغادرت القرية النائمة وعادت الى الحقول .

حعب تسير تحت السحب السوداء العظيمة المنيرة الحوافي تحببها الروابي مشربة بالخضرة في هذه الظلال . ذهبت تحت هذه السماء في الطريق الضيق الملتوى الى حيث



كان ينعطف حول معبد صغير مهجور ، حيث وقف الرجل عند بابه ينتظرها .

ولم تستطع ان تجاوزوه .. كلا .. فقد دخل المعبد وانتظر .. فتبعته الى الباب وارسلت نظرها . فاذا هو واقف في الداخل يترقب وقد لمعت عيناه في المكان الظليل كعيني الحيوان الوحشي . فدخلت .

وقفا مخلوقين احدهما الى الآخر في الضوء الكليل .  
كانا مخلوقين غارقين في حلم .. مستيئين .. لا توقفهما قوى الدنيا في هذه اللحظة .. وتأهب كلاهما للأمر المحتوم .  
غير ان المرأة أمسكت لحظة . فقد افادت من حلمها ورات آلهة المعبد الثلاثة .. كبيرهم كهل وقور يحقق امامه ، والى جانبه تابعان اقل شأنا .. وهم جميعا ارباب طيبون اقيمت انصابهم في جانب الطريق للمسافرين ممن يتعبدون او يلتمسون الاعتصام بالمعبد .

فتناولت الرداء الذي وضعت جانبا وذهبت الى الآلهة فطرحته فوق رءوسها وحجبت أعينها الناظرة المحدقة .

## الفصل العاشر

في نفس هذه الليلة هبت الريح فجأة هوجاء عاتية من ناحية الروابي النائية ، واكتسحت امامها سحب السماء الكثيفة المطيرة . وانهمرت الأمطار غريزة فبددت حرارة النهار . ولما انقشعت الغيوم بزغ الفجر ساكنا مشرقا وبدت صفحة سماء صافية الاديم .

وقد اتت هذه العاصفة فيما جاءت به بنهاية العجوز . فقد نامت في مكانها طويلا وقت القيلولة . ولما غربت الشمس تعرض جسمها العاري لهبوب الريح . حتى اذا عادت الام الى الدار في الاصيل صامتة وكأنها عائدة من الحقول ومن العمل الشريف . لفت العجوز في فراشها ترتعد بردا وقد آلت بها الأوجاع والآلام .. وهتفت حينما رأتها :

— ان ريحا شديدة حلت بي يا ابنتي . وريحا خبيثة أصابتني ! .  
وجعلت تتوجع ومدت يدها المغضنة ، فتناولتها الام واحست بها يابسة ملتفة .

والحق ان الأم قد طابت نفسها بهذا الذي وجدته . والحق أنها طربت حين آتت هذا التطور الذي يشغل ذهنها ويستغرق تفكيرها وينسيها ذلك الفعل العذب الخبيث الذي اقترفته هذا اليوم . وغمضت قائلة للعجوز :

— ان السماء متجهمة . وكدت أعود لكي أرى اذا كنت جالسة تحت هذه السماء الفاضية . لكنى قدرت أنك ستنظرين لونها وتحتجبين عنها .

فقالت العجوز مولولة :

— انى نمت طويلا . وأخذنا النوم جميعا . ولما استيقظت رايت الشمس ذهبت وأحسست ببرد الموت فى جسدى .

عند ذلك أسرع الأم ودقات بعض الماء ووضعت فيه زنجبيلًا وأعشابا وشربت العجوز منه . غير ان وطأة الحمى اشتدت عليها فى الليل وجعلت تشكو ضيق التنفس وتقول ان عفريتًا جالس فوق صدرها يدس سكينه فى رئتيها . وما هى الا دقائق حتى كفت عن الكلام وأخذت تتنفس بجهد من رئتيها المطبقتين .

وقد سرت الأم ان وجدت فى هذه المناسبة ما يحول دون نومها . ولم يفارقها هذا السرور وهى جالسة طول الليل الى جانب العجوز تسهر عليها وتقدم لها الماء كلما توجعت وتطرح الفطاء فوقها اذا دفعته عنها شاكية وطأة الحرارة وهى ترتعد فى نفس الوقت . وأما فى الخارج فقد تكاثف الليل وانصبت أمطار غزيرة تخللت السقف المصنوع من القش وانسابت الى ركن العجوز الذى اقيم فيه فراشها . فأزاحت الأم من مكانه وطرحت حصيرا فوق فراش الاولاد حتى تدفع عنهم الماء المتسرب من السقف . وبرغم هذا كله فقد طابت نفسا اذ وجد ما تفعله وما يستغرق تفكيرها طوال الليل .

ولما طلع النهار زادت حال العجوز سوءا . فأرسلت الأم فتاها لاستدعاء العم الذى جاء مع زوجته وجاء بعسده بعض الجيران . ووقفوا جميعا يتطلعون الى العجوز التى تمددت فى مكانها وهى لا تكاد تعي ما حولها وقد أذهلتها الحمى والألم الذى كانت تحسه كلما تنفست . وجعل كل واحد منهم يصف الدواء الذى يراه علاجا لحالة العجوز . وأخذت الأم تروح وتغدو مهرولة لكي تجرب هذه الوصفات جميعا . ثم أفاقت العجوز ورات الجمع الذى يحف بها . فقالت وهى تلهث من صدر مثقل : هنسا عفريت يجثم فوقى ويسمرنى .. ساعتى .. ساعتى .

فأسرعت الأم الى جانبها وراى أنها تريد ان تقول كلاما معجز عن نطقه . وكانت المعجوز تشد بيد مرتعشة اطراف الكفن الذى حفل بالرقع ، وقد كانت تضحك كلما أضيفت اليه رقعة وتقول انها ستعيش حتى تبليه . غير أنها جعلت الآن تشده بيدها فأحنت الأم رأسها وسمعتها تلهث قائلة :

— هذا الكفن .. كله رقع .. ابنى .

وجعل الحضور يتفرسون فيها عاجبين متسائلين .. غير ان الفتى قال من فوره :

— عرفت ما تريده جدتى يا أمى . هى تريد ان تلبس الآن كفنها الثالث . الكفن الذى قال أبى أنه سيرسله اليها . وكثيرا ما قالت انها ستعيش حتى تبلى الذى تلبسه فى الوقت الحالى .

فلما قال الفتى هذا الكلام اشرق وجه المعجوز قليلا وهتف انجميع قائلين : ما اقدر هذه المعجوز وابسل قلبها ! ما هى ذى تريد كفنها الثالث . وسيتحقق لها ما كانت تتمنى .

وانبسطت قليلا أسارير وجه المعجوز الفائر وقالت لاهشة الأنفاس :

— لن أموت حتى يصنع الكفن والبسه .

وبادرت الأم لتحقيق هذه الرغبة . فعهدت الى العم بشراء الكفن وقالت له :

— اشتر القماش من اجود الأنواع . وسأرد لك الثمن غدا اذا كان الآن فى متناول يدك .

فلما استقر راي الأم على ان تهيب للمعجوز افضل الاقمشة ، ولما ساد السكون ليلا حفرت الأم ارض الغرفة وتناولت النقود الفضية التى اخفتها واخذت منها القدر اللازم حتى تمضى المعجوز الى نهايتها قريرة العين راضية .

والحق ان ذكرى هذا العمل الذى أته وكانت تجتهد فى نسيانه وتغيبه فى اعماق اعماق ذاكرتها وتتشاغل دونه راضية بهذا التشاغل — هذه الذكرى المقيمة الدائمة قد رقت قلبها وحفزتها الى التفانى فى مرضاة هؤلاء الذين يتصلون بها . وكان يسكن نفسها ويخفف من وقع هذه الذكرى الخفية أن تتوفر على اسداء كل ما يتسع له ذرعها من الاحسان والمعروف والخير . وقضت ليلتين لم تذق فيهما طعم النوم وهى تجهد نفسها راضية لا تضيق بالأولاد ولا تنقم منهم وتتجه الى المعجوز المائتة بقلب يسيل رقة ، ونفس تذوب عذوبة

وحنانا . ولما جاء العم بالقماش أمسكته أمام عيني العجوز وهتفت في سماعها بصوت مرتفع اذ كلما مرت الساعة زادت العجوز صمما وعمى :

— تشجعى يا أمى وتشددى حتى أصنعه .

فقال العجوز فى جلد نادر :

— نعم لن أموت .

وان كانت فى الواقع قد زادت سوءا حتى أصبحت لا تقوى على الكلام بله التنفس ، وكلما تنفست خرجت منها حشرة اليمه تثير الرثاء والأسى .

وبادرت الأم بصنع الرداء وكان من قماش احمر اللون كثوب العروس . وجعلت العجوز تراقبها وهى تصنع وتدمن النظر اليه . ولم تعد العجوز تقوى على ازدراء طعام أو شراب . بل عجزت حتى من شرب اللبن الدافئ الذى اعتصرته امرأة طيبة من نديها لما يقال من أن هذا اللبن البشرى يدفع الموت أحيانا عن الكهول المحتضرين . . وكانت العجوز تتعلق بالحياة منتظرة لا يمسكها سوى هذا الهواء اليسير الضئيل الذى تنفسه .

وجعلت الأم تخطط الثوب بلا توقف والجيران يأتون لها بما تحتاج اليه من طعام حتى لا تنقطع عن الخياطة . وتم صنع الثوب فى نهار وشطر من الليل . وكان العم وزوجته وبعض الجيران واقفين عن كذب يرقبون صنع الثوب . بل لقد كانت القرية كلها يقظة تتسائل ان كان يقدر للأم أن تفوز فى هذه المساجلة بين الموت والحياة أو يغلبها الموت على أمرها .

لكن تم أخيرا صنع الكفن الأحمر . ورفع العم العجوز بينا جعلت الأم وزوجة العم تضمان الثوب الجديد فوق الجسد المهدم الفانى الذى حال لونه ويبست أطرافه كأنه أفرع عتيقة من شجرة ميتة . بيد ان العجوز ومات ليس الثوب . ولم تعد تقوى على الكلام الآن . بل تعددت وجعلت تحشرج وفتحت عينيها وأسعتين وأبتسمت عن فم لا أسنان له وقد أدركت أنها عاشت وغالبت الموت حتى لبست كنفها الثالث وهو كل ما كانت تتمناه فى حياتها . وهكذا ماتت قريرة العين مظفرة .

\*\*\*

على ان الأم ما فتئت تتشاغل وتنهمك فى كل شىء رغم الفراغ من دفن العجوز وانتهاء حاجتها الى العمل .



وقد دأبت على العمل في الحقول على نحو غير معهود ، وإذا أخذ  
الفتى في اتمام عمل بداته هي هتفت فيه بخشونة :

— دعنى أفعل هذا . انى شديدة الحزن لذهاب العجوز ، وكم  
الوم نفسى لأنى لم أعد الى البيت فى ذلك اليوم حتى أرى انها فى مأمن  
من العاصفة .

وجعلت أهل القرية يفهمون انها شديدة الحزن لذهاب العجوز  
وانها تلوم نفسها حتى امتدح كثيرون مسلكها واثنوا عليها وكانوا  
يقولون :

— ما اطيب هذه المرأة واشد وفائها .

وكانوا يهونون عليها ويطيّبون خاطرها ويقولون لها :

— لا تحزنى ايها الزوجة . كانت عجوزا وجاء أجلها . وماذا ينفع  
الحزن اذا جاء أجل الانسان ؟ . كفاك عزاء ان زوجك على قيد الحياة  
واولادك أحياء . تشجعى أيتها الزوجة الطيبة .

لكنها كانت فى حاجة الى هذه المعاذير لاختفاء خوفها وانقباضها .  
فقد كان لها أن تخاف وأن تنقبض حقاً . وحان الوقت لكى تنبش  
قلبها حتى وهي تعمل فى الحقل وتستخرج منه هذا الخوف الذى  
بقى كامناً فيه منذ ساعة العاصفة . وقد طابت نفسها كل هذه  
الأيام بل طابت نفسها بموت العجوز وكانت تناجى نفسها محزونة بهذه  
الكلمات : « من الخير أن العجوز ماتت حتى لا تعرف ما يقع ، ان  
كان لابد من وقوعه » .

ومضى شهر وهي خائفة . ومضى شهران وثلاثة وجاء أوان الحصاد  
وتم جنى المحصول . فاذا ما كان يساورها من المخاوف كل يوم قد  
استحال الآن يقينا وحقيقة واقعة . ولم يعد يجديها الشك وأدركت  
أن أسوأ ما خافته قد وقع وأن السهم قد نفذ ، وهي ام لأولاد وزوجة  
طيبة مبدلة فى قريتها . وجعلت تلعن يوم العاصفة وتلعن شهوتها  
العمياء . وقد كان ينبغى لها أن تعلم علماً لا ريب فيه أن تلك  
اللحظة ستثمر وتنتج أثرها وقد كان جسدها فائراً متفتحا مترقبا  
وان عقلها كانت تصهره نار آكلة ونفسها تذوب جوعاً ونهما .  
وهل كانت تحلم بغير هذه النتيجة وقد كان الرجل كذلك قوى البنية  
موفور الحيوية ؟ .

ها هنا أذن لون غريب من الأمومة قضى عليه أن يلوذ بالسرية  
والكتمان وان تحصي أعراضه مقرونة بالجزع والذعر فى وحشة  
الليل والأولاد نيام . ومهما انتابها من أسباب الاشمزاز فلم تكن تقوى

على أن تكشف عما يساورها . ومن عجب أنها لم تأنس أبدا هذا  
الاشمئزاز وهذا التقزز حين حملت أطفالها الشرعيين . فاما الآن فقد  
كانت تفشى بالطعام وتلفظه قبل أن يستقر في جوفها . وخيل اليها كأن  
هذه البذرة التي تنبت في أحشائها شديدة القوة موفرة الحياة  
حتى لتنمو في بطنها من تلقاء نفسها وكأنها أعشاب برية . وكانت  
تستأثر بجسدها في غير رحمة وهي تجهد ألا تترك ما يتم عنها .  
وكانت تقضى الليالي متتابعة جالسة في فراشها عاجزة عن التمدد  
والنوم . وتروح تتوجع وتناجي نفسها بهذه الكلمات :

— يا ليتنى كنت وحدى كما كنت وليس في بطني هذا الذى بها .  
يا ليتنى كنت وحدى كما كنت . اذن لرضيت نفسا وقنعت  
بحالى .

وكان يخطر لها أحيانا وهي في ثورة من أمرها أن تعلق نفسها  
في قائم الفراش وتقضى على حياتها . ولكنها لم تستطع الى هذا  
سيلا . فقد كان بجانبها اولادها . ولما نظرت الى وجوههم الساكنة  
الهادئة لم تقو على انفاذ هذا الخاطر الجنونى ولم تطق أن تتصور  
نظرات الجيران الى جثتها الهامدة وهم يفتشون عن أسباب موتها .  
فلم يكن أمامها اذن إلا أن تعيش .

على أن هذه المرأة رغم آلامها لم تبرأ من رغبتها في هذا الرجل ،  
وان كانت تمقت نفسها كلما هزها الشوق اليه . بل لقد خيل اليها  
انه يربطها اليه رباط وثيق بهذا السر الخفى الذى ينمو في أحشائها .  
ومع أنها كانت تعض بنان الندم لاستسلامها اليه فقد كانت لا تفتأ  
تحن اليه نهارا وليلا . غير أنها استحييت أن تلمسه وخافت أن  
تراها اثميون كذلك . ولم يسمعها الا الانتظار حتى يعود ثانية . فقد  
بدا لها انها اذا ذهبت لالتماسه فهي هالكة حقا ومتاع لكل رجل  
من بعده .

لكنها آنست في هذا الشأن ظاهرة غريبة . فان الرجل قضى  
وطره منها وبث ما كان بينه وبينها . ولم يأت مرة واحدة طوال  
الصيف حتى انتهى حصد الحب ووجب أن يعسود . ولما جاء لزم  
الصمت والتحرز كدأبه واقتضى الكيل كاملا حتى لم يتمالك الفتى  
أن هتف عجبا .

— كيف أغضبناه يا أمي وهو في العام الماضى كان رحيما بنا ؟  
فأجابته الأم في تبرم :  
— وكيف أعرف ؟

لكنها كانت تعرف . وقد عرفت حقا اذ رآته معرضا عنها .  
بل انه لم يتكلف ان ينظر اليهسسا مرة واحدة اثناء ولائم  
الحصاد رغم انها اغتسلت ومشطت شعرها وسوته بالزيت وارتدت  
ثيابا نظيفة ولبست جوربها الوحيد وحذاءها الذي صنفته يوم دفن  
المجوز .

لبست اذن هذه الثياب وقد توردت وجنتاها املا خامدا وحياء  
ولمعت عيناها بتأثير مخاوفها المكنونة وجعلت تروح وتغدو يوم الولاية  
مهرولة امام عينيها وراحت تخاطب هذا وذاك بصوت عال وهي تتكلف  
المرح ، حتى لقد تفرست نساء القرية فيها واخذتهن الدهشة من تورد  
وجنتيها ولمعان عينيها وارتفاع صوتها وتكلفها المرح وهي التي كانت  
تأخذ نفسها بالهدوء الوفور في مجلس الرجال .

لكن الرجل لم يخلع عليها نظرة واحدة رغم هذا كله . وقد ذاق  
الخمير الجديد المصنوعة من الارز وهتف للفلاحين قائلا :

— اريد لنفسي قدرا او اثنتين من هذه الخمر ايها المزارعون واطلب  
ان تحكموا سد القدر بالطين حتي تبقى عذبة سائفة .

بيد انه لم يصب اليها نظرة واحدة . وكانت اذا وقفت امامه  
تخطاها بنظره وكأنها زوجة عادية لا يعرفها .

عند ذلك لم تطق المرأة صبرا . اجل . لم تستطع ان تطيق هذا

رغم ادراكها انه ينبغي لها ان تسر باعراضه عنها وبانتهاء حاجته

منها . فذهبت الى بيتها في ابان الولاية واخرجت تلك الحلوى التي

أهداها اياها من قبل من مخبأها السري وهي ترتعش وتهتز انفعالا .

وعلقت القرط في اذنيها بعد ان نزعتهما منها السلك الدقيق الذي

جعلته فيهما السنين الطوال حتى لا يسد ثقباهما . ودفعت زوج

الاساور في يدها الخشتين وخرجت مرة ثانية لسكنى يراها ووقفت

بين النساء اللاتي اقمن على خدمة الرجال اثناء الولاية . ولما رأتها

الارملة الثرثارة وكانت تلبس حذاء جديد وتدفع قدميها دفعا حتى

يراه كل انسان هتفت قائلة :

— حسنا ايتها الزوجة الطيبة . اراك اشتريت الحلوى اخيرا

وتحليت بها ايضا رغم ان زوجك لم يزل بعيدا عنك .

فاهت الارملة بهذه الكلمات في صوت عال حتى التفتت النسوة

جميعا وضحكن بل التفت الرجال ايضا وابتسموا لما راوه من مرح

هذه المرأة . ولما سمع الوكيل هذا الضحك وهذا الكلام اللاذع الذي

عنيت به المرأة رفع رأسه عن صحفته في عجرفة وثى غير مبالاة وجعل

فكاه يتحركان لامتلاء فمه بالطعام وقال بغير اهتمام وبصوت عال حتى تسمعه :

— اى امرأة تقصدون ؟ .

ووقع نظره على وجهها المورد وتخطاها بعينيه كأنه لم يرها أبداً وانهمك في الأكل من جديد . ولما أحست المرأة بالتورد يفيض من وجهها ابتعدت مسرعة وضحك الجميع حين راوها تجرى حياء من مرحها .

ومنذ ذلك اليوم حرصت المرأة على العزلة والابتعاد عن أهل القرية جميعاً تبقى وحدها مع أولادها أخفاء للسكائن المروع الذى ينمو فى أحشائها .

غير أنها كانت تفكر نهارها وليلها فيما يمكن أن تفعل ، وكانت أمام الناس تواصل العمل فى الحقول وتخزن الحب للشتاء ولما حل عيد الخريف وكان فى كل بيت عيد وامتلات البيوت بالحب والطعام لم تجد الأم للعيد طعماً وان كانت مع ذلك صنعت بعض الفطائر لأولادها تمشياً مع العادة . ولما بزغ القمر ليلة العيد جعلوا يأكلون الفطائر خارج البيت تحت أشجار الصفصاف ويستمتعون بضوء القمر الفضى الذى أحال ليلهم نهاراً ساطعاً . غير أنهم كانوا يأكلون فى وجوم . واستشعر الأولاد حاجتهم وحاجة أمهم الى الفرح والبهجة حقاً وقال الفتى أخيراً فى رزانة :

— يخطر لى أحياناً أن أبى لابد أن يكون قد مات لأنه لا يعود أبداً .

فانتفضت الأم حين سمعت هذه الكلمات وقالت بسرعة :

— أنت ابن عاق حتى تتكلم عن موت أبىك .

لكن هذه الكلمات أوجت الى نفسها خاطراً وبعثت فى ذهنها فكرة .

وقال الفتى مرة ثانية .

— يخطر لى أحياناً أن أذهب للبحث عن أبى ، وبإمكانى أن أذهب

إذا أعطيتنى مبلغاً صغيراً ، وفى قدرتى أن أحمل ملابس الشتوية فوق ظهري إذا تأخرت فى البحث عنه وإيجاده .

عند ذلك أشفقت الأم وقالت له لكى تحول أفكاره عن هذه الناحية :

— كل فطيرة أخرى يا ولدى ، وانتظر سنة ثانية . وماذا أفعل

إذا ذهبت أنت ولم تعد أيضاً ؟ انتظر حتى يكبر أخوك الأصغر ويحل محلك .



لكن الابن الاصفر هتف بقوة اذ كان عنيدا متشبها برأيه :  
- لكن اذا ذهب اخي فساذهب انا ايضا معه .  
وزم شفتيه الصغيرتين القرمزيتين ونظر الى امه غاضبا . فقالت  
الأم للفتى مؤنية :  
- هل رأيت ما تكون النتيجة وانت تقول هذا الكلام وتشتت  
عقله ؟ .

ولم تشأ الأم ان تسمع كلاما آخر في هذا الشأن .  
لكن هذه الفكرة علقّت بذهنها ولم تبرح خاطرها . وجعلت  
تستعرضها وتأملها وتقلبها على وجوهها . فها هي ذى بقيت وحدها  
اعواما خمسة كاملة . فهل لم يكن ممكنا ان يعود في اثناء هذه المدة  
اذا كان في نيته ان يعود حقا ؟ .

لقد مضت اعوام خمسة . ولا بد ان يكون في عداد الموتى . ولا بد  
انها أرملة ، بل أرملة منذ سنوات دون ان تدري . وليس وكيل  
المالك متزوجا .

هي أرملة وهو غير متزوج . فقد سمعته يقول ان زوجته ماتت  
في العام الماضي ولم تهتم اذ ذاك بكلامه ، اذ ما كان يعنيه من هذا  
الكلام وهي لم تكن قد ترملت بعد . اجل . . لا بد ان تكون أرملة  
حقا .

وفي هذه الليلة باتت ساهرة تسامر القمر وقد نام الأولاد وهجعت  
القرية الا من كلب ينبع هنا وهناك . وقد استقر في نفسها كلما مضى  
الوقت انها أرملة . فاذا كانت كذلك ، واذا تزوجت منه . حالما  
يقبل فهل تصلح ما افسدت ؟ .

ومن عجب ان الظروف عجلت بتحقيق هذا الذي ساورها فان  
الفتى . لم ينس عزمه واخذ يعمل كالمحموم في حرث الحقول وبذر  
القمح ، ولما تم له ذلك ركب رأسه واصر على الذهاب في يومه لالتماس  
والده .

شب الفتى طويل القامة كآبيه . نحىلا صلبا كعود الخيزران . ولم  
يعد حدثا صغيرا يسكت على رفض رغباته . ونشأ هادئا عنيدا لا ينزل  
عن عزم يضمه . وقال لأمه :

- دعيني اذهب الآن للبحث عن أبى . اعطينى اسم المدينة التي  
يقيم فيها والبيت الذي يسكنه .

عند ذلك قالت الأم في يأسها لصرفه عن عزمه :  
- لكنى أحرقت رسائله ولا بد من انتظار العام الجديد حين  
تأتينا رسالة منه .

فهتف الفتى :

- نعم . لكنك قلت أنك تعرفين العنوان

فقالته بسرعة :

- هذا ما كنت اظنه . لكنى نسيت بسبب مشاغلي الكثيرة

وبسبب وفاة جدتك . وقد تذكرت انى نسيت لاني اردت ان ارسل رسالة فى اثناء مرضها فلم اتمكن اذ نسيت العنوان .

فلما نظر الفتى اليها معاتبا وهو لا يكاد يصدقها هتفت غاضبة :

- وكيف كنت أعرف أنك ستفكر فى المذهب وقتلك كل الأعمال

على راسى بعد أن كبرت واصبح يمكن الاعتماد عليك ؟ . لم احلم ابدا

بأنك ستترك أمك . وانا اعلم ان رسالة ستردنا فى السنة الجديدة

ككل سنة .

وهكذا لم يستطع الفتى الا أن يطرح عزمه للزمن وجعل ينتظر

ضيق الصدر متبرما . وقد وطن النفس على رؤية أبيه . ومع أنه

لم يعد يتذكر هذا الأب ، فقد خيل اليه ان فى ذاكرته منه صورة

الرجل الطيب المرح وتاقت نفسه الى رؤيته . فانه لم يعد يكلف

بأمة كثيرا فى هذه الأيام لانه كان يراها حادة الطبع سريعة الغضب

نحوه لا تفهم أو لا تكاد تفهم منه شيئا ، وساوره حنين الى أبيه .

ولم تدر الأم ماذا تفعل . ورات اخيرا ان الوقت قد حان لكى تقوم

بعمل سريع حاسم . ولم يبق لديها شك فى وفاة الرجل بعد ان

لبثت كل هذه السنوات بعيدا عن زوجته وأولاده . وجعلت تردد

هذا الكلام حتى نزل من نفسها منزلة اليقين وايقنت من موته حقا .

ولم يبق عليها الا أن تدبر مسألة شكلية لكى تقنع الفتى وتقنع اهل

القرية بموته .

واذن فقد ذهبت مرة اخرى الى البلدة والتمست كاتباً آخر لم

تكن راته من قبل . وقالت له وهى تتنهد :

- اكتب لروجة اخى وقل لها ان زوجها توفى . قل لها انه مات

حرقا . فان النار شبت فى الدار التى كان يقيم فيها لانقلاب

المصباح بأيدى أحد العبيد وأنه احترق وهو نائم حتى استحال رمادا

ولم يبق من جثته ما يرسل الى اهله .

ودون الكاتب اسمها باعتباره اسم زوجة الأخ . وقررت له اسما

مستعارا باعتباره شخصا تطوع بإبلاغ هذا النبأ ، وكتب اسم مدينة

اخرى بعيدة باعتبارها مصدر هذا الخطاب . وأنس الكاتب فى

هذا كله ما أثار دهشته وتساؤله ، بيد أنه لم يتعرض لأنه لا يعنيه

من الأمر شيء ولأنه تناول اجرا مرضيا .  
وهكذا وجدت المرأة مخرجا . لم تستطع أن تصبر حتى يتم  
لها ما تريد على الوجه الذى تصورته . واعتزمت أن تخطر وكيل  
المالك بوفاة زوجها على وجه من الوجوه . وجعلت تختلف الى هنا  
وهناك باحثة عن بيته حتى وجدته . وكان الآلهة حالفها ، فقد  
صادفته وهو يهم بدخول الدار . فهتفت به ووضعت يدها على  
ذراعه فنظر اليها وإلى يدها الموضوعة فوق ذراعه وقال لها :  
— ما الذى تريدين يا امرأة ؟ .

فأجابت همسا :

— سيدى . أنا أرملة . انى سمعت اليوم فقط انى أصبحت  
أرملة .

فدفع يدها عنه وقال بصوت مرتفع :

— وما شأنى فى هذا ؟ .

ولما تطلعت اليه متأللة قال بخشونة :

— انى دفعت لك الثمن . دفعت لك الثمن كافيا .

وفجأة ناداه رجل فى الطريق فعرفه . وقال له ضاحكا :

— ما هذا يا رجل يا طيب ؟ . هل تستوقف النساء الرجال  
هكذا ؟ .

فأجاب الوكيل ببرود :

— نعم . وهى أمامك اذا أردتها . اما انا فلا .

ودخل داره دون أن يعبا بها .

وقفت مكانها مشدوهة خجلى لا تفقه شيئا . لكن كيف دفع لها  
الثمن ؟ وما الذى أعطاها ؟ .

وفجأة تذكرت الحلوى التى أعطاها اياها . فهل كان هذا هو الثمن  
الذى يعنيه ؟ .

ترى ماذا تفعل الآن بعد أن عرفت كل شيء ؟ .

سارت قدما عائدة الى البيت واحست بقلبهـا يكاد يقف عن  
الحركة . وراحت تقول لنفسها :

— لم يحن وقت البكاء بعد . لم يحن وقت البكاء بعد .

والحق أن العبرات جاشت فى نفسها وكادت تخنقها . لكنها  
غالبت نفسها .

والزمت قلبها الصلابة والسكون يوما أو يومين حتى وافتهـا  
الرسالة التى دبرتها . فحملتها الى كاتب القرية . وقالت له بسكون

وهي تقدمها له :

— تحدثني نفسي يا عمى بأننى ساسمع انباء سيئة . فهي فى غير موعدها .

فتناول الكاتب الرسالة وطالعها وانتفض قائلا :

— هذه اخبار سيئة أيتها الزوجة الطيبة . فاستعدى .  
فقالت له فى تجلد :

— هل هو مريض ؟ .

فوضع الكاتب الرسالة وانزل العوينات عن وجهه وقال برزائه وهو يحدق فيها :

— بل مات .

فلما سمعت الأم هذا الكلام صرخت والقت رداءها فوق رأسها وبكت .

أجل . كان لها أن تبكى الآن . فبكت آمنة واسترسلت فى البكاء وكأنها تعلم انه مات حقا .

بكت لوحدها وتهدم صرح حياتها . بكت لسوء حظها وذهاب زوجها . بكت لأنها لا تستطيع أن تلد هذا الجنين الذى حملته فى أحشائها . وبكت أخيرا لأنها ليست بالأقدام وامتهنت أى امتهان . وأراقت الآن فى غير زمن هذه العبرات الحرى التى كانت تحبسها اشفاقا من عيون الأبناء والجيران .

ولما سمع نساء القرية بأمرها أسرعن اليها يواسينها ويوصينها إلا تسرف فى البكاء حتى لا تمرض فقد كان لهن ابناؤها أخيرا ، وذهبن وجئن لها ترويحاً بولديها عن نفسها وتخفيفاً لحزنها . ووقف الولدان أمامها وكان الفتى شاحب اللون كأنما أصيب بمرض فجائى بينما جعل أخوه الأصغر يبكى لبكاء أمه .

وفجأة وفى أبان هذا الهرج ارتفع صوت البكاء والعويل وتبين انه صوت الأرملة الثائرة التى تغلب عليها الحزن من هذا المشهد وانحدرت الدموع على وجنتيها وأخذت تقول منتحبة :

— أنظرى الى أنا المسكينة . فانا اتعس منك حظا . لانى لا املك ولدا . أنا أحق بالشفقة وأسوأ من كل النساء حالا .

وتجدد حزنها القديم واشتد حتى دهشت النسوة والتفتن اليها يواسيها فانتهزت الأم هذه الفرصة وذهبت الى بيتها يتبعها ولداها وبكى فى سكون دون أن تستطيع امساكا .

ولما وصلت الى البيت جلست لدى الباب تبكى . وبكى الفتى قليلا



وجعل يجفف دموعه يظهر يده واستمر الولد الأصفر فى بكائه دون أن يدري معنى موت أبيه لأنه لم يكن رآه . وجعلت البنت تبكى وتتوجع . وهى تضغط على عينيها الما .

لكن الأم رأت أن بكاءها الآن الى غير غاية لا يجديها شيئا . وما لبثت أن كفت عن البكاء الى حين وهونت على الأولاد الى حد ما بسكونها واخذت تفكر فيما تفعل .

رأت أنه ليس امامها اذا لم تتخير الموت نهاية لها الا ان تنتزع من أحشائها ذلك الجنين الذى ينمو كل يوم . لكن هذا عمل لا قدرة لها عليه وحدها . ولا بد لها من حليف يساعدها . ولم يكن امامها من تلجأ اليه سوى زوجة العم . وقد ودت الأم كثيرا الا تضطر لاطلاع أحد على أمرها . غير أنها لم تدر كيف تقوم بهذا العمل وحدها . وقد كانت زوجة العم امرأة طيبة ذات خبرة . وهى تعرف أساليب الرجال وتعرف خصب النساء . لكن كيف السبيل الى اطلاعها على هذا الأمر ؟

غير أن المناسبة المنشودة جاءت من تلقاء نفسها . فقد تقابلت المرأتان بعد يوم أو يومين من ذلك فى أحد الطرقات ووقفتا تتجاذبان أطراف الأحاديث . فقالت زوجة العم بلهجتها الرقيقة :-

— يا بنت عمى كلى وضعى حدا لأحزائك . فان وجهك شاحب كان فى بطنك بعض الديدان .

فخطرت الفكرة فى بال الأم وقالت بمرارة وفى صوت خافت :-

— الحقيقة ان فى بطنى دودة تمتص حياتى .

ولما حدثت زوجة العم مستفسرة وضعت الأم يدها على بطنها قائلة :-

— يوجد شيء ينمو فى بطنى يا بنت عمى . لكنى لا أعرف ما هو

الا ان كان ريحا خبيثا من نوع ما .

فقالت زوجة العم :-

— دعينى أنظر .

ففتحت الأم رداءها وتحسست زوجة العم موضع الانتفاخ من بطنها

وقالت فى دهشة :-

— يا بنت عمى . هذا يشبه جنينا . ولو كان لك زوج لقلت انه

كذلك .

فلم تنبش الأم بينت شفة . لكنها تكست رأسها وهى فى أشد

حالات التعاسة ولم تقو على رفع بصرها ورأت زوجة العم حركة فى

بطنها .. فهتفت مرتاعة :-

— أحلف انه طفل . لكن كيف أمكن هذا وزوجك غائب منذ سنين ، الا ان كان من فعل روح من الأرواح ؟ لكنى سمعت ان هذا يحدث أحيانا للنساء . وقد حدث فى الأزمان القديمة للنساء القديسات اللاتى كانت الآلهة تزورهن . غير انك يا بنت العم وان كنت امرأة طيبة محترمة فليست من القديسات . . لكن هل زارك اله ؟ . وقد همت الأم حينما سمعت هذا السؤال ان تكذب كذبة اخرى وان تقول انها أحست باله يزورها حين اعتصمت يوما من العاصفة بأحد المعابد . غير أنها ، كادت تفتح فيها لصوغ هذه الكذبة حتى عجزت عن النطق ووقفت الكلمات فى حلقها . فقد خافت ان تكذب على الاله الطيب الذى حجبت وجهه بردائها هذه الكذبة الشنيعة . ومن ناحية أخرى فقد ملت الكذب ولم تستطع ان تمنع فيه الى النهاية .

ولذلك رفعت رأسها وتطلعت الى زوجة العم فى حالة تبعث على الرثاء والشفقة وتساعد الدم الى وجنتيها الشاحبتين فخرجهمسا بحمرة متقطعة وودت أن تنزل الآن عن نصف عمرها لكى توفق الى كذبة تستر بها هذا الموقف . لكنها لم تستطع . وأدركت المرأة الطيبة الحقيقة وفهمت كل شيء فلم تلق عليها سؤالا آخر ولم تستفسرها كيف حدث ما حدث . بل قالت لها :

— غطى نفسك يا اختى حتى لا تبردى .  
وسارت كلثاها معا . وأخيرا قالت الأم فى لهجة تقطر مرارة :  
— لا يهم أن تعرفى من أحدث هذا . ولن يعرفه أحد . وإذا ساعدتنى فى هذا يا بنت عمى واختى فساخدمك طول حياتى .  
فقالت زوجة العم فى صوت خافت :

— انى لم أعش هذه السنين الطويلة عبثا . وقد رأيت نساء يتخلصن من شيء لا يردنه .

وللمرة الأولى لمع بريق الأمل امام عينى الأم ، فقالت همسا :  
— لكن كيف ؟ لكن كيف ؟  
فأجابت زوجة العم :

— توجد أدوية يمكن شراؤها اذا كان عند الانسان نقود . وهى مواد قوية تقتل الأم والوليد أحيانا . . وهى تحدث دائما عسرا أشد من الولادة . لكن اذا أخذت منها ما يكفى فسيتم كل شيء .  
فقالت الأم :

— اذن فلتقتلنى هذه المواد بشرط ان تقتل الجنين . وبهذا أخفى

الحقيقة عن اولادى وعن الناس .  
فتفرست زوجة العم طويلا فى وجه الام ووقفت مكانها وقالت  
لها :

— نعم يا بنت عمى . لكن هل يتكرر هذا الأمر بعد أن مات زوجك؟ .  
فجعلت الأم تقسم وهتفت متوجعة :  
— لا . سألقى نفسى فى التربة وأهدىء حرارتى الى الأبد اذا  
ركبتنى الشهوة كما ركبتنى فى الصيف .  
وفى هذه الليلة كشفت الأم عن الحفرة وأخرجت تقودها الفضية  
وانتهزت فرصة مناسبة فأعطتها لزوجة العم كي تبتاع بها الادوية .  
ولما جىء بالعقاقير وتم اعدادها سعت زوجة العم فى ظلام الليل  
الى الام وهمست فى اذنها :  
— أين تشرين الدواء ؟ هذا عمل دموى ولا يمكن أن يتم فى أى  
بيت ؟ .

عند ذلك تذكرت الأم ذلك المعبد المقفر الخرب الذى يقل المرور  
به نهارا وينعدم ليلا . فقصدت كلتاهما اليه وشربت الأم العقاقير  
وتمددت على الأرض وجعلت تنتظر .  
وأخيرا أخذت هذه المواد تتفاعل فى أحشائها وأحدثت مفصا وآلاما  
شديدة لم تكن الأم تحلم بمثلها حتى لقد هان عليها أن تموت . وقد  
طفى عليها هذا الألم وآلم بها طويلا حتى ذهلت وطاش صوابها .  
غير أنها برغم هذا تذكرت شيئا واحدا أخذت نفسها به فى غير لين  
ولا هوادة وهو ألا تصرخ تسكينا لآلها . بل انها لم تجسر حتى على  
إضاءة نور ما خوفا من احتمال مرور أحد بهذا المكان من قبيل  
الصدفة الخارقة فىرى نورا غير عادى فى هذا المعبد الخرب .  
راضت الأم نفسها اذن على احتمال الألم بكل ما أوتيت من قوة  
وجلد . وسال العرق فوق جسدها غزيرا وذهلت عن كل شيء إلا  
هذا المفص القاتل وكأنما قد أنشب وحش ضار أنيابيه فى أمعائها  
وأخذ ينتزعها وينهشها . بل لقد جاءت لحظة خيل اليها فيها ان  
هذه الأمعاء قد أنتزعت حقا . وبدرت منها صرخة واحدة .  
عند ذلك جاءت زوجة العم بحصير أحضرته معها . وتناولت  
ما تناولت وجعلت تتحسس ثم قالت فى كآبة :  
— كان يمكن أن يكون ذكرا أيضا . أنت امرأة موفقة فى ولادة  
الذكور .

لكن الأم جعلت تئن وتناوه وقالت :  
— لن ألد شيئا بعد الآن .

ثم انطرحت الأم فوق الأرض واستراحت قليلا . ولما قويت على النهوض قفلتسا عائدين الى البيت . واثكأت الأم على ذراع زوجة العم وجعلت تغالب آينها . وفى الطريق مرت زوجة العم بقناة فألقت باللقافة فيها .

رقدت الأم أياما كثيرة فى فراشها خليفة المرض والهزال . وكانت زوجة العم الطيبة القلب تسدى اليها ما تستطيع من مساعدة . لكن المرض والهزال لازماها طوال الشتاء ، حتى لقد كان الذهاب الى السوق لبيع حمل من الاحمال يكلفها كثيرا من الألم والعذاب ، لكن لم يكن لها مفر من ذلك وكانت تؤديه على وجه من الوجوه .

ثم تحسنت قليلا بدخول فصل الربيع ، وان لم تعد الى حالتها الاولى ، وكانت اذا جاءتها زوجة العم بطعام مريء وألحت عليها فى تناوله وضعت الأم يدها على صدرها قائلة :

— لا يمكن ان ابتلع شيئا . هنا شيء ثقيل يضغط على صدرى . واحس بأن قلبى معلق بين يدي ولا يمكن ان أزدرد الاكل . واشعر بأن قلبى يفيض لما ولكنى لا أستطيع البكاء والتخفيف مما اشعر . ولو استطعت أن أبكى الى النهاية لتحسنت حالتى .

ذلك ما كان يبدو للأم . لكنها لم تستطع الى البكاء سبيلا . ومضى الربيع وهى لا تستطيع البكاء ولا تقوى على العمل كسالف شأنها . وكان الابن الأكبر يكافح للقيام بأعباء العمل يساعده العم بنصيب موفور .

وظل الحال كذلك حتى نضج الشعير . وجلست الأم ذات يوم فى أشعة الشمس يغلبها الاعياء حتى لقد تركت شعرها أشعث غير ممشط . وفجأة سمعت وقع خطوات قريبا ، ولما رفعت رأسها الفت وكيل المالك واقفا امامها .

وما كاد الفتى يرى الوكيل حتى تقدم نحوه قائلا :

— سيدى . ان أبى مات وانا أقوم مكانه ، وأمى مريضة منذ شهور كثيرة . ولا بد من ذهابى معك الآن لتقدير المحصول اذا كنت حضرت لهذا الغرض ، لأن أمى لا تقوى على ذلك .

فلما سمع الرجل هذا الكلام نظر الى الأم طويلا بغير مبالاة وقد أدرك تماما ما حل بها . وعرفت هى انه فهم أمرها وأطرقت براسها صامتا . لكنه قال بغير اكتراث :

— هيا بنا اذن يا فتى .

وذهب الاثنان معا وتركاهما وحدهما .



أدركت الأم تماما أنه لا أمل لها عند هذا الرجل . وهي لم تكن في حاجة إليه بعد الآن وبعد أن ألم بها هذا الضعف المزمّن . لكن رؤيته الآن كانت جماع ما تريده وكانت القطرة الأخيرة التي طفحت بها كأس شقائها . فأحست بفضة في حلقها وألم مميت في قلبها وظهرت الدموع إلى عينيها . وسارت في طريق غير مطروق حتى وصلت إلى قبر موحش مهجور طال عليه القدم حتى جهل الناس اسم صاحبه أو صاحبتة ، فجلست فوق سطحه المكسور بالحشائش وانتظرت . وأخيرا طاوعها الدمع فأخذت تبكي .

وانحدرت دموعها أولا الأمر بطيئة مريرة . غير أنها انهمرت غزيرة بعد قليل . فأسندت رأسها إلى القبر وجعلت تبكي كما تبكي المرأة حين يطفح قلبها حزنا وتفيض نفسها مرارة وغما وتلتبس شفاء ما بها في سكب الدمع وسفح العبرات . وقد حمل نسيم الربيع صوت بكائها إلى القرية ، فجعل نساؤها يتبادلن النظر ويقلن مشفقات :

— دعوا هذه المسكينة تبك وتخفف عن نفسها . فهي لم تتعز بمرور الوقت وطول الزمن . قولوا الأولادها أن يتركوها في بكائها . وهكذا تركها الجميع تبكي ما طاب لها البكاء .

على أن الأم بعد طول البكاء سمعت صوتا قريبا . فرفعت رأسها ورات في ضوء الشفق اليسير ابتها بتحسس الطريق إليها فوق الأرض الوعرة ، وهتفت البنت في سيرها :

— أمي . أن زوجة عمي أوصت أن تدعك تبكين حتى تخففي عن نفسك . لكن ألم تشعرى بأثراحة بعد طول هذا البكاء ؟ .

فما كانت الأم تسمع هذه الكلمات حتى ثابت إلى رشدها وتطلعت إلى البنت وهي تتنهد . ثم جلست وسوت شـعرها المهدل وجففت عينيها المورمتين ونهضت . ومدت البنت يدها لتحسس يد الأم وهي تطبق عينيها اتقاء وهج الشمس الأفلة ، وقالت شاكية :  
— يا ليتنى لا أبكى أبدا . فأنى إذا بكيت شعرت بألم شديد في عيني .

ثابت الأم إلى رشدها فجأة حين سمعت هذه الكلمات وتظهرت نفسها . أجل . أن هذه الكلمات القلائل التي صدرت في ختام هذا اليوم ، وهذه اليد الصغيرة الممدودة إلى ناحيتها ، فقد انتزعنا الأم من قوة اليأس التي كانت تتخبط في ظلماتها طوال الأشهر الماضية . فعادت إليها عواطف الأمومة ثانية ونظرت إلى البنت وقد طرحت

عنها ذهولها آخر الأمر وهتفت :  
— هل تؤلمك عيناك كثيرا يا ابنتى ؟ .

فاجابت البنت :

— أظن انى لم اتغير عما كنت ، الا فى ان النور يؤذنى اكثر ،  
ولم اعد اراك بوضوح كما كنت فى الماضى . ولا يمكننى الآن بعد  
ان كبر اخى ان اميز بينك وبينه حتى اسمع صوتكما .  
فلما سمعت الأم هذا الكلام اخذت تتوجع قائلة وهى تقود ابنتها  
برفق :

— اين كنت كل هذه الأيام ؟ سأذهب يا ابنتى عند طلوع النهار  
لشراء مرهم لشفاء عينيك كما كنت اقول كثيرا .

وفى هذه الليلة بدت الأم لأبنائها جميعا وكأنها عادت من مكان  
قصى وثابت الى نفسها ثانية . فقد ملأت صحافهم بالطعام حتى  
خوافيها وجعلت تهزول شاحبة اللون ولكن هادئة النفس ساكنة  
القلب . واخذت تنظر اليهم جميعا وكأنها لم ترهم منذ أعوام . ثم  
تطلعت الى الابن الأصغر وهتفت :

— غدا سأغسل لك ملابسك يابنى . اننى لم ارها على هذه الحالة  
من القذارة والتمزيق . أنت ولد جميل ولا يمكن أمك ان تتركك تسير  
فى الطرقات بهذه الثياب .

ثم التفتت الى الابن الأكبر قائلة :

— قلت لى ان أصبعك جرحت وانها تؤلمك . دعنى انظر ..  
وعمدت الأم الى يد الفتى فغسلتها وصبت بعض الزيت فوق  
الجرح وقالت له :

— كيف جرحت يا ولدى ؟ .

ففتح الفتى عينيه دهشة وقال :

— قلت لك يا أمى انى جرحت أصبعى عندما كنت اشحد المنجل  
استعدادا لحصد الشعير .

فاجابت الأم بسرعة :

— صحيح . تذكرت الآن . فأنت قلت هذا .

وقد خيل للأبناء دون أن يدروا كيف حدث هذا التحول « أنهم  
يشعرون فجأة بالأنس والدفء . وان هذا الأنس وهذا الدفء  
يفيضان عن أمهم . وملا الفرح والبهجة قلوبهم وأخذوا يتحدثونها فى  
كل شأن . وقال لها الابن الأصغر :

— لقد تراهنت اليوم مع أصحابى على اينا يوسعه ان يقذف الى

أبعد مرمى . وفزت عليهم وكسبت هذا البنس . وانا لا شك مجدود  
لأن هذا البنس هو أول ربح أصيبه .

فنظرت اليه الام بشراهة ورات جماله وترقرق الصحة فيه وعجبت  
من نفسها كيف غفلت عن هذا من قبل وقالت له يحنو شديد :

— أنت غلام نابه لآنك احتفظت بهذا البنس ولم تشتري به حلوى .

لكن الطفل ظهرت عليه علائم القلق حين سمع هذا الكلام وقال :

— لكن اليوم فقط يا أمي فكرت في أن أشتري به حلوى غدا .

ولا حاجة بي الى ادخاره وبوسعى أن أكسب كل يوم بنسا مثله .

وكان الطفل يتوقع أن تقابله بالرفض ، لكنها أجابته برقة :

— اشتر يا ابني ما يحلو لك . لأن هذا البنس ملكك .

ثم تدخل الفتى في الحديث وقال لأمه :

— أريد يا أمي أن أقول لك شيئا غريبا ، فعندما كنت في الحقول

مع وكيل المالك أبلغني أن هذه آخر سنة له عندنا لأنه سيذهب للعمل

في جهات أخرى . وقد قال انه تعب من طول المشي في الطرقات

الريفية ومل الفلاحين البسطاء وزوجاتهم وسئم تشابه الفصول ،

وأنه سيذهب الى إحدى المدن البعيدة .

فلما سمعت الأم هذا الكلام جلست جامدة في مكانها وجعلت تتفرد

في الفتى وتتطلع اليه من خلال الضوء اليسر المرسل من الشمعة التي

أوقدتها هذه الليلة ووضعها فوق الخوان . ولما استوعبت هذه

الكلمات تركتها تستقر في نفسها فنزلت على قلبها بردا وسلاما كما

ينزل ماء المطر فوق التربة المتعطشة ، وهتفت في صوت منفعل

خافت :

— هل قال ذلك يا ولدي ؟ .

ثم اردفت بسرعة وكان الأمر لا يعنيها :

— لكن لابد أن ننام ونستريح ، لأنى سأقوم غدا في الفجر وأذهب

الى البلدة لشراء مرهم لأختك حتى يشفى نظرها ويعود كما كان .

وقد فاهت الأم بهذه الكلمات في صوت قوى ملء بالسكينة

والإطمئنان . ولما دنا الكلب منهما مستجديا أطعمته بسخاء فأخذ

الحيوان يأكل وهو سعيد مدهول وراح يتردد الطعام مسرعا . ولما

شعر بالشبع والامتلاء تنهد راضيا .

وفي هذه الليلة وفقت الأم الى النوم . ونامت وأولادها توما عميقا

مليئا بالراحة والهدوء .

## الفصل الحادى عشر

لم تفد الأم من رحلتها الطويلة الى العطار فى البلدة المجاورة لشراء مرهم لعينى ابنتها الكفيفة . فقد أبلغها الرجل ان عمى البنت محقق لا شفاء منه ، وعزا السبب الى لعنة حلت بالبنت نتيجة اثم ارتكبه أحد ابويها . ومع ان الأم ذهبت بعد ذلك الى معبد لالهة رحيمة للصلاة والاستغفار لعل اللعنة ترتفع عن البنت العمياء ، فان الالهة لم تستجب لها ، وايقنت الأم ان خطيئتها هي السبب ، وعادت الى البيت بائسة نادمة على تلك الخطيئة التى انزلت اليها . وعندما استبد بها اليأس برئت من شهوات الشباب وانطوت صحائفه من سجل حياتها . وانطلمست فى نفسها صورة الرجل من حيث هو رجل ، ولم يبق فى سماء حياتها سوى ولديها وابنتها العمياء .

\*\*\*

هكذا ولى عهد الشباب عند الأم ونيفت سننها الآن على الثالثة والأربعين . ورغم ذلك لم يكن أحب الى قلبها من العمل فى الحقل غير مكتثرة باحتجاج أكبر اولادها وحنه اياها على الاخلاق الى الراحة . وأصبح يشقيها الآن التفكير فى مصير الفتاة العمياء اذا لم يقدر لها الزواج . وقد هداها طول التفكير الى البحث عن زوجة لابنها الأكبر لكى تمنى به وبأخته الكفيفة . انه قد ناهذ الآن التاسعة عشرة من عمره ، وغدا شابا مكتمل الصفات صلب العود دعوبا على العمل ، ولم يكن يعيبه فى نظرها سوى قسوته على أخيه الأصغر الكسول العاثر اللاهى الذى كانت رغم ذلك تحبه وتؤثره على أخيه الأكبر اذ كان أقرب شبيها بأبيه . والواقع ان هذا الفتى كان يتهرب من العمل ويتغيب يوما او يومين عن البيت حتى اثار أغضاؤها وتدليلها حفيظة الابن الأكبر ومقته له .

\*\*\*

كان مقت الشاب لأخيه الفتى يزداد كل يوم رسوخا فى نفسه . ولم تدر الأم نفسها الى أى حد بلغ هذا المقت من نفس الشاب حتى جاء يوم معين انفجرت فيه براكين هذه العاصفة المريعة فى صدره وفاضت جائشة مكتسحة كما يفيض النهر فجأة ويكتسح السدود القائمة دونه وقد غذته روافد خفية لا تراها الأعين ، حتى اذا سال فيضه دهش الناس لانهم لم يدركوا كيف كان النهر فى الأحوال العادية



وقد كان يبدو لأعينهم ساكنا .

حدث هذا وقت حصاد الأرز في أواخر أيام الصيف حين يسكد الجميع في الحقول ويكدحون منذ مطلع الفجر حتى مقرب الشمس، وحين يجب على كل قادر أن يسكد ويكدح ما لم يكن غنيا ميسور الحال .

وقد قام الفتى الأصغر بنصيبه كذلك من عمل اليوم وإن كان عقله منصرفا إلى عمل في مكان سحيق كان يجب أن يقوم به . لكن أمه كانت قد استحثته للعمسل وقالت له وهي تبسط أصابع يده الملساء :

— اشتغل يا بني كما يجب في هذه الأيام ، أيام الحصاد ، وبرهن لأخيك على قدرتك . وإذا قمت بالعمل كما يجب وأرضيت أخاك فاني سأشتري لك شيئا تحبه وتحتاج إليه .

وهكذا وعدا الفتى بالعمل وهو يزم شفتيه ويعد نفسه مرهقا مضيقا عليه ، وأخذ يقوم بنصيبه من هذا العمل بقدر ما يدفع عنه أذى أخيه إذا وقعت عينه عليه .

لكنهم في هذا اليوم الذي أندرت فيه السماء بالمطر تجاوزوا ساعات العمل المألوفة وساهمت الأم معهم في العمسل حتى كلت قواها فلم تتمالك أن قومت ظهرها الموجع متنهدة وقالت لابنها الشاب :

— سأعود يا بني إلى البيت لكي أدفء الأكل لأنى أشعر بأشد التعب والألم .

فقال الشاب في خشونة يسيرة لا يقصدها لأنه لم يحمل أمه أبدا على تجاوز طاقتها في العمل :

— عودى إلى البيت اذن .

وهكذا عادت الأم إلى البيت وتركت ولديها وحدهما ..

وما كادت الأم تأخذ في انضاج الطعام حتى هتفت الفتاة التي كانت جالسة في مدخل الدار قائلة انها سمعت أخاها الأصغر يبكي . ولما خرجت الأم مسرعة من المطبخ تحقق لديها ذلك . فركضت بكل قواها إلى الحقل حيث الفت ابنها الشاب يضرب أخاه الأصغر بقبضة المنجل ضربا قاسيا اليمسا والفتى يصرخ ويستغيث ويرد الضربات بقبضتي يديه ويحاول أن يخلص نفسه من يد أخيه المطبقة على عنقه . لكن هذا لم يتخل عنه وظل ينهال عليه بقبضة المنجل . فاندفعت الأم بكل قواها إلى الابن الأكبر وتعلقت به وصاحت متوسلة :

— يا بني ! انه لا يزال صغيرا . يا ابني . يا ابني .

وانتهز الفتى هذه الفرصة فأفلت من قبضة أخيه وراح يركض  
فى الحقل كالأرنب الهارب واختفى فى ظلام الشفق . ولما صارت الأم  
وحدها مع ابنها الغاضب الحنق قالت فى صوت متهدج :  
— هو لم يزل طفلا صغيرا فى الرابعة عشرة من عمره وعقله منصرف  
الى اللعب .

لكن الشاب أجابها :

— وهل كنت طفلا وأنا فى الرابعة عشرة ؟ هل كنت ألعب فى موسم  
الحصاد وأنا فى الرابعة عشرة من عمرى ؟ وهل كنت ترشيني بخاتم  
أو رداء جديد أو غيره مما لم أكن أربحه وأنا له بكدي ؟  
فهمت الأم من هذه الكلمات أن الفتى الأبله قد راح يترهو بمسا  
يتوقع أن يناله ، ووقفت صامتة لا تحير جوابا وهى شاعرة بغلظتها .  
واستسلم الشاب لآله ومرارته فانفجر صائحا :

— نعم . أنت تحتفظين بالنقود . وأنا أعطيك كل ما نريحه . وأنا  
لا آخذ بنسا واحدا لشخصى ولا أدخن قصبة صغيرة ولا أشرب قدحا  
من الخمر ولا أشتري لنفسى شيئا مما يناله أى شاب ويعده حقا  
لنفسه . ومع ذلك فأنت تعدينه بكل ما لم أنله فى حياتى . ولأى داع ؟  
لكى يقوم بالعمل الذى يجب أن يؤديه بلا مقابل حتى يدفع ثمن  
ما يأكل وما يشرب .

أحست الأم ببعض الخوف من هذا الابن الغاضب الناقم الذى كادت  
تنكره الآن لفرط ما كان يتسم به من الرزانة والهـسدوء فى الأيام  
العادية . وقالت فى صوت خافت مضطرب :

— أنا لم أعد بخواتم ولا ملابس .

فقال الشاب بانفعال شديد :

— بل وعدته . أو إذا لم تكونى وعدته فقد فعلت ما هو أسوأ . فقد  
قال أنه سينال كل ما يريد بعد بيع المحصول وسداد الضرائب . بل  
قال أنك وعدته .

فقالت الأم وهى خجلى أمام هذا الابن الطيب الفاضل :

— انى قصدت أن أقدم له لعبة تافهة لا تكلف سوى مبلغ زهيد  
يسير .

ثم استجمعت شجاعته بعد أن رأت أنها هى الأم وأن لها  
حقوقا . فقالت :

— وإذا كنت وعدته بلعبة تافهة فلكى أنقذه من غضبك الدائم الذى  
تلاحقه به مهما فعل ، وأنت تشدد عليه وتؤذيه بنظراتك القاسية

وكلماتك الأليمة ، والآن بضربائك .

لكن الشاب لم يقل شيئاً آخر . وانثنى الى حزم الأرض يعمل فيها بصرامة وسرعة وكأن شيطاناً ركبه . ووقفت الأم تنظر إليه وهي لا تدري ماذا تفعل . وكانت تشعر بأنه قد قسا في معاملته لابنها الأصغر ، ولكنها أدركت في نفس الوقت انها أخطأت وحادت عن طريق الصواب .

ثم ألقت عليه نظرة فاذا الدموع تكاد تطفر من عينيه ولكنه ضغط على فكيه لكي يحبس عبراته . فلما آنست الأم فيه هذا الاحساس الذي لم تعهده فيه من قبل وهو الذي كان ابداً راضياً مستسلماً لا يبدى رغبة ما ، ذاب قلبها وورقت حاشيتها كدأبها كلما آذت أحد ابنائها ، وان كان الابن لا يحس منها ذلك ، وزاد حديها وحنانها فهتفت بلهجة سريعة :

— انى أقر بخطيئتي يا ولدى . انا لم اصنع نحوك ما يجب في العهد الأخير . انا لم أدرك أنك صرت رجلاً . لكنك رجل . وأنا الآن أقدر هذا وأراه بعيني . وسيكون لك مقام الرجل في بيتنا وتضع يدك على النقود وتحتل المكان الأول بالاسم كما تحتله في العمل الذي تقوم به دائماً . نعم . انى أراك الآن رجلاً . وسأعمل في الحال ما إبطأت فيه زمناً طويلاً . سأبحث لك عن زوجة وسيكون لك ولها دور الصدارة . انى لم أدرك هذا من قبل . لكن أدركته الآن كما يجب . وهكذا عمدت الأم الى الإصلاح . وغفم الشاب كلاماً لم تسمعه وادار ظهره ولم ينبس بكلمة أخرى بل راح يواصل العمل . اما هي فقد سرى عنها وعادت أدراجها وهي تقول هذه الجملة لاختفاء شعورها :

— كفى . لا بد ان يكون الأرض احترق الآن .

وما كادت تصل الى المنزل حتى راحت تتشاغل بمختلف الأعمال وقد نسيت أعياءها . ولما سألتها الفتاة عما حدث أجابتها فوراً :

— لا شيء يا ابنتي الا ان أخاك الأصغر لم يقم بنصيبه من العمل ، او هذا ما قاله شقيقه . لكن الاخوة يتشاحنون دائماً كما اظن . وأسرعت الأم باعداد لون شهى من الطعام يحبه ولدها الأكبر . وراحت وهي تعدّه تفكر في خطة الإصلاح التى عولت عليها . فرأت انه من الصواب ان يتزوج ابنها . وجعلت تلوم نفسها لأنها اعتمدت عليه كما تعتمد على الرجل دون أن يظفر بما يظفر به الرجال من الجزاء . وزادها التفكير تصميمًا على انفاذ ما قررت .

وعاد الشاب الى البيت اخيرا فى ضوء الشمعة التى اوقدتها  
ووسمعتها فوق الخوان . ولما تفرست فى وجهه دون أن يفتن اليها  
رأته قد عاد الى حالته السالفة وظهرت عليه علائم السرور بتأثير  
ما وعدت به وفارقه القضب . فلما رأت الأم هذا الصفاء نادى الفتى  
الأصفر الذى كان يحوم حول الباب دون أن يجسر على الدخول حتى  
يتبين شعور أخيه ، وان كان الجوع قد أرغمه على المجيء . وقالت  
له الأم :

— أدخل يا بنى .

فدخل الفتى وهو ينظر الى أخيه . لكن هذا لم يحفل به ولم  
يلتفت اليه بعد أن تلاشى غضبه ، وأحست الأم بالرضاء وطابت  
نفسها ورأت أنها أحسنت فى اتخاذ قرارها ، وشرعت فى تحقيق هذا  
الوعد الى النهاية .

ذهبت الأم الى بيت العم وزوجته كعادتها فى كل معضلة . وقد  
دفعها الى الذهاب كذلك أنها لم تكن تعرف فتاة لتزويجها من ابنها .  
ولم يكن بوسعها أن تختار إحدى بنات القرية إذ كان أهلها جميعا من  
ذوى القربى وهم يلقبون بلقب مشترك . كما أنها لم تكن تعرف فتاة  
من أهل البلدة لاقتصر معاملاتها على بضعة حوانيت صغيرة كانت  
تشتري منها ما تقدمه للبيع .

ذهبت الأم الى بيت العم اذن فى المساء ، ودار الحديث فى هذا  
الشأن بينما كانت زوجة العم ترضع وليدها الأخير . وأعربت الأم  
أخيرا عن عرضها من الزيادة وقالت :

— فهل تعرفين يا اختى فتاة فى تلك القرية التى كنت بها قبل  
زواجك ؟ انى أريد فتاة مثلك تماما . سمحة الخلق ، سريعة الحمل ،  
قادرة على العمل . ولم يزل فى امكانى أن أدبر شئون البيت أعواما  
أخرى كثيرة ، وإذا لم تكن ماهرة فى هذه الشئون ففى وسعى أن  
أحتمل هذا .

فلما سمعت زوجة العم هذا الكلام ضحكت عاليا وهتفت وهى  
تنظر الى زوجها :

— لا أعلم إذا كان ابنك يا اختى يعد زوجة مثلى نعمة أو نقمة ؟ .  
وضحكت الزوجة ثانية وقالت :

— فى وسعى يا اختى أن أذهب الى هناك وأبحث فى تلك القرية  
زهاء المائتين من العائلات ، ولا ريب أن فى أحداها فتاة صالحة  
للزواج .



وهكذا جعلت المراتان تتحدثان في هذا الشأن وقررت الأم بجلاء  
انها لا تحتمل تكاليف كثيرة واستطردت قائلة :

— انا أعلم تماما انى لا أطمع فى فتاة كاملة من كافة النواحي .  
لاننى فقيرة وابنى لا يملك سوى رقعة صغيرة من الأرض ونحن مضطرون  
لاستئجار أكثر مما نملك .

وفى اليوم التالى لبست زوجة العم ثيابا نظيفة وحملت طفلها  
الرضيع واصطحبت معها اثنتين من ابنائها الصغار لكى يراها أهلهما  
واثنتين أكبر منهما لمساعدتها فى العناية بالصغيرين . واستأجرت عربية  
من ذات العجلة الواحدة والذراعين لحمل الأولاد جميعا وامتطت هى  
حمار زوجها الأشهب الذى استغنى عنه فى الوقت الحالى بعد انتهاء  
موسم الحصاد . وذهب الجميع على هذه الحال وغابوا أياما . ولما  
عادوا أخيرا كانت جعبة الزوجة حافلة بأخبار الفتيات اللاتى رآتهن ،  
وقالت الأم التى سارعت للوقوف على ابنائها عقب علمها بعودتها :  
— انى رأيت الفتيات كثيرات فى القرية فنحن لا نقتلن  
هناك كما يفعل الناس فى بعض البلدان عند مولد البنات . ونحن  
نتركهن يكرن مهملا كان عددهن عند الأم الواحدة ، ولذلك كانت القرية  
مكتظة بهن .

وقد رأيت بعينى يا اختى اثنتى عشرة فتاة أعرفهن . وهن جميعا  
مكتملات النمو ذوات لحم موفور ولون طبعى . وكل واحدة منهن  
تليق لواحد من ابنائى . لكنى كنت أعلم أن المطلوب واحدة فقط ،  
فضيقت عينى وجعلت أنظر الى هذه والى تلك حتى وقع اختيارى  
على ثلاث . وأخذت استعرض هؤلاء الثلاث فرأيت اخداهن  
تسعل والثانية تشكو الما فى عينيها ، وأما الثالثة فكانت أوفرهن  
كمالا . وهى فتاة بارعة حريصة فى أقوالها وأفعالها وقد قيل انها  
أسرع خياطة فى البلدة . وهى تصنع ملابسها وملابس أهلها كما  
تصنع ملابس غيرهم وتجننى من ذلك بعض النقود . وهى أكبر قليلا  
من ابنك لأنها كانت مخطوبة من قبل وقد مات خطيبها قبل أوانه  
والا لسه كانت الآن فى عداد المتزوجات لكن هذا ليس مما يؤخذ  
عليها ، فان والدها متلهف لتزويجها على وجه من الوجوه ولئن يطلب  
فيها مالا كثيرا . وربما لم تكن وافرة الملاحاة كغيرها . وهى فى الواقع  
شاحبة اللون الى حد بسبب انهماكها فى الخياطة . لكنها سليمة  
العينين .

فقالت الأم بسرعة :

— عندنا فى البيت من العيون المريضة ما يكفى . كما ان نظرى لم يعد كما كان فى الماضى . ونحن فى حاجة الى فتاة تخط وتحب الخياطة . واذا كانت لا تكبر ابنى بأكثر من خمسة أعوام ففيها الكفاية . وهكذا تم الاتفاق على هذه الفتاة . وذهبت الأم الى عراف فى البلدة فجعلت تضاهى عنده أيام الشهر الذى ولد فيه العروسان ، وموقع السنة وساعة المولد . فاذا هى جميعا تحمل طابع القبول والتوفيق . فاما الشاب فقد ولد تحت برج الحصان . واما الفتاة فتحت برج القط ، وكلاهما لا يلتهم صاحبه . ولذلك تنبأ العراف بالوفاق فى الزواج استنادا الى هذه البيانات .

ولما تبين ان كل شئ يجرى مجراه الطبيعى ثم تبادل الهدايا المألوفة فى مثل هذا المقام .

وذهبت الأم الى كنزها المخبوء فأخرجت منه بعض العملة الفضية والنحاسية واشترت اقمشة قطنية جيدة لصنع ثوبين للعروس . وقد أرادت ان تقوم بصنع الثوبين امرأة سعيدة الطالع موفقة فى زوجها وابنائها كما جرت العادة . ومن فى القرية اكثر توفيقا فى هذا الشأن غير زوجة العم ؟ ولذلك حملت الأم القماش اليها قائلة :

— ضعى يدك فى هذا القماش يا أختى حتى يمتد حظك الى زوجة ابنى .

فقامت زوجة العم بما طلب منها . وجعلت كلا الثوبين رجا ففاضوا حول البطن حتى اذا حملت الفتاة لبستهما فى يسر وسهولة ولم يطرهما جانبا .

وانفقت الأم نقودا أخرى واستأجرت مقعد الزفاف الأحمر ، والتاج والقرط المصنوعين من اللآلىء الزائفة والسرراويل الحمراء التى يتحتم على العروس ارتداؤها فى هذه الجهات . ثم حدد يوم الزفاف ، ومضت الأيام تباعا . وأخيرا حل هذا اليوم المنشود ، وكان يوما باردا من أيام الشتاء .

بدا هذا اليوم غريبا فى نظر الأم التى كان عليها ان تستقبل فى بيتها امرأة شابة جديدة وقد ظلت فيه عهدا طويلا صاحبة المقام الأول والحظوة التامة .

وحين وقفت لدى الباب تنتظر العروس وهى مرتدية افخر ثيابها ، ورات مقعد الزفاف الأحمر يضم بين جنبيه العروس الشابة ، بدا لها انه لم يكد يمضى سوى عهد قصير منذ أن جاءت هى نفسها فى هذا المقعد . وقد وقفت العجوز المتوفاة حيث هى اليوم واقفة . ووقف

زوجها حيث يحتل ابنها الآن مكانه . ولم تكن الأم تستعرض في خيالها أيام زوجها الماضية الا لما . والحق انه كان يبدو لها في عداد الموتى . لكن أعجب العجب ان قد ساورها الآن حنين الى هذا الرجل حيث وقف مكانها . وما كان هذا الحنين يمت الى الجسد بأوهى صلة . فقد مات مثل هذا الحنين وتلاشى منذ عهد طويل . ولكن كان حنيننا من لون آخر - لاكمال ما تحسه من نقص في شيخوختها ، بعد ان شعرت بالوحدة والانفراد .

ونظرت الى ابنها نظرة لا عهد لها بها ، فإذا هو لم يعد ابنا لها وحدها بل كان زوجها لامرأة أخرى ، وقد وقف مكانه شديد السكون منكس الرأس متصلب الأعضاء في هذا الرجاء الأسود الجديد الذي صنعه له ، يلبس حذاء في قدميه اللتين كانتا أبدا عاريتين . وقد بدا لها بعيدا عن الانفعال او خيل اليها انه يبدو كذلك ، حتى رأت يديه ترتجفان في كم ردائه الأسود . فتنهدت ثانية . وتذكرت زوجها للمرة الثانية وذكرت كيف اطلت عليه من فرجة ستار مقعدها فوثب قلبها فرحا حينما رآته وسيم المحيا تستريح العين اينما نظرت اليه . أجل . كان زوجها أكثر وسامة وصباحة مما يبدو الآن ابنها الأكبر ، وبدا لها الآن انه كان أجمل رجل رآته في حياتها . على أن طليعة موكب الزفاف اهلت قبل أن تمضي الأم في تأملاتها المحزنة الى أبعد من هذا الحد . فجاءت أولا فاكهة الزفاف يتبعها الديك الذي كانت الأم أرسلته الى بيت العروس فردوه مع دجاجة قرنوها اليه كما تقضى بذلك التقاليد . ثم اقبل المقعد بعد هذه الأشياء اليسيرة واستقر أمام الباب . وتقدمت زوجة العم والأرملة الثرثرة وغيرهما من نساء القرية المكتهلات واخذن بيد العروس محاولات اخراجها من المقعد . فتمنعت وتابت أول الأمر . ثم خرجت أخيرا ولكن في نفور شديد . وقد غضت بصرها ولم تتطلع بعينيها مرة واحدة . وعند ذلك انسحبت الأم الى دار العم عملا بالعادة المتبعة التي تحظر على زوجة الابن أن ترى حماتها في سر وسهولة والا استخفت بأمرها فيما بعد ولم ترهب جانبها . وأمضت الأم نهارها كاملا في بيت العم .

على ان الأم وقفت قرب الباب تنصت الى ما يقسوله الناس عن الزوجة الجديدة . فسمعت إحدى النساء تقول : « هي فتاة طيبة مستقيمة » . وقالت أخرى : « يقال انها تجيد الخياطة ، واذا صح انها صنعت الحذاء الذي تلبسه فان لها أصابع ثمينة » .

وذهبت نساء الى العروس فأخذن يتحسسن ثوب الزفاف الاحمر  
ورفعن الرداء الخارجى لفحص ما تحته من الملابس الداخلية ، قالفينها  
جميعا متقنة الصنع ووجدن الأزرار صلبة مصنوعة بدقة من قماش  
مجدول . وأسرعن الى الأم فنقلن اليها ما رأين وقلن لها :  
— هي فتاة طيبة قديرة ومظهرها يدل على تمام الاستقامة .  
لكن بعض الرجال تناول العروس بالنقد الجاف وقال قائل منهم :  
— هي شديدة النحول والشحوب لا أسيفها اذا كانت لى .  
فرد عليه آخر قائلا :

— نعم . لكن هذا النحول يعالج فى ظرف شهر قلائل يا أخى .  
وليس كالرجل فى قدرته على نفخ الفتاة .  
وبينما كانت هذه الأحاديث الطروبة المكشوفة تدور ، تقدمت  
العروس مترددة متناقلة الى بيتها الجديد . وهكذا تمت مراسم  
الزفاف .

ثم اضطرت الأم لاخلاء الفراش الذى نامت فوقه أعواما طويلة .  
وجاءت زوجة الابن ليلا لاعداد فراش الحماة كما تقضى بذلك التقاليد  
فبسطت خلف الستائر تلك المرتبة التى كانت المعجوز المتوفاة تنام  
فوقها من قبل ، وكان ينام فوقها بعد ذلك الابن الأكبر . ووضعت مرتبة  
أخرى بجانب هذه لنوم الفتاة العمياء . وترك للابن الأصغر أن ينام  
فى المطبخ اذا عن له أن ينام فى البيت اطلاقا . أما الفراش الأصلى  
فقد جعل الآن لنوم الابن الأكبر مع زوجته الجديدة .

ولم يكن يسيرا على نفس الأم أن تتخلى للزوجين الحديثين عن المكان  
الذى كان لها ولزوجها من قبل . وقد جعلها هذا التطور تبدو هرمة  
فى عيني نفسها كلما آوت الى فراش المعجوز الملائمة . وكانت فى النهار  
تتشاغل وتصدر الأوامر وتصلح هذا وتعديل ذاك ، فتبدو فى حالتها  
العادية . أما فى الليل فكانت عجوزا فانية . وطالما كانت تستيقظ  
ليلا فتتكر نفسها ولا تكاد تصدق انها هى التى ترقد فوق المرتبة  
وان الزوجين يحتلان الفراش الكبير حقا . وكانت تناجى نفسها وقد  
استحوذ عليها الدهول بهذه الكلمات :

— أحسب ان تلك المعجوزاتى كانت اما حينما جئت الى هذا البيت  
قد أحست احساسى وساورها شعورى الحالى عندما اقتحمت بيتها  
عروسا ونحيتها عن فراشها واحتلته بدورى مع ابنها . والآن ها هى  
ذى أخرى ترقد فى الفراش مع ابنى .

عجبت الأم أشد العجب من هذه العجلة الخفية التى تدور الى



ما لا نهاية . هذه السلسلة المتصلة الحلقات التي لا يدرك آخرها ، حتى لقد بهرها التفكير في هذا الشأن . واذهل حواسها ، مذ كانت لا تتكلف التفكير فيما يعرض أمام عينيها ، وإنما تتقبل كل ما تراه بالتسليم والامتنال . لكنها تضاءلت في عيني نفسها منذ هذا اليوم . ومع أنها كانت بالاسم كبرى نساء البيت وأولاهن وأجدرهن بالسيادة والتصدر فإنها لم تبد كذلك في عينيها .

ثم جعلت الأم تراقب زوجة ابنها . فألفتها مجدة غيرة على أداء واجباتها ، وكانت تقوم بواجب التحية لحمايتها فتحنى أمامها كل يوم حتى تبرمت الأم وأمرتها أن تكف عن هذه التحية ، لكن الأم لم تستطع أن تهتدي إلى نقيصه في خلق الفتاة أو في تصرفاتها . ومن ثم كان هذا الكمال نقيصه في ذاته . وغمفت الأم قائلة :

— حسنا . . لا شك أن بها عيبا خفيا لا يبدو لي فورا .  
فإن زوجة الابن لم تكشف عن دخيلتها مرة واحدة . إذ كانت موفورة النشاط سريعة في اتمام واجباتها . وإذا أتمت كل شيء جلست تخطط شيئا لزوجها . لكنها كانت تؤدي أعمالها بطريقتها الخاصة الدالة على الحرص والتدقيق .

والواقع أنه ليس في الدنيا امرأتان يمكن أن تقسوما بعمل واحد بطريقة متشابهة . وقد غابت هذه الحقيقة عن ذهن الأم وكانت ترى أن جميع النساء يفعلن الشيء كما تفعله . لكن هذه الزوجة كانت تمتاز بطابعها الخاص في القيام بكافة الأعمال . وكانت إذا تولت طهي الأرز جعلت فيه ماء كثيرا ، أو هكذا كان يخيل للأم فيجىء الأرز أكثر رخاوة مما ألفت الأم أو مما تحب أن يكون . وقد نفضت هذا الرأي لزوجة الابن ، لكن هذه أطبقت شفيتها الشاحبتين وقالت لها :  
— لكنى أصنعه دائما هكذا .

ولم تشأ أن تغير هذه الطريقة .  
وسرت هذه القاعدة إلى كافة الشؤون المنزلية الأخرى . فقد جعلت زوجة الابن تتناول هذا الشيء وذاك بالتغيير والتبديل وفاقا لذوقها ، ولم تلجأ في هذا إلى العجلة والتسرع والنزق ، بل كانت دائماً في أعمالها مثال التأنى والحرص والأخذ بقاعدة التدرج . وبهذا لم تهيبء للأم سبيلا للفضب والتحرش .

ثم كانت هناك مسألة أخرى . فإن الزوجة الشابة نفرت من رائحة الدواب في الليل وشكت من ذلك لا إلى الحماة ولكن لزوجها . فعمد الرجل في نفس هذا الشتاء إلى بناء غرفة أخرى ملحقة بالبيت لنقل

الفراش اليها حتى ينام وزوجته وحدهما . وكانت الأم تنظر الى هذه التطورات الجديدة بعين الدهشة والعجب .

وقد قررت الأم لفتاتها العمياء اول الأمر انها لن تفضب من زوجة ابنها . والواقع انه لم يكن يثير لها أن تبدى هذا الغضب بسرعة فان الزوجة الشابّة كانت تتقن أعمالها وتؤديها بحرص وتدقيق وكان يتعذر على الأم أن تقول لها انك اخطأت في هذا أو لم تتقنى ذلك . لكن من الأمور ما كانت الأم تمقته أشد المقت كطهى الأرز رخوا طريا ، وجعلت تكرر الشكوى من هذا الأمر ولم تتمسالك أخيرا ان رددت شكواها عاليا في هذا الشأن اذ قالت :

— انا لا أشعر بالشبع والتفسيذية بمثل هذا الأرز . لا يوجد ما أمضغه بأسناني من هذه المادة المائية . وهى تقر ببطنى كالريح ولا تستقر بها كما يستقر الطعام الثابت الجيد . ولما رأت أن زوجة ابنها لم تعر هذه الشكوى التفاتا ذهبت خلصة ذات يوم الى ابنها فى الحقل وقالت له :

— يا بنى . لم لا تأمرها أن تطهو الأرز جافا يابسا ؟ انى كنت أعرف أنك تحبه هكذا .

فكف الابن عن العمل واستند الى فأسه قليلا ثم قال بلهجته الهادئة :

— انى أحبه كما تصنعه وتجيد صنعه .

فما كادت الأم تسمع هذا الجواب حتى تحرك الغضب فى صدرها وقالت :

— أنت لم تكن تحبه هكذا . ومعنى هذا أنك تنضم اليها ضدى . من العار أن تحبها هذا الحب وتقاوم أمك .

فتورد وجه الشاب توردا شديدا وقال ببساطة :

— نعم انى أحبها كثيرا .

واستأنف العمل بمحراثه .

ومنذ هذا اليوم أدركت الأم انها صارا سادة البيت . ولم تختلف طباع الشاب عن رقتها المألوفة وكان يجيد القيام بالعمل ويستحوذ على النقود فى يده . وصحيح انه لم ينفق هذه النقود ولم تمسسها زوجته ، فقد كان كلاهما من المستمسكين بأسباب الاقتصاد . لكنهما كانا رجلا وزوجته والبيت بينهما والأرض أرضهما ، ولم تعد الأم فى نظرهما سوى امرأة عجوز .

وصحيح كذلك أن الأم اذا تكلمت فى مسائل التربة أو البذور أو

شئون العمل الزراعى الذى كانت تعرفه تماما مذ كانت مستقلة به وحدها - كان الزوجان يتركأنها تتكلم ، حتى اذا فرغت من الكلام كانت كأن لم تتكلم ، وراحا يقومان بمشروعاتهما الخاصة ويؤديان كل شىء على الوجه الذى يحلو لهما . وبدا للأم انها لم تعد شيئا مذكورا وان خبرنها لم تعد ذات قيمة فى البيت الذى كان بيتها .

كان هذا أشد من أن يستطيع انسان احتماله . ولما تم تشييد الغرفة الجديدة وانتقل اليها الزوجان غمضت الأم قائمة لفتاتها العمياء التى كانت ترقد بجوارها :

- أنا لم أر فى حياتى مثل هذه المفالة فى الرقة . وكان رائحة الدواب الطيبة هى سم مميت . احلف انهما جعللا هذه الغرفة ليتيسر لهما البعد عنا وتدبير خططهما دون أن نسمعهما . انهما لا يفضيان الى شىء بتاتا . ليست المسألة مسألة دواب . ولكن الحقيقة ان أخاك يحبها حبا مخجلا . نعم هما لا يهتمان بك ولا بأخيك الصغير ، بل لا يهتمان بى أيضا .

ولما لم تجب الفتاة قالت لها الأم :

- ألا ترين هذا مثلى يا ابنتى ؟ . الست على حق ؟ .

فترددت الفتاة قليلا ثم صدر صوتها من خلال الظلام بهذه الجملة :

- يا أمى عندى كلام أريد أن أقوله لك ، ولكنى لا أود أن أقول لكىلا أحزنك .

فهتفت الأم :

- تكلمى يا بنت . انى تعودت الحزن .

فقالت الفتاة فى صوت خافت :

- ماذا تنوين أن تفعل بى يا أمى وأنا فتاة عمياء ؟ .

كانت الأم ترى أن من الممكن أن تقيم هذه الفتاة معها فى هذا البيت مدة أخرى . وقالت فى دهشة :

- ما هو قصدك يا ابنتى ؟ .

فأجابت الفتاة :

- أنا لا أقصد أن أقول أن زوجة أخى ليست طيبة . فهى ليست قاسية . لكنى أظن أنها لا تحلم بأنك لن تزوجينى قريبا . وقد سمعتها تسأل أخى الأصغر عن امكان خطوبتى . ولما قرر لها انى لست مخطوبة قالت له بدهشة : « فتاة كبيرة لا حماة لها ! » .  
فقالت الأم :

- لسكنك عمياء يا ابنتى . وليس من السهولة تزويج فتاة عمياء .  
فقلت الفتاة بركة :

- اعرف هذا .

ثم استطردت بعد قليل فى انفعال :

- لكنك تعرفين يا أمى ان فى قدرتى أن أقوم بأعمال كثيرة . وقد يوجد رجل بأئس ، كآرمل مسكين أو سواه ، يرضى بما أستطيع أن أؤديه دون أن يدفع لى مهرا . فإذا تيسر هذا كنت فى بيتى وتسنى لى إذا ذهبت أنت أن أجد من أهتم به . أنا لا أظن أن أختى تريدنى يا أمى .

لكن الأم أجابت فى لهجة عنيفة :

- لن أدعك تذهبين لتعمير بيت رجل على هذا الوجه يا طفلة . نحن فقراء كما أعرف . لكن فى وسعنا أن نطعمك . ان أرامل الرجال يا ابنتى هم أقسى وأغلظ الأزواج . فلتنامى اذن ولا تفكرى فى هذا بعد . أنا لا أزال موفورة القوة ويمكن أن أعيش مدة طويلة . ولم يكن أخوك قاسيا نحوك أبدا ، حتى وانت طفلة .  
فقلت الفتاة وهى تنهد :

- هو لم يكن متزوجا فى ذلك العهد .

ولزمت الفتاة الصمت بعد هذا كأنما استسلمت للنوم .

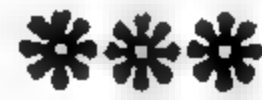
لكن الأم لم تجد سبيلا للنوم رغم أنها كانت فى الليالى السالفة تستغرق فى النوم . وتمددت فى مكانها تقدح ذاكرتها وتستعرض الأيام الماضية يوما يوما لعلها تجد سندا من الحقيقة والواقع يؤيد ما قالت الفتاة . ومع أنها لم تستطع أن تهتدى الى شىء معين فقد بدا لها ان زوجة الابن ليست بارة ولا رفيقة . أجل أنها لم تكن بارة كما يجب نحو الابن الأصغر ، وهى أقل برا بالفتاة العمياء . وهكذا توفرت للأم مادة جديدة للألم والعذاب .

## الفصل الثانى عشر

كان غضب الأم شديدا عندما وجدت ابنها الأكبر يستحثها على تزويج اخته العمياء لأنه لا يستطيع اطعامها طول حياته . وقد اتهمته بأن هذه الفكرة هى من تحريض زوجته ورفضت بعناد واصرار . ثم تجرات زوجة الابن وأصبحت تشكو علنا وتعرض بالابن الأصغر



الكسول العاقل والفتاة العمياء التي لم تتزوج. وكان الجيران يندخون ويقولون ان هناك عائلات فقيرة لها ابن لا أمل له في الزواج ويمكن أن تقبل فتاة عمياء فقيرة زوجة له اذا اخذت العروس بلا مقابل . وبتأثير الحاح الجيران رضخت الأم وانتهى طول البحث الى تزويج الفتاة من ابن لعائلة فقيرة بين التلال الشمالية في ارض قاحلة ، فقد بدا للأم اخيرا انها قد لا تعيش طويلا ولا بد لها من الاطمئنان على مصير فئاتها العمياء ، كما ان مرض الأم عجل بتنفيذ هذه الخطوة التي زكاها الجميع . وعندما حل يوم رحيل الفتاة الى بيت الزوجية النائي بين التلال ، جاء رجل عجوز فوق حمار اعجف لمصاحبة الفتاة الى مقر ابن أخيه العريس بين التلال تنفيذا لما تم الاتفاق عليه بين الوسطاء . وقد توجست الأم شرا من هيئة العجوز وكادت تمنع لولا الحاح الابن الأكبر وزوجته والجيران . وهكذا غلبت الأم على أمرها وركبت فئاتها الحمار الأعجف مرتدية ما صنع لها من ملابس جديدة وودعتها الأم وهي تشدد من عزمها وتعدّها بزيارة قريبة في مقرها الجديد ، وعندما توارت الفتاة خلف التلال استسلمت الأم للدموع والأحزان .



لم يكن للأم الا أن تتشاغل على وجه من الوجوه تسكيناً لمخاوفها وسداً للفراغ الذي خلفه ذهاب الفتاة العمياء . وقد بدا لها البيت ساكناً والشارع مقفراً حيث لم تعد تسمع رنين الناقوس الصغير الذي كانت الفتاة تدقه كلما خرجت من البيت . فلم تقو الأم على الصبر والاحتمال وذهبت الى الحقول للعمل فيها على غير رغبة ابنها ، ولما رآها تمسك الفأس قال لها :

— لا حاجة بك الى العمل يا أمي . يخجلني ان اراك تعملين في الحقول ويراك الناس هكذا وانت في سن الشيخوخة . لكنها قالت له غاضبة :

— لست عجوزا كما تتصور . دمنى اشتغل حتى اروح عن نفسي . الا ترى كيف يجب ان اروح عن نفسي ؟ .

فأجاب الشاب في عناده المألوف :

— يبدو لي انك تحزنين بلا موجب للحزن . يا أمي . ولا حاجة بك الى توقع مكروه قد لا يحدث أبدا .

لكن الأم قالت في حزن لازمها هذه الأيام ملازمة الظل :

— انت لا تفهم . انت صغير . لا تفهم شيئا بتاتا .

فتطلع الشاب الى امه فى ذهول دون أن يدرك مغزى كلامها .  
لكنها لم تنبس بكلمة أخرى . بل حملت فأسا وخرجت الى الحقول  
فى صمت وسكون .

على أنها لم تعد تقوى على العمل الشاق بعد . فقد كان العرق  
يغمرها اذا فعلت . واذا هبت الريح ولو ساخنة بعثت قشعريرة  
فى جسدها . وسرعان ما تجدد الداء وعادها مرض القىء القديم .  
فلم يكن يد اذن من أن تحتمل هذا الخمول ، ولم تسع الى العمل  
فى الحقول بعد شفائها . بل كانت تجلس فى مدخل الدار فى كسل  
واستسلام . ولم تكن بحاجة الى القيام بأى عمل فى داخل البيت  
اذ كانت زوجة الابن لا تترك صغيرة ولا كبيرة الا قامت بها على خير  
الوجوه .

وقد رأت الأم ان لا عيب فى هذه الزوجة سوى انها لا تحمل  
ولا تلد . وكانت الأم وهى جالسة فى مكانها بلا عمل تدير عينيها  
قلقة فى أرجاء الحوش حيث ألقت من قبل ان تنظر أطفالها الصغار  
يتعشرون فى لعبهم . وكانت طوال يومها تستعرض الأيام الداهية .  
وتذكرت كيف جلست مرة فى هذا المكان تفيض صحة وشبابا وقد  
وقف زوجها عن كذب وراح أطفالها يرتعون ويمرحون وهى الزوجة  
الشابة وغيرها الأم العجوز . ثم ذهب زوجها ولم تسمع عنه شيئا .  
فحزنت فى نفسها هذه الذكرى وأعرضت عنها . وعاد بها الفكر الى  
الواقع فبدت الدنيا فى عينيها خواء أو كالخواء . فقد كان ابنها  
الأكبر يقضى يومه فى الحقول أو يتفقد المحصول مع وكيل المالك ،  
وهو رجل عجوز مهدم قيل لهم أنه يمت بصلة القرابة الى المالك ،  
ولم يقع نظرها عليه مرة واحدة . وقد ذهبت ابنتها العمياء . وكان  
ابنها الأصغر يختلف كثيرا الى البلدة ولا يعود الى البيت الا لاما .

ومهما يكن من شيء فقد بقى لها هذا الابن الأصغر . وكانت تفكر  
فيه كثيرا وتؤثره على سائر اولادها بمزيد الحب والاعزاز . وكان  
يبدد وحشتها كلما جاء بين حين وآخر ويخلق فى سماء حياتها جوا  
من البهجة والانتعاش . واذا رآه نهضت من عزلتها باسمه وراحت  
تملا العين من محاسنه وتجتلى طلعه البهية . فهو أجمل اولادها  
وأقربهم شبا لآبيه . وكان يجيء فى هذه الأيام مطمئنا آمنا لا يخاف  
أخاه كما يخافه من قبل ، اذ كان يقوم بعمل فى البلدة يستمد منه  
بعض الكسب .

على انه لم يقل مرة ما هو هذا العمل ولم يشر اليه بشيء من

التجديد ، ولم يعرف عن هذا العمل الا انه كان يهيء له مالا كثيرا  
أحيانا وأحيانا أخرى كانت جيوبه تنضب منه ، وان لم يظهر هذا  
المال مرة لأمه ولكنه كان يبدو في الملابس الطيبة التي يرتديها ، على  
انه كانت تهزه الأريحية أحيانا فيدس في يد أمه خلسة قطعة من  
النقود ويقول لها :

— خذى هذه يا أمى وانفقيها على نفسك .

فكانت الأم تتقبلها منه وتثنى عليه وتبدي له حبها اذ كان الابن  
الأكبر لا يقدم لها مالا على الإطلاق ، ومنذ آلت اليه السيادة في  
البيت استبقى النقود كلها في يده ولم يتخل عن شيء منها . وقد  
كانت في الحق تنال كفايتها من الطعام وهو لذتها الوحيدة الباقية ،  
وكانت تتمتع باللبس الطيب والخدمة الصادقة ، بل كان كفنها قد  
هيء لها وان لم تفكر بعد في الموت وكانت ترى انها تستطيع ان  
تعيش طويلا ، وكانت تنال كل ما تطلبه وتشتهيه . فمن قصبة لتدخين  
وقدر من الطباق الجيد ، الى قدح من النبيذ الأصفر الذي يقدم  
لها ساخنا ، لكن ابنها وزوجته لم يخطر لهما يوما ان يدسا في يدها  
قطعة من النقود ويقولوا لها : « خذى هذه لانفاقها في أى شيء تحبين » .  
وكانت تعلم انها اذا طلبت مثل هذه القطعة لتبادل الزوجان النظر  
وقال أحدهما :

— لكن أى شيء تشتترين بها ؟ السنا نقدم لك كل شيء .

فلما أعطاهما الابن الأصفر قطعة النقود سرت بها أكثر من سرورها  
بكل ما فعله الزوجان نحوها ، وأبقتها في صدرها حتى جاء الليل  
فنهضت الى الحفرة وأخفتها في بطنها .

لكن هذا الابن الأصفر لم يكن بحيث تراه دائما . وكانت الأم  
وزوجة ابنها تجلسان وحدهما في الحوش فيبدو للأولى ان كل  
ما حولها خواء ووحشة وفراغ . وكانت تجلس مكانها ترسل الزفرات  
وتدخن القصبة وتفكر في حياتها-الماضية او في بعض نواحيها على  
وجه التجديد . فقد كان يشوبها ذلك الحسادث الذي لا تستطيب  
التفكير فيه . واذا فكرت فيه أعاد الى ذهنها شأن فتاتها العمياء ولم  
تستطع ان تحزم بأن الحادث ومصاب الفتاة غير مقترنين في تقدير  
الآلهة وحسابها . وكان يعن لها أحيانا ان تقصد الى أحد المعابد  
التماسا لبعض السلوى والعزاء وان كانت لا تدري كنههما . لكن  
الخطيئة-الماضية كانت تقف أبدا سدا أمامها ، وكان يبدو لها ان  
أوان الصفح والففران قد انقضى وفات ، فتدع الأمور تجري في

مجراها وتتنهد وتتحدث أحيانا عن ابنتها العمياء في حزن وكآبة :  
ولما تكلمت يوما في هذا الشأن قالت زوجة الابن بحدة :  
- هي بخير ولا شك . ومن حسن الحظ انكم وجدتم من يقبلها  
زوجة لولده .

فقالت الأم بحرارة :

- ان ابنتي فتاة ماهرة . وأنا أعرف انك لا تؤمنين بقدرتها  
ومهارتها . لكنها كانت تقوم بأعمال كثيرة قبل مجيئك ، فلما جئت  
ولم تتركى لها ان تعمل شيئا فأتك ان تعرفي مبلغ مهارتها .  
فقالت زوجة الابن وهي تدنى القماش الذي تخطه من عينيها  
لكي تحكم خياطته :

- نعم . ربما كان هذا . لكنى تعودت مواصلة العمل الذي أقوم  
به حتى أتمه . أما الفتاة العمياء فانها لا تقدر على القيام بعمل  
جدي .

فتنهدت الأم ثانية وادارت نظرها في الحوش الخاوي وقالت :  
- ليتك كنت تحملين طفلا يا ابنتي . لأبد لكل بيت من طفل أو  
طفلين أو ثلاثة . وأنا لم أعود بقاء البيت خاويا هكذا . ويا ليت ولدى  
كان يتزوج اذا كتب عليك الا تعقبى اولادا . لكن لن يفعل هذا  
لسبب ما .

كان هذا العامل مصدر حزن الشابة . فقد مضى على زواجها  
خمس سنوات دون ان تحمل أو تظهر عليها دلائل الحمل . وقد  
ذهبت الى أحد المعابد للصلاة والدعاء وفعلت كل ما تستطيع  
وتعرف . غير انها بقيت عاقرا ولم تظهر لها بارقة أمل . غير انها  
كانت شديدة الكبرياء لا ترضى ان تكشف عن مبلغ حزنها في هذا  
الشأن . وقد أجابت الأم في هدوء :

- سيكون لى اولاد في الوقت المناسب ولا شك .

فقالت الأم في نزق :

- نعم . لكن هذا هو الأوان . أنا لم أسمع بامرأة متزوجة في  
قربتنا لا اولاد لها . ان رجالنا يغدون آباء حالما يتزوجون ، ونساءنا  
دائما ذوات خصب . بذرة صالحة . وتربة صالحة . لأبد من وجود  
مرض خفى في جسمك يتولد عنه هذا العقم الغريب . انى صنعت  
لك ملابسك رحية فضفاضة . لكن ما الفائدة ؟ .

وراحت الأم تشكو لزوجة العم وتقول لها همسا :

- أنا أعرف تماما مصدر الخل . ان زوجة ابني مجردة من



الحرارة . هي مخلوقة شاحبة صفراء . وهي لا تختلف في يوم عن يوم ولا يعلوها أبدا ذلك التوقد الذي يصدر من داخل الجسم .  
فأومات زوجة العم برأسها إيجابا وضحكت وقالت :  
- صحيح أن أمثال هؤلاء النساء الصفراوات الباردات لا يحملن بسرعة .

ثم ضحكت ضحكة أخرى ذات مغزى واستطردت :  
- لكن ليست كل امرأة مملوءة حرارة يا اختي كمسا كنت في شبابتك . وأنت تعرفين تماما أن هذا غير محمود دائما في المرأة .  
فلما سمعت الأم هذا التعريض قالت بسرعة :  
- آه . نعم . أعرف هذا .

ولزمت الصمت بعض الوقت . ثم قالت مكرهة :  
- صحيح أنها امرأة حريصة شديدة النظافة . وهي تفتسل بين وقت وآخر وربما كان هذا هو سبب عقمها . فان الإفراط في الاغتسال غير محمود دائما .

لكنها لم تتكلم في حرارة النساء بعد هذه المناسبة . فقد خافت أن تثير زوجة العم موضوع الخطيئة التي ارتكبتها في أعماق الماضي ، وأن كانت زوجة العم من أطيب النساء ولم تشر مرة إلى هذا الموضوع بشيء طوال تلك السنوات . ولولا هذان العاملان اللذان كانا مصدر حزنها وانقباضها - أي عمى الفتاة وعقم زوجة الابن - لنسيت الأم هذه الخطيئة نسيانا تاما بعد أن باعد الزمن بينها وبين مهود الجسد والشباب . أجل . كان يمكن أن تنسى هذه الخطيئة لولا اشفاقها من أن يكون الحزن المقترن بهذين العاملين هو عقاب الخطيئة جزاؤها .

لكن هكذا قدر أن تكون حياتها . فابنتها عمياء وقد ذهبت عنها . وزوجة ابنها عاقر لا ولد لها . . وليس حولها سوى الدواب والكلب . وحتى هذه الحيوانات لم تجسر على أطعامها .  
ولم يبق لها عزاء في هذه الأيام سوى أن ولديها كفا عن الاختصام والشجار . فقد قنع الابن الأكبر بما نال من سيادة في البيت . واستقر الابن الأصغر خارج الدار في مكان ما - وقصارى ما كان يفعل الشاب إذا جاء أخوة ثم عاد من حيث جاء أن يقول في شيء من الازدراء .

- ترى من أين يستمد أخى هذه الملابس الطيبة التي يرتديها وما هو هذا العمل الذي يؤديه ؟ لا أستطيع ارتداء ملابس كهذه

الملابس وأنا الذى اكد واقوم بأشق الأعمال . ويبدو أنه يحصل على المال من أى طريق . وكل ما أرجسو الا يكون مندمجا فى سلك عصابة من لصوص المدن أو فى شىء من هذا القبيل فيجلب لنا التعب اذا قبض عليه .

فلما سمعت الأم هذا الكلام هبت فى بسالة للدفاع عن ولدها الأصفر كدأبها . وقالت :

— ان أخاك ابن شديد الطيبة . ويجدر بك ان تشنى عليه وتحمد ذهابه وتوفيقه الى عمل خاص يقوم به حتى لا يبقى هنا ويشاركك هذه الأرض .

فقال الشاب ساخرا :

— نعم . . هو يرضى ان يقوم بكل شىء . يبقى بعيدا عن العمل فى الأرض .

أما زوجة الابن فلم تتدخل فى شىء من هذا الحوار . فقد طابت نفسها هذه الأيام اذ بقى البيت لها وحدها ولم يكن يعنىها ما يقوم به الابن الأصفر وما يفعله . وانقطعت شكواها الآن لأنه كان يبتاع ملابسها ويخيطها بعيدا فلا تضطر لصنعها له .

وهكذا كانت الأيام تمضى والزمن يدور . واقبل الربيع وانقضى وجاء الصيف ولم تستطع الأم ان تنسى فئاتها .

وجلست ذات يوم تحصى على أصابعها الأيام التى مضت منذ أن حالت التلال بينها وبين ابنتها . فأحصت بأصابع يديها حوالى اثنتى عشرة مرة ثم ضلت والتبس عليها العد . ولذا قالت فى كآبة :

— لا بد من ذهابى اليها . انى استسلمت للضعف وكان يجب ان اذهب من قبل . ولو كانت فتاة صحيحة لجاءت الآن لاداء الزيارة التى تقوم بها الزوجات لبيوتهن القديمة ، ولسألتها عن حالها ولمست يديها وذراعيها ووجنتيها ورأيت لون وجهها .

وراحت الأم تسرح الطرف فى سفوح التلال المحيطة بها وقد اكتست بتقدم الصيف ثوبا سندسيا وأينعت النباتات فى الحقول وبسقت أعوادها . وراحت تتحامل على جسدها الذى دب اليه الاعياء رغم خمولها الدائم . وناجت نفسها قائلة :

— لا بد من ذهابى فورا لرؤية ابنتى . فقد أصبحوا لا يحتاجون الى فى الحقول وهأنذا اجلس خاملة بلا عمل . سأذهب قبل اشتداد الحرارة حتى لا يصيبنى المرض من جديد . نعم . سأذهب فى الشد اذ لا توجد سحابة واحدة فى هذه السماء الجميلة . هذه السماء الزرقاء .

ولما جاء ابنها الأكبر قالت له :  
 - انتى افكر فى الذهاب غدا لرؤية اختك ، ولمعرفة أحوالها فى البيت الذى تزوجت فيه ، لأنها لا تستطيع ان تجيء الى .  
 فلما سمع الشاب هذا الكلام قال فى لهجة القلق :  
 - لا يمكننى ان اذهب معك يا أمى فى الوقت الحالى . لان عندنا عملا فى الفد . انتظرى حتى يتم الحصاد ويدرس الحب ويكال ، فيتيسر لى بعض الفراغ لرافقتك .  
 لكن الأم لم تستطع ان تنتظر . فقد كانت ذات صلابة وقوة اذا اعتزمت امرا ، وكانت متبرمة من طول قعودها وخمولها . وقالت :  
 - لا سأذهب غدا .

فقال الابن دون ان يفارقه قلقه :

- لكن كيف تذهبين يا أمى ؟

فاجابت :

- سأركب حمار العم اذا أعارنى اياه . ولتكلف انت أحد اولاده بالذهاب واستدعاء أخيك لكى يقود الحمار ويسير بجانبى . وسنكون فى امان اذ لا يوجد لصوص فى هذه الأيام سوى هذا النوع الجديد من لصوص المدن الذى يسمونه « الشيوعيين » .  
 وقد رضى الابن آخر الامر ان ينزل على رايها ، وان لم يدعن لها بسهولة حتى تدخلت زوجته وقالت بهدوء :

- صحيح انى لا أرى خطرا ما اذا رافقها اخوك الأصفر .

وهكذا تركوا الأم تفعل ما يحلو لها . وذهب ابن العم الى البلدة وبحث عن الابن الأصفر حتى وجده وعاد الى الأم قائلا :

- ان ابن عمى وابنك الثانى سيجيثان يا عمتى .

وجعل الفتى يفكر قليلا وهو يدير زر ردائه ثم قال ثانية :

- احلف ان ابن عمى الأصفر يقيم فى مكان سرى غريب يصعب ايجاده . فهو يعيش فى غرفة مستطيلة مملوءة بالفرش . فيها نحو عشرين فراشا وهى كائنة فوق أحد الحوائت . وهى مكتظة بالكتب والأوراق . لكنى سسأله وعلمت منه انه لا يشتغل فى الحانوت . انا لم اكن اعلم يا عمتى ان ابن عمى يستطيع ان يقرأ واذا كان يقرأ هذه الكتب فهو رجل عالم .  
 فقالت الأم فى دهشة :

- هو لا يعرف القراءة . وهو لم يخبرنى ابدا انه يكسب من الكتب . والحقيقة ان هذا شيء شديد الغرابة . ولا بد ان أسأله

فى هذا الشأن .

وفى اليوم التالى بعد ان ركبت الام الحمار وسار بها يشق طريقه فى الوديان انتهزت فرصة انفرادها بولدها وسألته :

— ما هذه الكتب والأوراق التى قال ابن العم انها موجودة فى تلك الغرفة التى تقيمون فيها جميعا ؟ انت لم تخبرنى أبدا بأنك تعرف القراءة أو أنك تعيش من الكتب . أنا لم أرك تقرا كلمة واحدة يا ولدى .

فكف الابن عن اتمام الاغنية التى كان آخذا فى الترنم بها اذ كان رخيم الصوت يحب الغناء ، وأجاب قائلا :

— نعم . انى تعلمت قليلا .

ولما لحت عليه فى السؤال قال لها :

— لا تسألينى الآن يا أمى . فانك ستعرفين كل شىء فى يوم ما ، متى حانت الساعة .

قلقت الأم ولم تتمالك ان هتفت مشفقة :

— أرجو ألا تكون مندمجا فى عصابة شريرة يا ولدى كلكوص أو من شاكلهم . هذا أقرب الى كلام النهابين وقطاع الطرق يا ولدى . لكن الفتى غضب من هذا الكلام وقال :

— انت لا تفهمين شيئا يا أمى . انى اقسمت أن ألزم الكتمان . لكن سيأتى يوم تعرفين فيه كل شىء . نعم . لن أنساك فى ذلك اليوم . لكن أنت وحدك . ولن أقاسم أحدا لم يقاسمنى .

وقد فاه الفتى بهذه الجملة الأخيرة فى صوت مرتفع حتى لقد فهمت الأم انه يعنى أخاه بها . ولذا لزمّت الصمت لحظة خوفا من إثارة غضبه .

لكنها لم تستطع أن تتركه حيث يريد ، وقد جلست فوق ظهر الحمار وتشبّثت بجلده ذى الشعر وجعلت تفكر فى أمر هذا الابن وتخالسه النظر .

رأته يسير أمام الحمار ممسكا بزمامه ، وأنشأ يفنى من جديد اغنية لم تسمع مثلها فى حياتها ، اغنية ملتهبة نارية لم تستطع ان تلم بكلماتها . ورات انه قد آن الأوان لكى يتصل هذا الفتى بالحياة ويندمج فيها . أجل . ويجب ان ترده الى حظيرة البيت والعائلة وتربطه اليهما برباط اشد وثاقا . وعليها ان تزوجه وان تضم زوجته الى البيت . فاذا فعلت كثر تردده على البيت . وربما أقام فيه اقامة دائمة لأجل زوجته . وفى وسعها أن تلتصق له فتاة حسنة



يمكنه أن يعشفها . لأن في وسع زوجه الابن الأكبر ان تقوم بسائر أعمال البيت فيتيسر للأم ان تفتش لابنها الأصغر عن زوجة من طراز آخر .

فلما استعرضت الأم هذه الخواطر طابت نفسها ولم تستطع ان تكتفم ما يجيش في صدرها وقالت له :

— أنت الآن يا ولدى تناهر الحادية والعشرين من عمرك . وقد فكرت في تزويجك قريباً . كيف تجد هذه الفكرة السارة ؟ .

كانت الأم تتوقع ان يبتسم الفتى ويلزم الصمت وهو بين الرضا والحياء . لكنه وقف مكانه واستدار نحوها وقال باصرار :

— كنت انتظر منك مثل هذا الكلام . فهو كل ما تفكر فيه الامهات

ويملا ادمغتهن . ورفاقى يقولون ان هذا هو كل ما يردده آباؤهم .

لكنى لن اتزوج . واذا زوجتني رغم ارادتي ، فلن ترى وجهى ابداً .

ودار في مكانه وجعل يسير بسرعة اكبر فلم تجسر على مبادرته

بالكلام . بل جلست في مكانها مذهولة مرتاعة من غضبه وسكوته

عن الفناء .

غير انها لم تلبث ان نسيت هذا الموضوع بتأثير ما هي مقبلة عليه

فقد اخذ الطريق يضيق شيئاً فشيئاً . وتلاشت سفوح التلال

السندسية وأعقبتها سلسلة من الجبال الصخرية الجرداء الصاعدة في

السماء . واختفت النباتات لانعدام المياه في هذه البقاع المقفرة

المجردة من معالم الحياة . وكان الطريق يمتد متعرجاً صاعداً لا نهاية

له . وبعد الظهر بساعتين تقريباً اشرق فجأة على واد عميق مستدير

بين الجبال قامت فيه قرية صغيرة مربعة يحف بها سور صخري

وتنتشر فيها بعض حقول خضراء . على انه حينما وقفت الأم وابنها

بباب القرية مستفسرين عن المكان الذي يقصدان اليه تقدم منهما

رجل كان واقفاً وأشار بيده عالياً وقال :

— هناك حيث تنتهى الخضرة عند حافة هذا المرتفع البعيد يوجد

بيتان وهذه آخر حدود الأرض المزروعة . ولا يوجد بعدها غير

الصخور والسماء .

وكانت الأم في هذه الأثناء تحقق في دهشة الى هذه الجبال

الصخرية وما حولها من المناطق الزراعية اليسيرة . وقد قضت

حياتها بين الوديان الخصبة التى تفيض بالخير والحياة . ولم تتمالك

ان هتفت حين وقعت عينها على هذا الجذب الموحش :

— انا لا اميل الى مظهر هذا المكان يا ولدى . واخاف ان يكون

مكانا قاسيا لا يصلح لمعيشة اختك . فان كان ذلك فساردها الى بيتنا اذن . نعم . اذا كانت تعاني شظف العيش هنا ففى وسعى ان أمشى وأن نركبها الحمار وليقولوا بعد ذلك ما يقولون . انهم لم يدفعوا مهرا لها . ولن نسألهم شيئا الا ان يعيدوها لنا . لكن الفتى لم يقل شيئا . فقد كان منهوك القوى جوعا اذ انهما لم يبتلعا الا طعام بارد يسير . حملاه معهما . وكان متلهفا للوصول الى بيت اخته حيث قدرا ان يمضيا الليل بين جدرانها . وجعل يجذب عنان الحمار بشدة حتى ضاقت الأم وهمت ان تنتهره وتؤنبه . وفجأة وصلا الى البيت المنشود .

وصلا الى بقعة بين الصخور فيها بيتان رأت الأم عند أحدهما ذلك العجوز المشثوم الذى جاء لأخذ فتاتها . فأدركت ان ابنتها تقيم هنا . ولما رآها الرجل يحدق فيها بعينه وكأنه لا يصدق انها هى . وسرعان ما دخل البيت وخرج منه ثانية يتبعه رجل أسمر نحيل مخيف الشكل وامرأتان وشاب متكاسل . لكنها لم تر ابنتها . ترجلت الأم عن الدابة وذهبت اليهم وهم يحدقون اليها صامتين . فلم تتمالك أن تطلعت خلفها خوفا .

والواقع انها لم تشاهد فى حياتها مثل هذه السجن . فقد كانت كل من المرأتين مشوشة الشعر مغضنة الوجه شديدة السمرة بتأثير حرارة الشمس ، ترتدى ملابس قذرة كل القذارة لم تفصل يوما ما . وكذلك كان شأن الجميع .

وانضم الى هذه الزمرة المخيفة اطفال مرضى شاحبو الوجوه شديدا القذارة خرجوا من البيت الثانى . ووقف الجميع يحدقون صامتين لا يبادرون الأم وابنها بتحية وقد تجردت نظراتهم من كل دلائل الانسانية وكأنهم حيوانات وحشية لا تعقل ولا تبين .

عند ذلك تمزق قلب الأم خوفا وجزعا وركضت الى الامام قائلا :  
- اين ابنتى ؟ اين اخفيتم ابنتى ؟

وأسرعت الأم حتى صسارت بينهم . اما الفتى فقد وقف مكانه مترددا ممسكا بعنان الحمار .

وأخيرا قالت إحدى المرأتين فى لهجة مبهمه تشف عن السخط والتبرم :

- انت جئت فى الوقت المناسب أيتها المرأة الطيبة . فانها ماتت

اليوم .

- ماتت !!

ماهت الأم بهذه الكلمة فى صوت خافت ولم تعقب بشيء . فقد كف قلبها عن الحركة . . . وانقطع تنفسها . واحتبس صوتها .

لكنها اندفعت الى اقرب الكوخين . فاذا فتاتها العمياء ممددة فوق فراش من قش ملقى على الأرض . أجل . . كانت الفتاة ترقد رقدة هادئة وقد فارقتها معالم الحياة . وكانت ترتدى نفس الملابس التى ارتدتها يوم فارقت بيت أمها . لكنها لم تكن نظيفة ولا سليمة . وكانت الغرفة مقفرة الا من كوم من الحشائش البرية وبعض المقاعد الصغيرة الجافية .

هنالك اندفعت الأم وجشت بجانب الفتاة وجعلت تحديق فى وجهها الساكن وعينيها الفائرتين وفمها الصغير وكافة هذه التقاطيع التى تعرفها تمام المعرفة . وفجأة انهمرت دموعها وصاحت باكية وارتمت فوق الفتاة وتناولت يديها وأزاحت كُمها ونظرت الى ذراعيها الصغيرتين ثم حسرت سروالها عن ساقها وجعلت تنظر ان كان بهما آثار رضوض أو ضرب أو أذى من أى لون .

لكنها لم تجد شيئاً . ورائت بشرة الفتاة الرقيقة سائلة من كل سوء وعظامها النحيلة صحيحة وليس بها ما يستوقف النظر . وبدأت لها شاحبة اللون شديدة النحول . لكنها كانت نحيلة أبداً والموت يطبع الوجوه بطابع الشحوب . فانحنت الأم فوقها وجعلت تتشمم فاهما التماساً لرائحة سم . لكنها لم تجد الا رائحة الموت اليسيرة التى يفوح منها الحزن .

على أن الأم لم تستطع أن تؤمن بأن ما نزل بفتاتها هو موت طبيعى مألوف . فانشنت الى أصحاب أثبيت الذين وقفوا بالباب يراقبونها صامتين . وتطلعت اليهم وأجالت عينيها فى وجوههم الوحشية المخيفة التى لا تعرف وجهها واحداً بينها ثم صاحت فيهم من خلال دموعها المنهمرة الغزيرة .

— أنتم قتلتموها . أنا واثقة انكم قتلتموها . فاذا لم يكن هذا فأخبرونى كيف ماتت ابنتى بهذه السرعة ، وقد تركتنى صحيحة الجسم سليمة الأعضاء .

فكشر الرجل المعجوز الذى أحست نحوه بالوقت منذ رآته لأول مرة عن أنيابه وأجابها :

— زنى كلامك أيتها المرأة الطيبة . ليس من اليسير أن تقولى اننا قتلناها . . . و .

لكن المرأة الغاضبة المشوشة الشعر قاطعته صارخة :  
- كيف ماتت ؟ ماتت من برد أصابعها . لأنها شديدة الضعف .  
هذا سبب موتها .

وبصقت المرأة على الأرض ثم استأنفت صياحها :  
- كانت فتاة عديمة النفع . جاهلة لا تعرف شيئا . بل لم تكن  
تستطيع احضار الماء من العين دون أن تتعثر أو تسقط أو تضل الطريق .  
فأرسلت الأم بصرها ورات طريقا حجريا ضيقا ينحدر في سفح  
الجبل الى عين ماء صغيرة . ولم تتمالك أن هتفت موجهة :  
- هل هذا هو الطريق الذي تقصدين ؟  
لكن لم يجب أحد . فهتفت في ألم متزايد :  
- كنتم تضربونها . لا بد انكم كنتم تضربون ابنتي كل يوم .  
لكن المرأة قالت فورا :

- فتشى وانظري أن كان بها أى خدش . ان ابني ضربها مرة  
واحدة لأنها عادت اليه متباطئة . لكنها المرة الوحيدة .  
فتطلعت الأم اليها وقالت بصوت خافت :  
- أين ابنك ؟

فدفعوا لها ذلك الابن . فاذا هو معتوه لا يكاد يعقل .  
فأمالت الأم رأسها فوق جثمان فتاتها الميتة وجعلت تبكي وتنتحب  
في لوحة أى لوحة وفي حرقه وجنون . واشتد بكائها ونحيبها كلما  
فكرت فيما قاسته الفتاة على أيدي هؤلاء الأشقياء . وفيما هي كذلك  
كان الغضب يتجمع ويجيش في صدور الواقفين حولها . ثم أحست  
اخيرا بيد تلمس كتفها ، فرفعت رأسها ورات ابنها الذي انحنى  
فوقها وهمس في أذنها مستحشا قائلا :

- نحن في خطر هنا يا أمي . يجب ألا نبقي هي الآن ميتة يا أمي  
وماذا في وسعنا أن نصنع لها ؟ وهم ينظرون اليها نظرات تنم عن  
الشر . ولا أدري ماذا يفعلون بنا . تعالى معي ولنعد مسرعين الى  
القرية حيث نشترى طعاما يسيرا ثم نستأنف السير الى بيتنا في  
هذه الليلة .

اذ ذاك نهضت الأم مكرهة . على انها حينما نظرت اليهم الفتهم  
واقفين متلاصقين وأنست في ملامحهم ما جعل الخوف يتسلل الى  
قلبها . ولم تسترح الى تهامسهم والى نظراتهم التي كانوا يصوبونها  
اليها والى ابنها الفتى . أجل . يجب أن تفكر في أمر هذا الفتى .  
وليقتضوا عليها ان شاءوا . لكن هناك ابنها .



تحوّلت الأم والقت نظرة ثانية على فتاتها الميتة وسوت ملابسها وبسطت يديها الى جانبيها . ثم سارت الى خارج الكوخ حيث كان الوقت قرب الاصيل .

ولما آنسوا هدوءها وراوها تستعد لامتطاء الدابة قال الرجل الذي لم يتكلم قبل الآن وهو والد الفتى المعتوه :

— انظري ابنتها المرأة الطيبة . اذا كنت لا تحسبيننا اناسا طيبين فانظري الى النعش الذي اشتريناه لابنتك . انه كلفنا عشر قطع من الفضة كانت كل ما نملك . وهل كنت تظنين اننا نشترى نعشا لو لم تكن لها قيمة عندنا ؟ .

نظرت الأم . فرات قرب الباب نعشا حقا . لكنها أدركت انه لا يساوي هذه القيمة اذ كان مصنوعا من الخشب الجافى الرقيق . وهو لا يمتاز فى شيء عن أى نعش يؤتى به الى رجل بائس فقير . وقد فتحت فاها لكى تعرب عن غضبها وتقول للرجل :

— هذا النعش ؟ . هل كانت النقود الفضية التى اعطيتها لابنتى يشتري بها مثل هذا النعش ؟ .

لكنها لم تفه بهذه الكلمات . فقد ساورها خوف شديد من هؤلاء الناس . وأحست بيد ابنها تجذبها من كمها . فقالت فى رباطة جأش :

— لن اقول الآن شيئا . ان ابنتى ماتت ولن يردها الى الحياة غضب ولا كلام .

وكفت عن الكلام واجالت عينيها فيهم جميعا ثم استطردت :  
— ستقفون امام السماء وامام الآلهة . فليحاسبوكم على ما فعلتم ! وأدارت فيهم عينيها مرة ثانية . لكنهم لم يجيبوا . فتحوّلت عنهم وركبت الحمار وقاده الفتى بعيدا عنهم فى الطريق الصخرى . والتفت خلفه وهو يرتعد خوفا من ان يتبعوه ، وقال لأمه :

— لن اطمئن حتى نصل الى تلك القرية حيث يوجد اناس من بنى الانسان . فأننى شديد الخوف .  
لكن الأم لم تفه بكلمة . فما نفع الكلام الآن وقد ماتت فتاتها ؟ .

### الفصل الثالث عشر

راحت الأم تبكى طوال الطريق الى البيت . وكانت حينما ترفع الصوت بالبكاء وحينما آخر تبكى بكاء رقيقا . وضاق الفتى ذرعا بهذا

البكاء ولم يتمالك أن هتف آخر الأمر فى ألم وجزع :  
- كفى عن هذا العويل يا أمى والا عجزت عن احتماله .  
فهذات الأم من روعها قليلا ، ولكن سرعان ما استأنفت بكاءها .  
فصر الفتى على أسنانه وغمغم فى عنف :

- لو أن اليوم الموعود جاء ، ولو أنا لم نكن فى أشد الفقر  
والتعاسة ، ولو نال الفقراء نصيبهم فى الحياة وتيسر لهم أن يدافعوا  
عن أنفسهم ، إذن لسعينا للثأر والانتقام لموت اختى . لكن ما الفائدة  
ونحن فى فقر شديد ولا عدل فى هذه الديار ؟ .

فقالت الأم وهى تنتحب :  
- صحيح أنه لا فائدة من الالتجاء الى القانون ما دمنا لا نملك  
مالا لالتماس العدالة .

ثم استأنفت بكاءها وهتفت :  
- لكن أموال الدنيا وعدالة القانون لن تردا الى فتاتى العمياء .  
ولم يتمالك الفتى أن بكى أيضا . ولم يكن بكاؤه لمصاب اخته  
وتفجع أمه بأكثر من بكائه لحاله وما نال من ألم السر ووعورة  
الطريق .

وهكذا وصلا الى البيت أخيرا . ولما ترجلت الأم عن ظهر الحمار  
الأسهب نادى ابنها الأكبر صارخة مولولة حتى ركض إليها مسرعا  
فصاحت قائلة :

- أختك ماتت يا بنى .  
وفيما كان الشاب يحدق فيها مذهولا وهو لا يكاد يفقه ما تقول  
راحت تسرد عليه القصة بحدافيرها . وجاء على صوتها سواد أهل  
القرية مسرعين ووقفوا ينصتون الى القصة فى ظلمة الشفق . ووقف  
الفتى مستندا الى الحمار وهو يكاد يسقط اعياء . ولما استرسلت  
الأم فى تفصيل قصتها انتحى جانبا وتهالك فوق الأرض وتمدد مكانه  
وهو فى ذهول مما شهد فى يومه . وراحت الأم تدير عينيها فى وجوه  
الواقفين حولها وهى تهتف عاليا :

- ماتت ابنتى وذهبت . وشد ما أمقت نفسى لأنى تركتها تباعد  
عنى . وما كنت أتركها تذهب لولا زوجة ابنى الباردة القاسية التى  
كانت تمقتها ، حتى أتى خشيت إذا مت وبقيت وحدها أن تتعرض  
لكل مكروه . آه يا بنى ! ان زوجتك هى سبب هذا المصاب . انى  
ألعن اليوم الذى جاءت فيه إلينا . ولا عجب إذا بقيت عاقرا وهى  
بهذا القلب القاسى المتحجر .

سرى عن الأم شيئاً فشيئاً وجعلت تبكى حيناً فى صمت وسكون .  
ثم تطلعت حولها قائلة :

— أين ابنى الأصغر ؟ .

فجاء الفتى ورائه شديد الشحوب والاعيساء وقد فارقه مرجه  
وبشاشته . فحملته على الجلوس بجانبها وتناولت يده وجعلت  
تستحبه على الأكل والراحة وقالت له :

— نم هذه الليلة بجانبى يا ولدى فى الفراش الذى اعتادت اختك  
أن تنام فيه . لا يمكن يا ولدى أن أراه الليلة خاوياً .

وهكذا امثل الفتى لقولها ، وما كاد ينطرح على الفراش حتى  
استغرق فى نوم عميق .

لكن الأم لم تستطع أن تنام طويلاً حتى رغم الهدوء الذى شمل  
أرجاء البيت . وكان عزاءها الوحيد فى هذا الوقت أن تسمع غطيط  
الفتى وهو راقد بجانبها . واشتد حبها له الآن وجعلت تناجى نفسها  
بهذه الكلمات :

— لا بد أن أفعل نحوه كل شيء . هو آخر ابنائى . يجب أن أزوجه  
وأن ابنى له غرفة جديدة فسوق البيت سيكون له غرفة خاصة  
ولزوجته . وإذا رزق أطفالاً . . نعم يجب أن أفتش له عن زوجة طيبة  
ذات حيوية حتى يكون لنا أطفال فى البيت .

واحست بأن هؤلاء الأطفال المرتقبين سيكونون سلواها — غير أنها  
كانت تحرم من هذه السلوى . فقد عاودها المرض القديم حتى أنك  
جسمها وحال دون استسلامها للحزن أو تعلقها بالرجاء . وكانت  
جاراتها تأتين إليها لمواساتها وتشديد عزمها . . فتقول أحداهن :

— مهما يكن يا اختى فإن الفتاة كانت عمياء .  
وتقول ثانية :

— لا سبيل الى تبديل أحكام السماء يا اختى . ولا فائدة من الحزن  
على شيء فى هذه الدنيا .  
وتقول ثالثة :

— فكرى فى ولدك .

ولما ذكرتها زوجة العم ذات يوم بهذا الكلام قالت لها :

— نعم . لكن زوجة ابنى لا تحمل . . وابنى الأصغر لن يتزوج .  
فأجابتها زوجة العم بحرارة :

— أمهليها ستة أو سنتين يا اختى . فانه أحياناً بعد مضي سبع

سنوات فى العقم تعود المرأة الى طبيعتها وتنتج محصولا طيبا من الأولاد . وقد رأيت مثل هذه الحالات . أما فيما يختص بقول الفتى أنه لن يتزوج فلأبد أن تكون له حبيبة فى مكان ما ، ومن واجبنا أن نفتش عنها وننظر فى صلاحها للزواج منه . نعم . لأبد أن له حبيبة مثل غيره من شبان هذه الأيام . فانه لا يوجد رجل فى الدنيا لا يقبل الزواج .

لكن الأم قالت لها همسا :

— تعالى يا أختى وضعى أذنك فوق شفتى .

فلما امتثلت زوجة العم لما طلبت قالت الأم همسا :

— انى أخاف أحيانا كلما رأيت الأحزان تلازمنى وكل شيء ينعكس فى وجهى أن يكون هذا بسبب تلك الخطيئة الماضية التى ارتكبتها والتى تعرفها الآلهة . وقد لا يبعد أن تضن على السماء بالأحفاد . وما كاد هذا الخاطر يساورها حتى أغمضت عينيها وانحدرت دمعتان كبيرتان من بين أجفانها المطبقة .

وجعلت تفكر فى كافة خطاياها . . لا فى تلك الخطيئة التى تعرفها زوجة العم وحدها ، بل كذلك فى كذبها المتصل حينما زعمت أن زوجها توفى وأنها أرملة ، وما تفرع عن هذا كله من الكذب والتدليس ، طمعا فى الفوز برجل آخر .

وهكذا ألت بها الآن ذكرى هذه الذنوب جميعا ، وقد كانت تقوى على نسيانها فى الأحوال العادية لتقاوم العهد عليها . أما الآن وقد ألح عليها الضعف والحزن فقد كانت هذه الذكرى لاتثقل على نفسها لأنها لم تكن تستطيع أن تبوح بها تضطر لكتوماتها فى صدرها ، وكان يحزن فى نفسها أكثر من هذا أن قومها يعدونها امرأة فاضلة وينظرون إليها بعين الاحترام .

وقد اشتدت كآبة الأم ولم يعد شيء يسرى عنها حتى ترى ابنها الأصفر حولها . أجل . ومع أن زوجة الابن كانت تتفانى فى خدمتها وتبذل كل ما فى وسعها لمرضاها فانها لم تكن مصدر سلواها ولا عاملا على تطيب نفسها . وطالما كانت الأم تؤنبها لأن يدها باردة أو لأن وجهها شاحب وتحقق فيها بنفترات عدائية صبيانية . على أن الأم مع ذلك كفت عن التنديد بعقمها . فقد خطر لها فى أعماق نفسها أن خطاياها قد تكون سبب هذا الجذب الذى منيت به زوجة ابنها .

بيد أنها غادرت أخيرا فراش المرض . ولما ذهب الخريف زائلتها أسقامها وكانت تجلس طوال النهار محزونة ولكنه حزن هادئ ، خلا من



ظواهر العنف واللوعة . وكانت تناجي نفسها قائلة :  
- نعم . ربما صح ما يقولون . وقد يكون من الخير أن ماتت ابنتى .  
ففى الحياة أشياء كثيرة أسوأ من الموت .  
وتشبثت بهذه الفكرة واطمأنت اليها .  
ووجدت من أهل القرية جميعا كل عون ومساعدة . إذ لم يعد أحد  
منهم يحدثها عن ابنتها أو يشير ذكراها امامها . وقد دفعهم الى هذا  
السكوت رغبتهم فى دفع الألم والحزن عنها ، ولأن الحديث فى هذا  
الشأن كان حديثا معادا لا جديد فيه ، ولأن شئون الحياة والناس  
المتجددة قد طفت على هذه الذكرى . وهكذا اختتمت سيرة الفتاة  
العمياء .  
وهكذا تركت الأم الماضى ساكنا خامدا فلا تقلبه الا حين تخلو أحيانا  
الى نفسها .

### الفصل الرابع عشر

ثم خيل للأم أن قلبها يوشك أن ينعم ببعض الراحة والسلوى .  
ففى ربيع هذا العام جاء اليها ابنها الأصغر وقال لها :  
- ابنى جئت الى البيت للإقامة فيه بعض الوقت يا أمى . ولا أعرف  
كم من الوقت أبقى هنا . ولكنى سأبقى على الأقل حتى يصدر الأمر  
بعودتى .  
ولما طرقت الأم من هذا النبأ لم يتبسّط الفتى فى الكلام وكان  
أطواره تغيرت واختلفت عن ذى قبل . فقد كان يبدو الآن كثير  
الهدوء لا يغنى ويلهو ولا يستهتر فى كلامه كما كان يفعل فيما مضى ،  
حتى لقد عجبت الأم من هذا وراحت تتساءل أن كان به مرض أو  
اضطراب خفى .  
على أن الفتى لم يلبث بعد مضى تسعة أيام إن عاد مسرعا من حيث  
أتى وعلى نحو أقرب الى الخفاء منه الى الجهر ، وإن لم يدر أحد كيف .  
تلقى الأمر بالعودة . وقد دس الفتى ملابسه فى صندوق من الجلد كان  
معه ، وحزنت الأم لذهابه فقالت له :  
- كنت أظن يا ولدى أنك ستقيم معنا .  
لكنه أجاب قائلا :  
- آه . سأعود مرة ثانية يا أمى .  
وكانت تبدو على الفتى بعد ذلك سيماء الجدل والمرح . وجعل

يعود الى القرية ويخرج منها بغير سابق انذار . وكان اذا جاء الى القرية راح يتسكع في ارجائها يوما او يومين ، فيختلف الى حانوت الشاي ويلقى افواالا ربانه وكلمات لصخمه في سوء الاحوال وانعدام العدالة ويقرر انه سيأتى يوم عظيم تذهب فيه كل هذه المساوىء ويستقيم كل شىء . وكان الناس يصفون اليه وهم يتبادلون النظرات دهشة دون أن يفقهوا من كلامه شيئا . وذات يوم حك صاحب الخان رأسه وهتف قائلا :

— أقسم يا جيرانى أن هذا الكلام يرن في أذنى كلام اللصوص ! .  
لكنهم كانوا يتجاوزون عن هذا الكلام لأجل الأم ولأجل أخيه الطيب .

وكانوا يردون هذه الأقوال الى طيش الشباب ويعتقدون انه سيلزم حدود التعقل متى تزوج وعاش عيش الرجال .  
على أن الفتى كان اذا عاد الى البيت يلزم البطالة والخمول ويتظاهر بالرغبة فى مساعدة أخيه والقيام ببعض الأعمال اليسيرة ، وأن كان أخوه اذا رأى ذلك منه قال له بازدرأ :

— شكرا لك يا أخى . لكننى تعودت أن أعمل بغير مساعدتك .  
فيتطلع الفتى الى أخيه بوقاحة ألفها فى هذه الأيام الأخيرة ويضحك ضحكة هادئة ويبصق على الأرض ثم يقول :

— كما تحب يا أخى .  
وقد كان هذا الهدوء يثير الأخ الأكبر حتى يكاد ينشق من الفيظ والحقد ويهم بطرد أخيه من الدار الى الأبد لولا أشفاقه من لوم الناس وتنديدهم بهذا العمل .

أما الأم فلم تكن ترى فى مسلك الفتى نقيصة ولا ملزمة . وقد سمعته يتشدد يوما بكلامه الضخم الرنان ويقول معرضا بأخيه الأكبر :

— أقسم أن صفار الملاك هؤلاء الذين يؤجرون الأرض هم أناس مفرورون لا قيمة لهم ، وأنهم يستحقون ما سينزل بهم يوم تكون الأرض مشاما ولا يملكها انسان بعينه .

فلم تفقه الأم من هذا الكلام سوى شطره الأول وقالت له مؤمنة على قوله :

— نعم . انى أرى مثلك أن أخاك شديد الفرور أحيانا ، كما أن زوجته هافر شديدة الجذب .

والواقع أن كل ما يصدر عن هذا الفتى كان فى نظرها آية الصواب وعين الحكمة والسداد . واذا عاد الى البيت كان يوم عودته هيدا

عندها . ولو استطاعت لذبحت له كل يوم دجاجة وصنعت له أطيب الطعام . لكن أين السبيل إلى هذا وقد صار الدجاج الآن ملكا لابنها الأكبر ؟ وقصارى ما كانت تستطيع هو أن تسرق بيضة أو بيضتين وتخفيهما عندها للفتى ، حتى إذا عاد صبتهما سرا في ماء ساخن ، وقدمتهما إليه مع بعض السكر الذى تدخره لمجيئه على وجه من الوجوه .

وكانت الأم إذا أصابت بعض الألوان اللذيذة المشتهية أو إذا ذهبت لزيارة بعض جاراتها فأعطينها خوخة أو كعكة أو غيرها من باب الشفقة عليها . كانت إذا ظفرت بهذا أو ذاك ادخرته للفتى الأصغر وانفقت وقتا طويلا في السهر على هذه الألوان حتى لا تفسد . ولا تتعفن وادخرتها أطول مدة ممكنة . حتى إذا ابطأ في العودة واضطرت لأكلها قبل أن تفسد فعلت هذا مكرهة وهى لا تكاد تسيغ ما تأكل وإن كانت تحب الطعام وتلذذ به ! .

وكانت تنفق ساعات طويلة من وقتها كل يوم فى التطلع إلى الطريق لعلها ترى ولدها قادمة . حتى إذا رأت رجلا آتيا هرعت بكل ما تتسع له قوتها فإذا كان القادم ولدها تناولت يده الدافئة الملساء فى يدها اليابسة المفصنة وذهبت به إلى غرفتها وصبت له الشاي الذى تبقى عندها زوجة ابنها وقدمت له ما ادخرت من سائغ الطعام وجعلت تراقبه فى تدله وهو يقلب ما قدمت له وينتقى منه أحسنه .

فإذا تناول ما طاب له راحت تنصت له وتستمع لما يقول . ولم يكن يجيب عما تلقى عليه من الأسئلة أجابة صريحة ، وإذا ألحت عليه أبدى لها تعجله فى العودة من حيث أتى . فلما رأت ذلك منه ألقت ألا تلقى عليه سؤالا وألفه بدوره أن يبعد بها عن موضوع السؤال بما كان يسرده عليها من نوادر الحوارة والمشعوذين . فيقول لها مرة أنه رأى أحدهم يزدد ثعبانا ثم يجذبه ويخرجه من جوفه ثانية . أو أنه شاهد امرأة ولدت طفلا ذا رأسين كانت تعرضه أمام المتفرجين لقاء مبلغ تافه يسير . أو ما إلى ذلك من المشاهد الغريبة التى يراها الإنسان فى المدن .

وكانت الأم تتسلى بهذا الكلام وتبكي إذا ذهب الفتى عنها ، وتروح تقص هذه النوادر على ابنها الأكبر وزوجته . وذات يوم بينما كان الشاب يفسل وجهه فى وعاء به ماء بعد عودته من عمل النهار الشاق قصت عليه الأم بعض ما سمعت من ابنها الفتى . فلم يتمالك الشاب أن رفع رأسه المبلل وقال بمرارة :

— نعم . هو لا يطعمك ولا يفعل شيئاً نحوك الا أن يجيء الى هنا ويأكل دون أن يحمل بيده فأساً ولا محراثاً ويلقى اليك بقطعة زهيدة من النقود كأنك متسولة . وهو يجيء الى هنا يأكل دون أن يحمل بيده فأساً ولا محراثاً ويقص عليك هذه القصص وهو عندك أكثر من . . .

ثم أحنى رأسه ثانية وجعل يفسل وجهه في ضجة عالية ولم يستمع الى ما أرادت الأم أن تقول رداً على كلامه .

لكن الأم لم تعرف في ابنها الأصغر الا أنه فتى مليح العود رشيق القوام ذهبى البشرة طويل الأظفار أبيض الأسنان يصفف شعره الأسود بالزيت ويتركه ينمو ويتدلى حتى أذنيه ثم يدفع رأسه دفعا لكي يزيح الشعر اللامع عن عينيه .

أجل . . كانت الأم تعرف في فتاها هذا وحده وتحب منه نظراته الجريئة المستهترة وسخاءه في انفاق الفضة وتعجب به حين يدس يده في حزامه ويقدم لها ما يملك ، واذا لم يجد معه شيئاً سألها أن تعطيه ما عندها ولم يكن أحب الى نفسها من أن تعطيه ما عندها وتلح عليه في قبوله . وكل ما كان يمنحها كانت تدخره لكي تقدمه نه اذا أموزته الحاجة اليه وذلك في نظرها أفضل سبيل لانفاق ما تملك من مال يسير .

### الفصل الخامس عشر

ولكنه ذات يوم لم يعد اليها في الوقت الذي حدده . ولكن كيف أيقنت من عودته في هذا الموعد المحدد ؟ .

ذلك أنه منذ ثلاثة أيام جاء خلسة في الليل عن طريق الحقول لا عن طريق القرية وطرق الباب برفق حتى لقد خافت أن تفتحه وظنت الطارق من اللصوص . وفيما هي تهم بالصياح سمعت صوتاً خافتاً ، ومن حسن الحظ أن الدجاج أخذ ينق في تلك اللحظة وحجب الصوت عن سماع الابن الأكبر وزوجته .

فنهضت الأم من فراشها بسرعة وراحت تلمس ملابسها وتلمس الشمعة في تخطيط وتعر حتى فتحت الباب برفق اذ علمت أنه جاء على هذا النحو الأمر خفى ، واذا هي تراه أمامها برفقة شابين آخرين وهم جميعاً يرتدون ملابس سوداء كالتى اعتاد أن يرتديها في هذه الأيام . وكان الثلاثة يحملون لفافة كبيرة محزومة بورق وحبال



ولما فتحت الباب وهى تحمل الشمعة فى يدها اطفأها الفتى اذ كان القمر يرسل نورا يسيرا كافيا . وما كادت الأم تهتف فى رفق معربة عن سرورها برؤيته حتى قال لها همسا :

— هذا شيء يخصنى يا أمى أريد أن أضعه تحت فراشك بين ملابس الشتاء . ولا تقولى كلمة عنه لانى لا أريد أن يعرف أحد مكانه وسأعود مرة ثانية لأخذه .

فتوجست الأم خوفا حينما سمعت هذا الكلام وتطلعت اليه فى رزاة وقالت له فى صوت خافت :

— أرجوك يا ولدى الا يكون هذا شيئا محرما . أرجو الا تكون اخذت ما ليس لك .

لكنه أجابها على الفور :

— لا يا أمى . أقسم لك انه ليس من المسروقات . وهو بعض جلود الفتم اشتريتها بثمن قليل وأخاف أن يلومنى اخى كما يلومنى فى كل شيء وليس لى مكان آخر أحفظها فيه . وسيكون لك واحد منها فى الشتاء القادم . بل انه سيكون لنا جميعا ملابس طيبة فى الشتاء القادم يا أمى .

فسرت الأم من هذا الكلام وصدقته ولد لها أن تشاطر ابنها بعض أسرارها وقالت له بسرعة :

— نعم . ثق بى يا ولدى . توجد بهذه الغرفة أشياء كثيرة لا يعرف ولدى ولا زوجته عنها شيئا .

عند ذلك حمل الشابان اللقافة الى داخل الغرفة ودساها فى سكون تحت الفراش ، وفى هذه الأثناء أخذ الدجاج ينق ويحدق بأعينه واستيقظت الجاموسة وأخذت تطحن فكها .

لكن الابن لم يشأ أن يبقى بعض الوقت . وعجبت الأم حين آنست منه هذه العجلة ، لكنها قالت له :

— ثق يا ولدى انى سأحرص على الأمانة . لكن الا يجب أن أعرضها للهواء والشمس خوفا من العث ؟ . فأجاب الفتى بغير مبالاة :

— سنكون عندك يوما أو يومين ، لأننا سننتقل الى مكان اكبر وسيكون لى غرفة خاصة رحبة .

فلما سمعت الأم اشارته الى الغرفة الرحبة جالت بخاطرها تلك الفكرة التى كانت تساورها أبدا . فكرة تزويج الفتى . وسرعان ما انتحفت به ناحية بعيدا عن رفيقيه وتطلعت اليه مبتهلة متوسلة .

ولم يكن يسوؤها منه سوى نفوره من الزواج واعراضه عنه . فقد كانت تعلم تمام العلم ان دماء الشباب تتدفق حارة في عروقه وان هذا الابن يحمل نصيبا موفورا من عواطفها الجياشة وشهواتها الجسامحة في صدر شبابها ، وكانت توقن انه لا محالة يعمد الى اطفاء حرارة عاطفته على وجه من الوجوه . وهى تعمقت الاسراف وتنفر منه أشد النفور . ولم يكن أحب الى نفسها من أن تزوجه فتاة نظيفة صالحة فيكون لها أحفاد . ولم تتمالك حتى فى هذه اللحظة حين كان يتعجل الذهاب وقد وقف صاحباه متسترين بظلام الباب ، ان وضعت يدها فوق يده وقالت له مستحثة فى نبرات خافتة :

— لكن يا ولدى اذا كانت لك غرفة خاصة راحة فلم لا تتركنى أبحث لك عن عروس ؟ انى سأفتش لك عن أحسن الفتيات . أو اذا كنت تعرف فتاة معينة فأخبرنى عنها وأنا أعهد الى زوجة عمك أن تذهب اليها وتخطبها لك . انا لا أرغمك يا ولدى . وانى لأحب الفتاة التى تحبها .

لكن الفتى دفع خصلات شعره المسدلة ونظر الى الباب وحاول أن يرفع يدها عن يده . لكنها تشبثت به قائلة :

— لم تبذر حبوبك فى أرض غير صالحة يا ولدى ولا تهيبى الى الأحفاد ؟ ان زوجة أخيك شديدة البرودة ولا أظن انى سأفوز بأطفال صفار اذ لم تنجبهم أنت . نعم . أنت تشبه أباك . وأنا أعلم تماما كيف كان أبوك . ابذر حبوبك فى أرضك يا ولدى ، واجن ثمارها فى بيتك .

لكن الفتى ضحك فى سكون وأزاح شعره عن عينيه اللامعتين وقال :  
— ان النساء امثالك يا أمى لا يفكرن إلا فى الزواج ووضع الأطفال . أما نحن شبان هذه الأيام فقد طرحنا كل هذا وأعرضنا عنه . بعد ثلاثة أيام سأعود يا أمى .

ثم أنتزع نفسه من قبضتها وذهب مع رفيقيه فساروا فى الحقول المظلمة .

لكن مضت ثلاثة أيام ولم يعد . ثم مضت ثلاثة أيام أخرى وثلاثة مثلها دون أن يأتى ، حتى خافت الأم أن يكون قد ألم بابنها سوء . ولم تكن الأم فى هذا العام الحالى تذهب فى يسر وسهولة الى البلدة وهكذا لزمّت الدار تنتظر وتترقب . وكانت تبرم وتضيق بكل من يدنون منها دون أن تجسر على مكاشفة أحد بمخاوفها أو تجرؤ على الابتعاد عن غرفتها حتى لا تزيج زوجة ابنها الستار وتهتدى الى

اللفافة المخيأة تحت الفراش .

وانتابها أرق فنهضت وأضاءت شمعة ونظرت تحت الفراش وهي ممسكة بيدها الستار المسدل . فإذا ( الأمانة ) ملفوفة في ورق سميك ومحزومة حزما جيدا بحبال من القنب . ولما تحسستها بيدها لمست جسما صلبا بداخلها فأيقنت انه ليس جلود الفم حقا . لكنها لم تجسر على فتحها وتركها كما هي .

ومرت الأيام تباعا حتى انقضى شهر كامل دون أن يعود ابنها . فكادت تجن لولا أن حدث حادث انسأها مخاوفها الى حد ما . كان هذا الحادث آخر ما تحلم به في هذه الأيام . إذ حملت زوجة ابنها .

أجل . عادت المرأة الى طبيعتها بعد كل هذه السنوات وادت واجبها . وذات يوم جاءها ابنها الأكبر بينما كانت جالسة في مدخل الدار وقال وقد أشرقت أسارير وجهه ابتساما :  
- أمي . سيكون لك حفيد .

فأفاقت الأم من التأمل الذي كان يستغرقها في الأيام الأخيرة وجعلت تتحقق فيه بعينيها الغائمتين وقالت له في تبرم :

- انت تتكلم كالمفلقين . ان زوجتك باردة مجذبة كالحجر . وأنا لا اعرف أين يوجد ابني وهو يتعثر بدوره الصالحة في كل مكان ولا يتزوج لادخارها .

فسعل الابن الأكبر وقال ببساطة :

- ان زوجتي حامل .

لم تصدق الأم اول الامر . وتطلعت اليه ثم صاحت وهي تنهض معتمدة على عصاها :

- هذا غير صحيح . لن اصدق هذا الكلام .

لكنها رأت في وجهه دلائل الصدق . فنهضت وأسرعت الى المطبخ حيث وجدت زوجة الابن تطهو الطعام . فتطلعت اليها وهتفت :

- هل حملت أخيرا ؟ .

فأومات الزوجة برأسها ايجابا واستأنف عملها وقد تضرع وجهها الشاحب بحمرة متقطعة . وأدركت الأم أن الحادث لا ريب فيه . فسألتها :

- متى عرفت هذا ؟ .

فأجابت الزوجة :

- من قمرين وزيادة .

فما كادت الأم تسمع هذا الجواب حتى غضبت حين رأت انها لم تقف على النبأ فى وقته ولطمت الأرض بعصاها قائلة :

— لم لم تخبرينى وقد كنت هذه السنين أتشوق وأتلهف لمثل هذا النبأ ؟ . من قمرين ؟ هل فى الدنيا امرأة فى برودك لا تتكلم عن هذا الأمر من يوم ظهوره ؟ .

فألقت الزوجة السكين التى كانت تقطع بها البصل من يدها وقالت :

— لم أخبرك لخوفى من أن أكون مخطئة فأزيد حزنك أكثر مما أحيى أملك .

لكن الأم لم تقبل هذا العذر وبصقت على الأرض وقالت :  
— وهل كنت أعجز عن معرفة الحقيقة وأنا التى أنجبت كل هؤلاء الأبناء ؟ لا . أنت تحسبيننى طفلة أو عجوزا بلهاء . أنا أعرف ماذا تظنين فى . ويبدو هذا منك فى كل عمل تقومين به .

لكن الزوجة لم تنبس بكلمة ، بل أطبقت شفتيها الفليظتين الشاحبتين وصبت للأم قدحا من الشاى وقادتها الى مجلسها قرب الحائط .

لكن الأم لم تستطع أن تجلس وتكتم هذا النبأ . بل لابد لها من أن تذهب وتخبر العم وزوجته حيث يجلسان فى بيتهما . فان أبناءهما احتملوا الآن عبء العمل فاضطلع ثلاثة منهم بأعمال الفلاحة وتفرق الآخرون فى أعمال أخرى يتلمسون قوتهم منها ، وكان العم يقوم بما يستطيع وهو دائما متشاغل ببعض الأعمال اليسيرة ، وان لم يكن يقوى الآن على أداء الأعمال التى كان يقوم بها من قبل . أما زوجته فكانت تمضى النهار فى نوم عذب هنىء لا تستيقظ منه الا حين يسكى احد حفدتها الصغار .

ذهبت الأم الى بيت العم اذن وايقظت زوجته بلا ترفق من نومها وصاحت قائلة :

— لن تكونى جدة وحدك . بعد شهور قليلة سيكون لى حفيد أيضا .

ثابت زوجة العم الى نفسها رويدا وهى تبتسم وتعلق شفتيها اليابستين من تأثير النوم وفتحت عينيها الصغيرتين الهادئتين قائلة :

— صحيح يا أختى ! هل يتزوج ابنك الأصغر ؟ .

فتكدرت الأم قليلا واجابت :

— لا . ليس هذا .



وكان العم الضئيل الهرم جالسا فوق مقعد منخفض من الخيزران  
يضفر حبلا من القش لدود القز لكى ينتج فوقها الخطوط الحريرية .  
فرفع رأسه وقال للأم :

— اذن فهي زوجة ابنك يا بنت العم ؟ .  
فاجابت الأم بحرارة وقد عاودها اغتباطها وسرورها :  
— نعم .

— وجلست لكى تسرد قصتها . بيد انها لم تشأ ان تتظاهر  
بالسرور وكتمت سرورها خلف ستار من الشكوى والتذمر قائلة :  
— انى جعلت أنتظر ثمانية أعوام كاملة . ولو كنت غنية لبحثت  
له عن امرأة أخرى . لكنى كنت ارجو ان يتزوج ولدى الأصفر ويجرب  
حظه قبل ان امد أخاه بزوجة ثانية ، والزواج فى هذه الأيام يكلف  
الانسان كثيرا حتى ولو كانت زوجة ثانية . ان زوجة ابنى هذه امرأة  
بليدة لها طبيعة باردة كطبيعة الثعبان .  
فقال العم ينصف الزوجة :

— لكنها ليست رديئة يا بنت العم . فانها قامت بواجبها خير قيام  
وقد ضاعفت لكم عدد البط واستولدت الجاموسة عجلا صغيرا .  
وبفضلها زاد عدد الدجاج حتى صار الآن اثنتى عشرة دجاجة عدا  
ما يباع كل سنة .  
فقالت الأم مكرهة :

— لا . ليست رديئة . لكنى كنت افضل ان تهتم بنفسها اكثر من  
اهتمامها باستيلاد الدواب والدجاج .  
وكانت زوجة العم فى هذه الأثناء قد غفت قليلا ثم استيقظت  
من غفوتها ورات الأم فى مكانها . فابتسمت وقالت :  
— قلت سيكون لك حفيد ؟ . نعم . ان لنا من الأحفاد سبعة .  
وهم ليسوا كثيرين .  
ثم استسلمت لنومها الهنىء .

\*\*\*

وهكذا ملا هذا النبا فراغ الأم وقد كاد الفراغ يذهب بعقلها لفياب  
ولدها . وشغلها الفرح عن الانتظار والترقب وبدأ لها انه لابد عائد  
يوما ما . وترك الأمر يقف عند هذا الحد .  
لكنها لم تنعم بهذا الفرح . فقد رأت ان كل شيء ينعكس امامها  
وفسد على وجهه من الوجوه ، اذ اشفقت ان يجيء المولود أنثى .  
وما كاد هذا الخاطر يهيجس فى وجدانها حتى غففت قائلة :

— نعم . لو جاء المولود أنثى لكان هذا أقرب الى حظى السيء .  
وقد ودت بتأثير ما انتابها من قلق واشفاق أن تسمى الى تلك  
الربة القوية التى تعرفها وترشوها برداء جديد أحمر أو حذاء أو  
غيرهما لكى تجعل المولود ذكرا . لكنها لم تجرؤ على الذهاب حتى  
لا تذكر الربة بخطيئتها الماضية التى لم تكفر عنها حتى بعد كل ما ذاقت  
من الأحزان ، وحتى لا تتذكر الربة اذا رأتها وسمعتها تتكلم عن  
الأحفاد فتعمد سلطاتها وتبطش بالجنين فى الرحم . وناجت نفسها بهذه  
الكلمات فى لهجة تشف عن البؤس الشديد :

— خير لى ألا أذهب ولا أظهر نفسى امامها ابدا . اذا بقيت بعيدة  
عنها ولم أخبرها بأن الطفل فى طريقه الى الدنيا فقد تنسانى بعد أن  
لبثت كل هذا الزمن الطويل بعيدة عن الآلهة جميعا ويكون المولود فى  
نظرها الاى أنثى وليس حفيدى ، وارجو أن يكون ذكرا .

ثم ساورها القلق والاتقياض ورات ان الطفل رغم كونه مصدرا  
للفرح والسرور فهو سبب للأحزان أيضا . ولما فكرت فى هذا الشأن  
وفى أن الطفل قد يولد ميتا أو مشوها أو معتوها أو أعمى أو أنثى ،  
لم تتمالك ان حقدت على الآلهة والآلهات الذين يملكون من القدرة  
ما يفسدون به حياة الناس . وغمغمت قائلة :

— لم أستوف عقابى عما ارتكبته من الذنوب ؟ من كان يحسب ان  
الآلهة ستعرف ما فعلت فى ذلك اليوم ؟ لكن لا ريب أن اله المعبد  
الخرب قد أحس بالخطيئة حوله ووشى الى الربة رغم انى حجبت  
وجهه . لا بأس . سأبتعد عن الآلهة محتملة كل ذنوبى وخطاياى ،  
الأنى اذا ذهبت اليها فلست أعرف كيف أكفر عن ذنوبى أكثر مما  
فعلت . وأقسم لو وزنت أفراحي وأحزاني لرجحت كفة الأحزان ولم  
يكن للأفراح التافهة التى نلتها سوى وزن يسير . انى لم ألد الطفل ،  
وقد رأيت فتاتى العمياء تموت وهى لم تزل عمياء . ألا ينفع الحزن  
فى التكفير عن الذنوب ؟ نعم . ان حياتى كلها كانت طافحة بالأحزان .  
لكن الآلهة لا تعرف العدالة .

وهكذا رأت وقد ملك الحزن والاكتئاب شعاب نفسها أنه لا مفر لها  
من احتمال أمرين : الخوف الا يولد حفيدها صحيح الجسم سليم  
الأعضاء أو يولد أنثى . وانتظار هذا الابن الأصفر الذى لا يريد أن  
يعود . وقد خيل اليها أحيانا ان حياتها كانت لونا من الانتظار  
المستمر . فقد انتظرت طويلا زوجها الذى لم يعد . وهى الآن تنتظر

ابنها واحفادها . وبدأ لها ان هذه الحياة تافهة هيئة لا وزن لها ولا شأن .

ومع هذا فلم يكن امامها بد من التعلق بحبال الأمل والرجاء . وكانت تسأل كل من يعود الى القرية من البلدة قائلة :

— هل رايت ابني الأصغر اليوم في البلدة ؟ .

وكانت تطوف بيوت القرية سائلة اهليها :

— من ذهب اليوم الى البلدة ؟ .

فاذا اجابها أحدهم بالإيجاب قالت له :

— هل رايت ابني أيها الرجل الطيب ؟ .

وآلف أهل القرية جميعا أن يسمعوها منها هذا السؤال . وكانوا

اذا راوها تتوكأ على عصاها التي اقتطعها ابنها لها من فروع الأشجار

وسمعوها سؤالها عن ولدها الأصغر اجابوها برفق قائلين :

— لا . لا ايتها الأم الطيبة . وكيف يمكن أن نراه في سوق البلدة

حيث نذهب ، وهو ما تقولين انه يعيش من الكتب ؟ .

فلا تملك الأم الا أن تمضي في سبيلها مذهوبة الأمل ضائعة الرجاء

وتعود ادراجها الى البيت لكي تنتظر عودة الابن وهي مشفقة أن يأكل

العث جلود الغنم .

ولكن جاءت أنباء ذات يوم بعد تعاقب عدة ايام .

فقد جلست الأم بباب البيت بعد أن تناولت طعام الصباح ممسكة

بقصبتها الطويلة بين أصابعها كعادتها هذه الأيام . ورات الشمس

ترسل أشعتها حامية فوق رعوس الروابي المستديرة وجلست تنتظر

أن تدركها حرارتها وتذهب عنها برد الخريف . وفجأة رأت أكبر أبناء

العم يدخل الحوش ويذهب الى ابنها الأكبر الذي كان منحنيا فوق

صندله يصلح رباطه الذي انقطع ويسر في أذنه كلاما .

وقد عجبت الأم من رؤية ابن العم يعود الى القرية بعد أن شاهده

في الفجر يذهب الى البلدة ببعض أحمال الحشائش ، اذ كانت

لا تستطيع الفراش في مطلع النهار ما تهيأت لها الصحة لطول

ما اعتادت النهوض مبكرة في الفجر . فلما راته يعود بمثل هذه

السرعة همت بسؤاله ولكنها سمعت ابنها يهتف وهو ممتقع الوجه

قائلا : أخي ؟ .

أجل . نفذت هذه الكلمة الى سمع الأم الحاد وقالت فورا :

— ابني . ماذا حدث له ؟ .

لكن الشابين جعلتا يتكلمان معا كلاما كله جد واهتمام وقد لاحت

عليهما سيماء القلق ، فلم تطق الأم صبرا ونهضت وسارت اليهما متوكئة على عصاها وهتفت قائلة :  
- حدثاني عن ابني .

لكن ابن العم سار مبتعدا دون أن يقول كلمة . وقال ابنها الأكبر :  
- يوجد شيء غير طبيعي يا أمي . ولست أعرف الحقيقة . لكن لا بد أن أذهب إلى البلدة ثم أعود اليك لكي أخبرك .  
لكن الأم لم يذهب . بل تشبثت به وهتفت :  
- لن تذهب حتى تخبرني ؟

ولما سمعت زوجة الابن صوتها خرجت ووقفت تنصت ثم قالت :  
- أخبرها والا مرضت من الغضب .  
واذن فلم يجد الابن بدا من الكلام قائلا :

- قال ابن عمي انه رأى أخى فى صباح اليوم بين كثيرين غيره مقيد اليدين بحبال من القنب ممزق الملابس يسير أمام السوق حيث كان ابن عمي يبيع الحشائش . وقد كان أخى يسير فى صف طويل مؤلف من عشرين أو ثلاثين رجلا ، ولما رأى ابن عمي حول نظره بعيدا . لكن ابن عمي جعل يسأل ، فسال الحراس الذين كانوا يسرون معهم أنهم شيوعيون ذاهبون إلى السجن لكي يعدموا غدا . فلما قال الابن هذا الكلام جعل الثلاثة يحدقون بعضهم فى بعض وسرت رعدة فى فك الأم وأخذت قلب نظرها بين ابنها وزوجته ثم قالت :

- انى سمعت هذه الكلمة . لكنى لا أعرف معناها .  
فأجاب الابن متباطئا :

- انى القيت هذا السؤال على ابن عمي الذى سأل الحارس ، فضحك منه وقال ان هذه الكلمة تدل على نوع جديد من اللصوص ظهر هذه الأيام .

عند ذلك تذكرت الأم اللقافة التى طال عليها الوقت تحت الفراش وأخذت تولول وطرحت رداءها فوق رأسها وجعلت تنتحب قائلة :  
- كان يمكن أن أعرف الحقيقة فى تلك الليلة . آه .. ان اللقافة الموجودة تحت فراشى هى ما سرقه ..

وعندئذ تشبث بها الابن وزوجته واقتاداها إلى البيت وقالا لها :  
- ما قصدك يا أمي ؟

ورفعت زوجة الابن الستار ونظرت إلى زوجها الذى تقدم إلى الأمام بينما أشارت العجوز إلى اللقافة وقالت وهى تنتحب :



— لا أعرف ما فيها . لكنه أحضرها الى هنا ذات ليلة وأوصاني  
أن ألزم الكتمان يوما أو يومين . لكنه لم يرجع أبدا .  
فذهب الرجل الى الباب وأغلقه برفق وأوصده بالمزلاج . وعلقت  
الزوجة جليابه في النافذة وحمل الاثنان اللقافة وفكا أربطتها . .  
وغمغمت الأم وهي تحديق فيها :  
— أخبرني أن بها جلود غنم .

لكنهما لم ينسبا بكلمة ولم يؤمنا بشيء مما تقول . فقد يكون  
ما فيها شيئا ذا قيمة ، وخيل أو كاد يخيل اليهما حين لمسا ثقلها  
وصلابتها أن فيها ذهباً .

على انهما حين فتحا اللقافة لم يجدا بها غير كتب .  
كانت طائفة كبيرة من الكتب ، كلها صغيرة الحجم ، وبينها أوراق  
كثيرة في بعضها ضور تمثل أغرب المشاهد الدموية . . منها ما يمثل  
الموت ومنها ما يمثل الجبايرة يضربون اقزاما أو يمزقونهم بالخناجر .  
فوقف الثلاثة يحدقون بعضهم في بعض دون أن يفقهوا شيئا  
ودون أن يدركوا ماذا يدفع الانسان الى أن يسرق ويخفي مجرد  
أوراق مخططة بالمداد .

لكنهم لم يستطيعوا أن يفهموا شيئا مما يرون . فلم يكن بينهم  
من يعرف القراءة . ولم يفهموا من الصور الا انها تمثل مشاهد  
دامية فيها رجال ممزقون بالخناجر ورجال يموتون وآخرون مقطعة  
أوصالهم قطعاً ذريعا ، وهي جميعا مشاهد دموية ممقوتة لا تحدث  
الا حيث يكون اللصوص وقطاع الطرق .

واستولى عليهم جميعا رعب وجزع . فاما الأم فقد جزعت لمصر  
ابنها . واما الزوجان فقد اشفقا أن يعرف الناس وجود هذه الأشياء  
في بيتها . وقال الرجل :

— لنحزمها كما كانت ولنتنظر حتى يأتي الليل ، فنحملها الى  
المطبخ لأحرقها .

لكن الزوجة كانت أكثر منه حرصا ، فقالت :  
— لا يمكن أن نحرقها جملة واحدة والاراي الناس الدخان الكثير  
وتساءلوا عن سببه ، لابد من حرقها واحدا واحدا ويوما بعد يوم  
فيحسب الناس أنني أوقد الحشائش لطهي الطعام .  
لكن الأم لم تحفل بهذا . فكل ما كان يعنيه الآن أن ابنها قد وقع  
في التهلكة . وقالت لولدها الأكبر .

— ما الذي تفعله لأخيك الأصغر يا ولدي ؟ كيف تبحث عنه ؟ .

فأجاب الرجل مكرها :

- أنى أعرف مكانه . فقد قال ابن عمى انهم أخذوه الى سجن معين قرب باب البلدة الجنوبي ، حيث يوجد ميدان للاعدام .  
وفجأة هتف الرجل حين وقع نظره على وجه أمه الذى امتقع ونادى زوجته فحملها الاثنان فيما بينهما وأرقداها فوق الفراش حيث تمددت وأخذت تلهث وقد أسستحال وجهها الى لون الطمى لفرط جزعها على الفتى المعتقل . وقالت لاهثة الأنفاس :  
- ألا تذهب يا ولدى ؟ أخوك ...

فلما آنس الابن حالتها طرح جانبا خوفه على نفسه وقال وقد هزته الشفقة عليها :

- نعم يا أمى سأذهب .. سأذهب .  
وأبدل الرجل ملابسه ووضع حذاء فى قدميه . وكان الوقت فى حساب الأم يمر بطيئا فلم تطق صبرا . ولما أتم الابن استعدادة نادته الأم الى جانبها وأدنت رأسه منها وهمست فى أذنه قائلة :  
- لا تدخر مالا يا ولدى . ان كان حقا فى السجن فلا بد من دفع مال لآخراجه . المال هو السبيل يا ولدى . من سمع أن سجنا استعصى فتحه على المال ؟ انى أملك مالا قليلا فى تلك الحفرة أدخرته لأجله فأنفقه كله . أنفق كل ما نملك .

لم تتغير ملامح الرجل حين سمع هذا الكلام . وتبادل النظر مع زوجته وقال :

- سأعمل كل ما فى وسعى لأجلك يا أمى .  
لكن الأم هتفت :

- وما الفائدة منى ؟ أنا عجوز على حافة القبر . افعل كل شيء لأجله .

بيد ان الرجل كان قد ذهب . ومشى الى ابن عمه الذى شهد الحادث فراققه الى البلدة . ولم يكن فى وسع الأم الا أن تلجأ الى الانتظار والترقب . لكن هذا كان أمر الوان الانتظار التى عهدتها فى حياتها . ولم تستطع أن تتمدد فوق الفراش ولا أن تقوى على النهوض لفرط ضعفها وأعيائها . وجزعت زوجة الابن أخيرا من حال الأم ومن نظراتها ومن كلامها ومن ضربها على فخذيها النحيلين . فذهبت الى العم وزوجته مستنجدة ، فأقبلا الى الدار وجلسا مع الأم المعجوز .

والواقع ان الأم قد سرى عنها حين جاء الزوجان الى جانبها .

فاليهما وحدهما كانت تستطيع ان تتكلم وان تفضى بذات نفسها  
وراحت تبكى وتبديء وتعيد قائلة :

- اذا كنت اذنبت فى حياتى افلم ائل من الاحزان ما يكفى ؟ اذا  
كنت اذنبت فلم لا اموت وحدى واضع حدا لكل شئ ؟ لم يؤخذ  
اولادى واحدا بعد الثانى ، وسيؤخذ حفيدى ايضا من غير شك ؟  
لا . لن يقدر لى ان ارى حفيدى . نعم لن اراه . ولن اكون انا  
التي يجب ان ينفذ فيها حكم الموت .

وفجأة ضاق صدرها حنقا بهذه الاحزان وهتفت غاضبة وهى  
ترسل الدموع ؟ .

- لكن اين هى المرأة الكاملة المبراة من الذنوب ؟ ولم أحتمل  
وحدى هذه الاحزان كلها ؟ .

فلما سمعت زوجة العم هذا الكلام خافت ان تندفع الام الى  
الافضاء بأكثر مما يجب وهى فى سورة هذا الألم . فبادرتها قائلة :  
- ثقى ان لنا جميعا ذنوبنا ، واذا وجب ان نحاسب عن هذه  
الذنوب فلن يبقى لواحدة منا اولاد . انظرى الى اولادى واحفادى .  
انى برغم وجودهم مخلوقة شريرة فاسدة . وانا لم اذهب فى حياتى  
الى احد المعابد ولا أسعى الى الذهاب . وكنت اذا جاءتنى كاهنة  
تحشنى على التقرب الى السماء وجدت من شواغل اولادى ما يحول  
دون قيامى بهذا الواجب . وحين تجيئنى الآن كاهنة وتحشنى على  
التوبة قبل فوات الأوان أقول انى بلغت من العمر حدا لا يثمر معه  
علم ولا تلقين ولا مفر من موتى مقصية عن حظيرة الدين اذا لم يمكن  
قبولى على علاتى .

بمثل هذا الكلام راحت زوجة العم تهون على الام المضعضة  
الحواس . وقال العم بدوره .

- انتظرى يا بنت العم حتى نعرف الخبر . قد لا يكون هناك  
داع لحزن ، فقد يفرجون عن ولدك فى مقابل المال الذى يجب دفعه .  
وقد يجوز ان ابنى اخطأ ورأى شخصا آخر غير ولدك يسير امامه  
مقيدا .

وأما زوجة العم الحريصة فقد أمرت زوجة الابن ان تمضى لتدبر  
شئون البيت حتى لا يسدر من الام البائسة كلام لا ينبغي ان  
تسمعه . ولو فعلت الآن بعد هذا الصمت الطويل اكان هذا من دواعي  
الرثاء حقا .

وهكذا جعل الثلاثة ينتظرون عودة الشابين . وكان الانتظار

وقعا على نفوسهم من انتظار الأم وحدها .  
لكن اقبل الليل دون أن تشهد الأم عودة الشابين . وكانت قد  
جرت نفسها من الفراش جرا وزحفت الى شجرة الصفصاف فجلست  
تحتها وجلس العم وزوجته قريبا . وجعل ثلاثتهم يحدقون بأنظارهم  
فى طريق القرية لعلهم يرون أحدا قادمًا ، الا زوجة العم حين كانت  
تغفو غفواتها القصيرة التى ما كان الحزن نفسه يدفعها عنها .  
ولما غربت الشمس أخيرا رأتها الأم عائدين . فنهضت وتوكلت  
على عصاها وظللت عينيها بيديها من أشعة الشمس الآفة وصاحت :  
- ها هما قد اقبلا .

وقد بدرت هذه الصيحة من الأم عالية مدوية ، ورنّت خطواتها  
فى الشارع سريعة متلاحقة ، حتى لقد خرج أهل القرية جميعا من  
مساكنهم . فأنهم علموا بقصة الفتى المعتقل ولكنهم لم يجسروا على  
المجيء علانية الى بيت الأم خوفا من تعرضهم للمؤاخذه والجزاء  
واستهدافهم للاعتقال أيضا . وقد تفرقوا فى النهار للقيام بأعمالهم  
وهم يتحرقون فضولا وتشوقا . ولكنهم كذلك خائفون متوجسون  
كشأن القرويين حين يتصل الأمر بموضوع السجون والحكام . أما  
الآن فقد نفروا من دورهم وراحوا يتكأون هنا وهناك عن بعد أيضا  
وأخذوا يراقبون ما يجرى .

ونهض العم كذلك وتبع الأم . بل لقد همت زوجته أن تتكلف  
الذهاب لولا أنها أصبحت لا تسير الا حين يجب المسير ، وقد رأت  
أن بوسعها أن تقف على جلية الخبر بعد قليل ، وكانت المرأة تؤمن  
بوقوع الخير آخر الأمر ، ولهذا كله وفرت على نفسها مؤونة الذهاب  
وجلست فوق مقعدها تنتظر .

أمام الأم فقد تشبثت بذراع ولدها صائحة :  
- ماذا جرى لابنى ؟

بيد أنها تفرست فى وجهى الرجلين وهى تلقى هذا السؤال ورات  
نذر السوء مرسمة على ملامحها . وتبادل كلاهما النظر ثم قال الابن  
أخيرا برزانة :

- هو فى السجن يا أمى .

وتبادلا النظر مرة ثانية . فحك ابن العم رأسه وتكلف البلاهة  
وتظاهر بأنه لا يعرف ما ينبغى أن يقال . فلم يجد الابن بدا من  
الكلام فقال :

- انى أشك يا أمى فى امكان انقاذه . لقد حكم عليه مع عشرين



شخصاً بالموت ، وسينفذ الحكم في الصباح .  
فصرخت الأم ورددت صرختها :  
- الموت !! الموت !! .

ولولا أنهم تلقوها لهوت على الأرض .  
وذهب بها الرجلان الى أقرب بيت ووضعوا مقعداً تحتها وأخذوا  
يهونان عليها . اما هي قد جعلت تبكي وتصيح كالطفل . وكان فمها  
المفصن يرتجف والدموع تنحدر فوق وجهها غزيرة . وراحت تلطم  
ثدييها اليأسين بقبضتي يديها وأنشأت تصيح وتتهم ولدها  
قائلة :

- أنت لم تقدم لهم مالا كافياً . قلت لك اني أملك هذا المبلغ  
اليسير وهو في جملته قطعة من الفضة وقطعتان أخريان اعطانيهما  
أخيراً ..

ولما رأت ابنها واقفاً منكس الرأس يسيل عرقه غزيراً فوق  
جبينه وشفته بصقت عليه غضباً وقالت :  
- لن تؤخذ منها قطعة واحدة لك . لن تكون لك اذا مات . نعم .  
سأذهب وألقيها في النهر أولاً .

عند ذلك تكلم ابن العم دفاعاً عن صاحبه وإشارة للسلم ، فقال  
وقد ارتسمت على وجهه أمارات الصدق في هذه الساعة العصيبة  
وأزاء هذه المهمة الصعبة :

- لا يا عمتي .. لا تلوميه . انه عرض أكثر من ضعف مالك . انه  
عرض مائة قطعة . عرضها على الكبير والصغير في السجن . انه  
راح يرشو هذا وذاك . لكنهم لم يسمحوا له برؤية ولدك .  
فصاحت الأم :

- انه لم يعرض مالا كافياً . من سسمع ان حراساً في السجن  
يستحيل رشوتهم ؟ لكنني سأذهب وأحضر هذا المال في هذه اللحظة .  
نعم . سأخرجه من الحفرة وأذهب بنفسى أنا العجوز ، وأخرج ولدى  
من السجن وأعود به الى البيت . ولن يتركني أبداً مهما قال الناس .  
فعاد الرجلان الى تبادل النظر وتوصل الابن الى ابن عمه بعينه  
ان يتكلم دفاعاً عنه مرة أخرى . فقال هذا :

- انهم لن يسمحوا لك حتى برؤيته يا عمتي . وهم لم يأذنوا  
لنا أبداً بالدخول . نعم لم يأذنوا لنا رغم أننا عرضنا عليهم نقوداً ،  
وقد فسروا سبب هذا التشدد فقالوا ان الحاكم ناظم على الجريمة  
التي اتهم بها ولدك . هي جريمة جديدة في هذه الأيام . جريمة  
بشعة .

فصاحت الأم في كبرياء ورفعت عصاها وجعلت تهزها في وجه الرجل قائلة :

— ابني لم يرتكب جريمة في حياته . يوجد عدو هنا يدفع أكثر مما نملك لكي يبقى ولدى في السجن .

وجعلت تدير عينيها في الجمع الواقف حولها يلتمهم هذه الأنباء التهاما وقد ففر أفرادهم أفواههم وجعلوا يحدقون بأعينهم . ثم صاحت فيهم :

— هل رأى أحدكم ابني يرتكب جريمة ؟ .

فأخذ الجميع يتفرسون بعضهم في بعض دون أن يقولوا شيئا . ولما رأت الأم نظراتهم المستريبة تمزق قلبها وجعلت تبكي وهتفت :

— آه . كنتم تكرهونه لجمال شكله . لأنه أحلى من أولادكم

السود . . الفلاحين . نعم . أنتم تكرهون كل من يكون أحسن منكم .

ونفضت الأم وسارت مترنحة الى بيتها وهي تبكي بكاء مرا .

على أنها حينما عادت الى البيت ولم يبق معها سوى العم وزوجته

وأولادهما كفكت دموعها وقالت لولدها الأكبر في هدوء وفي لهجة

المحموم أيضا :

— لكن هذا ضياع للوقت . أخبرني بكل شيء . فقد تكون أمامنا

فرصة لاتقاذه . أمامنا الليل بطوله . ما هي جريمته ؟ سناخذ كل

ما نملك وتسعى لاتقاذه .

فتبادل الابن وزوجته عند سماع هذا الكلام نظرة لا تنم عن الشر

حقا ، ولكنها شفت عن نفاذ صبرهما واحتمالهما . ثم قال الابن :

— أنا لا أعرف ما هي جريمته تماما . لكنهم يسمونه « شيوخيا »

كما قلت لك . وهي كلمة جديدة سمعتها كثيرا . ولما سألت عن

معناها قيل لي انها لون جديد من اللصوصية . وقد سألت الحارس

الواقف بباب السجن حاملا بندقيته على كتفه ، فأجابني بهذه

الكلمات ، « تسألني عن معنى ( الشيوخى ) ؟ . اعلم أيها الرجل

الطيب ان الشيوخى هو الذى يسرق حتى أرضك . وهو رجل يتآمر

على سلامة الدولة ولذلك وجب أن يموت مع رفاقه » . نعم يا أمي .

هذه هي جريمته .

أنصت الأم بعناية واهتمام شديدين الى هذا التفسير وقد سقط

ضوء الشمعة فوق وجهها الذى تلالأت فوقه قطرات الدموع . وقالت

في صوت يشف عن الذهول وقد راحت تجهد أن تكسبه رنة الجلد

والتماسك :

— لكنى لا اظن ان هذا ممكن . انا لم اسمعه ابدا يقول كلمة فى هذا الشأن . انا لم اسمع ابدا بمثل هذه الجريمة . ان قتل الانسان ، وسرقة البيوت ، وتجويع الوالدين ، هى الجرائم بمعناها . لكن كيف تسرق الأرض . هل يمكنه ان يطويها كأنها قطعة من القماش ، ويأخذها معه ، ويخفيها فى مكان ما ؟ .

فأجاب الابن وقد تكس رأسه وتدلّت يداه بين ركبتيه وهو جالس فوق المقعد الصغير :

— لا اعرف يا امى .

كان الابن لم يزل مرتديا جلبابه الوحيد ، بيد انه دس طرفه فى حزامه اذ لم يألّف لبس الجلابيب . ثم استطرد فى تودة :

— انا لا اعرف ما قيل غير ذلك . فقد سمعنا كلاما كثيرا فى البلدة هنا وهناك . الاتهم سيقتلون عددا كبيرا غدا وسيكون يوم عطلة . ماذا قيل غير هذا يا ابن عمى ؟ .

فحك ابن العم ذقنه وازدرد لعابه وتطلع فى الوجوه التى حوله ثم قال :

— ان اهل البلدة قالوا كلاما كثيرا . لكنى لم اجسر على الاكثار من الأسئلة . لأن أحد حراس السجن حين سمعنى أسأل عن سبب الضجة السائدة وادقق فى السؤال التفت الى قائلا ، « هل انت واحد منهم ايضا ؟ وماذا يهملك اذا قتلوا ؟ » . ولم اجسر على القول بأنى ابن عم أحدهم . . لكننا وجدنا أحد رؤساء السجناء واعطيناه بعض النقود والتمسنا منه ان نحدثه على انفراد . فقادنا الى احدى زوايا السجن خلف بيته حيث اخبرناه بأننا من القرويين الاشراف وأننا نملك أرضا صغيرة ونستأجر مساحات أخرى ، وان لنا بين المحكوم عليهم بالموت فتى يمت لنا بصلة القرابة البعيدة ، ولنا اذا استطعنا انقاذه لما ترددنا صونا لواجب الشرف لأن أحدا من اهل بيتنا لم يسبق ان مات تحت سكين الجلاد ، لكن بشرط الا ندفع مبلغا كبيرا جدا لاننا اناس فقراء . فأخذ السجناء النقود وسألنا عن اوصاف الفتى فأخبرناه بها . وعند ذلك اجابنا : « اظن انى اعرف الفتى الذى تقصدون . لأنه متضايق من السجن واعتقد انه لا يتردد فى الاعتراف بكل ما يعرفه لولا وجود فتاة من اشد الفتيات جراحة تثير نخوته وتحمله على الجلد والتشدد . نعم . يوجد بين المحكوم عليهم اناس صلاب اجرياء لا يحفلون كيف ولا متى يموتون . لكن هذا الفتى كثير الخوف . وأشك فى انه يقدر ما فعل او يعرف

سبب الحكم عليه بالموت . لأن مظهره يدل على انه فتى قروى ساذج  
قد استخدموه لأغراضهم ومنوه بوعود عظيمة . واعتقد ان جريمته  
نجمت عن تلبسه بحياسة كتب معينة كان يوزعها بين الناس مجانا .  
وفى هذه الكتب كلام فاسد يحض على قلب الحكومة واقتسام كافة  
الأموال والأراضي بالمساواة .

فلما سمعت الأم ما نقله ابن العم عن السجنان انهمرت دموعها من  
جديد واخذت تئن وتتوجع والتفتت الى ابنها قائلة :

— كنت اعرف انه كان يجب ان تمنحه بعض الأرض . كان يمكن  
ان نستأجر أرضا أخرى ونعطيه نصيبه منها . لكن ابني الأكبر  
وزوجته استأثرا بكل شيء وضنا عليه بكل شيء .  
ففتح الابن فاه للكلام . لكن العم قال بهدوء :

— لا تتكلم يا بنى . دع أمك تلومك وتخفف عن نفسها . نحن جميعا  
نعرف أخلاقك وأخلاق أخيك ونعلم انه كان يمقت العمل فى الأرض  
بل كان يكره العمل بتاتا .

واذن فقد لزم الابن الأكبر الصمت نزولا على رأى العم . واخيرا  
استطرد ابن العم قائلا :

— وقد سألنا السجنان بعد ذلك كم ندفع للافراج عن الفتى . فهز  
السجان رأسه وقال انه لو كان ذا مكانة كبيرة وولدا لرجل غنى عظيم  
ذى نفوذ فلا ريب ان المال كفيل بالافراج عنه وأخلاء سبيله . أما هو  
فتى قروى فقير ، فما من رجل يعرض حياته للخطر فى سبيله مهما  
عظمت المبالغ التى تدفعها . وهكذا لا مفر له من الموت .

فلما سمعت الأم هذا الكلام صرخت قائلة :

— وهل يموت لأنه ولدى وأنا فقيرة ؟ اننا نملك أرضا وسنبيعها  
لمنحه جريته . نعم . سنبيعها فى هذه الليلة فورا . يوجد فى هذه  
القرية أناس .

لكن الابن الأكبر ما كاد يسمع حديث الأرض حتى قال :

— وكيف نعيش اذن ؟ لا نكاد نستطيع العيش والأرض فى حالتها  
الراهنة . واذا استأجرنا أرضا أخرى بهذه الأجور المخزية لأصبحنا  
من المتسولين . ان كل ما نملكه هو هذه الأرض اليسيرة المحدودة .  
ولن أبيعها يا أمى . لا . ان الأرض أرضى . ولن أبيعها .

ولما فاه الابن بهذا الكلام نظقت زوجته لأول مرة ، اذ كانت  
جالسة فى هدوء تنصت الى ما يدور . فقالت برزانة :

— ولا بد من التفكير فى أمر الجنين الذى أحمله الآن فى أحشائى .



فلم تملك الأم إلا أن تلزم الصمت . أجل . لزمت الصمت وجلست  
تبكى . وكلما وجهت إليها كلمة واحدة طوال هذه الليلة كان جوابها  
الوحيد سفح الدموع واستئناف البكاء .  
وجلس أصحاب هذا البيت ساهرين ليلتهم . ولما بزغ الفجر  
الشاحب استجمعت الأم قوتها وقالت :  
- سأذهب بنفسى . سأذهب مرة ثانية الى البلدة وانتظر رؤية  
ولدى اذا لم يكن مفر من خروجه الى الموت .  
فوضعوأ أيديهم على ذراعها يسألونها الا تذهب . وقال الابن  
بلهجة الجد :  
- أمى . سأذهب لاحضاره فيما بعد . لأنك ستموتين اذا رايت  
هذا المشهد .

لكنها قالت له :

- وماذا لو مت ؟ .

وغسلت الأم وجهها ومشطت ما بقى لها من شعر أشيب يسير  
فوق رأسها ولبست رداء جديدا كماداتها كلما قصدت الى البلدة  
وقالت لابنها ببساطة :

- اذهب وأحضر حمار العم . هل تتركنى أركبه يا عمى ؟ .  
فأجاب العم فى كآبة ولم يسعه إلا أن ينزل على ارادتها :  
- آه . نعم .

واذن فقد ذهب الابن وابن العم وجاء بالحمار وأركبا الأم فوق  
ظهره وسارا بجانبها قاصدين الى البلدة وقد حمل الابن مصباحا  
فى يده اذ كان ضوء الفجر ضئيلا .

وكانت الأم قد خارت قواها ولزمت الهدوء لفرط ما سكبت من  
الدمع . ومضت فى طريقها لا تكاد تعى شيئا وقد تشبثت بظهر  
الحمار ونكست رأسها ولم ترفع عينيها مرة لكى ترى مطلع الفجر ،  
بل جعلت تحديق الطريق الشاحب التراب الذى لا يكاد يبدو  
للعيان من خلال الظلام . ولزم الرجلان الصمت كذلك . وظلوا  
يوأصلون السير فى الطريق متجهين الى الجنوب حتى وصلوا الى  
باب البلدة الجنوبي الذى لم يكن قد فتح بعد فى بكرة النهار .  
لكنهم رأوا جمهورا كبيرا ينتظر عند الباب . فقد ذاع فى أنحاء  
هذه الجهات أن أناسا كثيرين سينفذ فيهم حكم الموت . وتقاطر  
أفراد عديدون للتفرج وجاءوا معهم بأولادهم .

وما كادت الابواب تفتح حتى دخل الجميع يتزاحمون بالمناكب

وبينهم الأم فوق الحمار ورفيقاها . وقصدوا جميعا الى أرض فضاء  
كائنة قرب سور البلدة . فراوا في طلائع ضوء النهار جمهورا  
حاشدا ينتظر وقد تضام افراده ولزموا الصمت رهبة من مشهد  
الموت الذي يوشكون أن يروه . وتشبث الأبناء بأبائهم في ذعر غير  
مفهوم . واذا صرخ أطفال ألزموا الصمت فورا . وخيم السكون فوق  
هذا الجمع الحاشد الذي وقف ينتظر في نهم الجسائع مستمتعا  
متلذذا ولكنه يذوب في نفس الوقت رعبا وجزعا مما يرتقب ويتطلع  
اليه :

لكن الأم وصاحبها لم ينتظروا في غمار هذا الحشد . فقد همست  
الأم قائلة :

— لنذهب ونقف عند باب السجن .

فقد كانت المسكينة ترجو اذا رأت ولدها أن تحدث معجزة على  
وجه من الوجوه وأن تلمس وسيلة لانقاذه .

واذن فقد ذهب بها الرجلان الى باب السجن ووقفوا ينتظرون  
عند بابه في السور المرتفع الذي غرست فوق قمته قطع الزجاج .  
وقد راوا عند الباب حارسا منتصب القامة وبجانبه مصباح به شمع  
قصيرة مضاءة هبت عليها ريح الفجر القارسة فأطفأتها .

وقف الثلاثة ينتظرون في الشارع الترب . وثقلت الأم عن ظهر  
الحمار وجعلت ترتقب . وسرعان ما سمعوا خطوات كثيرة تسير فوق  
الأرض الحجرية ، ثم صاح صائح :

— افتحوا الباب .

فوثب الحراس في أماكنهم منتصبين بجانب الباب شاهرين  
أسلحتهم . ثم فتح الباب بعد قليل .

هنالك اتارت الأم عينيها لكي ترى ولدها . فرج من الباب شبان  
كثيرون مقيدو الأيدي بحبال من القنب يسرون اثنين اثنين وقد قيد  
كل اثنين الى من يتقدمهما . وقد بدا هؤلاء المسوقون لأول وهلة فتيانا  
جميعا . على أنه كان بينهم بعض الفتيات وأن تعذر تمييزهن  
بسهولة . فقد قصت شعورهن وارتدين مثل ملابس الفتيان ولم يكن  
هناك ما يدل عليهن الا أن يحسب الانسان بعينه فيرى ثداءهن  
الضئيلة وخصورهن النحيلة . أما وجوههن فكانت مبتسمة بطابع  
الجرأة والفلظة مثل وجوه الفتيان .

تطلعت الأم الى وجوههم جميعا . وفجأة رأت فتاه . أجل . راته  
يسير امامها منكس الرأس ، مقيدا الى فتاة تسير الى جانبه .

عند ذلك اندفعت الأم الى الامام والقت نفسها عند قدميه  
وضمتهما وصرخت صرخة داوية :  
- ولدى ! .

وتطلعت الأم الى وجهه . فاذا هو شاحب بل أشد ما رأت من  
الوجوه شحوبا . واذا شفتاه ممتعتان وعيناه متيلدتان .  
ما كاد الفتى يرى أمه حتى اشتد شحوبه وامتقاع لونه وأوشك  
أن يسقط على الأرض لولا أنه كان مشدود الوثاق الى الفتاة .  
والواقع ان هذه الفتاة جعلت تشده ولم تتركه يسقط . بل لم تتركه  
يتريث فى مكانه . ولما وقع نظرها على المرأة العجوز ذات الشعر  
الأبيض الجائبة عند قدميه ضحكت ضحكة عالية تشف عن جراحة  
بالغة ومرح عظيم ، وهتفت فى صوت عال أجش :  
- أيها الرفيق . تذكر الآن انه ليس لك أم ولا أب .  
وجذبته الفتاة فى سيرها .

وفى هذه اللحظة أسرع احد الحراس ورفع الأم من مكانها وألقاها  
جانبا فبقيت فى سقطتها فى التراب . وتقدم افراد الفريق وواصلوا  
السير حتى غابوا عن نظرها متجهين شطر الباب الجنوبي .  
وجاء الرجلان أخيرا وهما يرفع الأم عن الأرض لولا أنها لم تتركهما  
يفعلان . وتمددت فوق التراب وقتا وهى تئن وتنصت فى ذهول  
الى وقع الخطا المتباعدة .

على أنه لم يفسح لها طويلا فى مجال التوجع والالين . فقد خرج  
من باب السجن حارس ووكزها ببندقيته فى غلظة شديدة وصرخ  
فيها قائلا :

- امشى يا عجوز .

فخاف الرجلان وأوقفا الأم على قدميها وأركباها فوق الحمار  
وسارا بها متجهين الى البيت . على أنهم وقفوا قرب جدار قبل أن  
يصلوا الى الباب الجنوبي وجعلوا ينتظرون .

وفيما كانوا ينتظرون سمعوا صراخا عظيما . فتبادل الرجلان  
النظر وتطلعا الى الأم العجوز . وسواء كانت الأم قد سمعت هذا  
الصراخ أو أدركت معناه فأنها لم تبد أدنى اشارة . بل جلست فوق  
ظهر الحمار مطرقة الرأس تحديق فى التراب تحت قدميها .

ثم استأنفوا سيرهم . وقابلوا فى الطريق افراد الجمهور الذى  
انفض وتفرق وراح أفرادهم يتبادلون الكلام بأصوات عالية . فلم  
ينبس الرجلان بكلمة ولم يبد من حالة الأم أنها منصتة لما يقال .

لكن !حدهم هتف قائلا :

— هل رايت ذلك الفتى الذى تفجر دمه الأحمر حتى لوث قدم  
الجلاد وجعله يسب ويلعن ؟ .

ومن الناس من كان يضحك وقد تورد وجهه . ومنهم من علاه  
الشحوب . وفيما كان الرجلان والام يخرجون من باب البلدة راوا  
شابا ممتقع الوجه مستندا الى الجدار مستسلما للقيء .

وسواء رأت الام هذه المشاهد أو سمعت هذه العبارات فانها لم  
تنبس بكلمة . اجل . فقد علمت ان الفتى قد صار فى عداد الاموات .  
ولا ينفع مال ولا لوم ان كان فى وسعها أن تلوم . وقد ساورها فى  
هذا الوقت تلهف الى العودة والتماس ذلك القبر المهدم حيث  
تسكب فوقه عبراتها وقد حز فى نفسها أنها حرمت حتى قبرا خاصا  
بولدها الميت تبكى فوقه كما تبكى النساء فوق قبور ابنائهن . . .  
ولا مفر لها من البكاء فوق قبر مجهول شفاء لما فى قلبها وتخفيفا  
للوعتها . على أن هذا الألم تلاشى من نفسها وأصبحت تتلهف للبكاء  
وحده وتسكين ما بها .

ولما وصلت الام الى باب بيتها نزلت عن الحمار وتوسلت الى  
ولدها قائلة :

— اذهب بى الى خارج القرية . لأبد من البكاء .

وكانت زوجة العم قريبة وسمعت هذا الرجاء . فهزت رأسها  
وقالت برفق وهى تكفكف دموعها بكمها :

— نعم . دع هذه المسكينة تبكى قليلا . فهذا افضل ما تفعل .  
فلم يسع الابن الا أن يذهب بها فى سكون الى القبر حيث مهد لها  
مجلسا كساه ببعض الحشائش . فجلست الام وأسندت رأسها الى  
القبر وتطلعت الى الابن ممتقعة الوجه وقالت له :

— اذهب واتركنى وقتا حتى أبكى .

ولما تردد الابن كررت قولها فى حرارة وانفعال :

— اتركنى . اما ان أبكى أو أموت .

فذهب الابن عنها وهو يقول :

— سأعود بعد قليل لمراققتك يا أمى .

والواقع انه كره أن يتركها وحيدة فى مثل هذا المكان .

وجلست الام الى القبر ترقب مطلع النهار وانتشار الضوء .  
ورأت الشمس تشرق وتسطع فوق الأرض وكأنه لم يمض أحد فى  
هذا اليوم . وكانت النباتات قد نضجت وأينعت واكتست الحقول



بأشعة الشمس الذهبية . وجعلت الأم ترتقب أن يفيض حزنها ويستحيل إلى دموع تخفف عن قلبها المحطم . وراحت تستعرض حياتها وتفكر في موتها وتحصى ما في هذه الحياة من أفراح ضئيلة . فجاشت الأحزان في قلبها .

استسلمت الأم لهذه الأحزان دون أن تغضب الآن أو تثور . وتركت هذه الأحزان تطفئ عليها وتستأثر بنفسها . وتمددت فوق التراب وتمرغت في الرغام . ثم أدارت وجهها إلى السماء وهتفت في ألم موجه :

— أهذا هو التكفير المنشود ؟ ألم ائل كفايتي من العقاب ؟ .

ثم تفجرت الدموع من عينيها أخيرا ، فأسندت رأسها فوق القبر ودست وجهها بين الحشائش الكبيرة واستسلمت للبكاء .

جعلت الأم تبكى وتمعن في البكاء في هذا الصباح المشرق باسم وراحت تستعيد كل ما مر بها من الأحزان صغيرها وكبيرها . تذكرت كيف تشاجر زوجها معها وذهب عنها . وتذكرت أنه لا توجد فتاة صغيرة تأتي إليها وتناديها وتصحبها إلى البيت . وتذكرت كيف رأت فتاه مقيدا إلى تلك الفتاة عندما شاهدته لآخر مرة . وهكذا جعلت في هذا اليوم تبكى لكل ما مر بها في حياتها .

وفيما هي في هذا البكاء جاء ولدها راكضا . فكان يلوح بذراعيه ويصيح موجهها كلامه إليها . لكنها لم تتبين ما يقول . فسمعتة قائلا :

— أمي ! أمي ! جاء ولدي . حفيدك يا أمي .

أجل . سمعت الأم هذه الصيحة في أتم وضوح وجلاء . فانقطعت دموعها دون وعي منها . ونهضت من مكانها وسارت للقائه مترنحة هاتفة :

— متى ؟ متى ؟ .

— الآن فقط ! ولد في هذه اللحظة . وهو ولد لم أر في حياتي طفلا في حجمه وصياحه . وكأنه ابن سنة .

فوضعت الأم يدها على ذراعه وأخذت تضحك ضحكا يسيرا ممتزجا بالبكاء . ثم اتكأت عليه وتحاملت على قدميها وسارت بسرعة وقد نسيت نفسها .

وذهب كلاهما إلى البيت ودخلا إلى تلك الغرفة حيث تمددت الأم الجديدة فوق الفراش . وكانت الغرفة مكتظة بنساء القرية اللاتي جئن من بيوتهن للوقوف على هذا النبا . وجاءت بينهم الأرملة

الثرائرة وقد قوست الأعوام ظهرها وأصمها الكبر . لكنها لم تشأ أن تترك هذه المناسبة تفوتها وأصرت على الحضور . وما كادت ترى الأم العجوز حتى راحت تقول بلهجتها المهذمة :

— أنت امرأة موفقة . وكنت أحسب أن حظك ذهب إلى الأبد . لكنك الآن ترزقين بحفيد . وهانذا لا أملك سوى جثتي العتيقة الفانية وأسقامي العديدة .

لكن الأم العجوز لم تقل كلمة واحدة ولم تنظر إلى أحد . بل تقدمت إلى الفراش ونظرت إليه . فاذا الطفل ممدد . وهو مولود ذكر . وإذا هو يصيح كما وصفه أبوه . وإذا هي تراه فاغر الفم جميل الصورة قوى البنية كأجمل وأقوى طفل رآته عيناها . فأنحنت ورفعته بين ذراعيها وأمسكته إلى صدرها وأحست بالحياة تتدفق في كيانه حارة موفورة .

وراحت تنظر إليه من رأسه إلى قدميه وتضحك وتعاود النظر . . وأخيرا دارت بعينيها في أرجاء الغرفة تلتمس زوجة العم . فاذا هي واقفة بين النساء وقد تعلق بها بعض أحفادها لرؤية هذا المشهد .

وما كادت الأم العجوز ترى زوجة العم حتى رفعت الطفل يديها لكي تراه صاحبها . وهتفت وهي تضحك عاليا وقد نسيت امتلاء الغرفة بالنساء وبدأت عيناها منتفختين من أثر البكاء المتصل :

— أنظري يا بنت عمي . انى أشك في امتلاء نفسي بالذنوب كما خيل إلى فيما مضى هل رأيت حفيدتى ؟

(( تمت ))

## اشتراك في روايات الهلال

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

السيد / هاشم علي نحاس  
جدة - ص . ب رقم ٤٩٣  
المملكة العربية السعودية  
جدة :

M. Miguel Maccul Cury,  
B. 25 de Maroc, 990  
Caixa Postal 7406.  
Sao Paulo, BRASIL.

البرازيل

THE ARABIC PUBLICATIONS  
DISTRIBUTION BUREAU  
7, Bishopstrove Road  
London S.E. 26  
ENGLAND.

انجلترا :

---

( اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية )



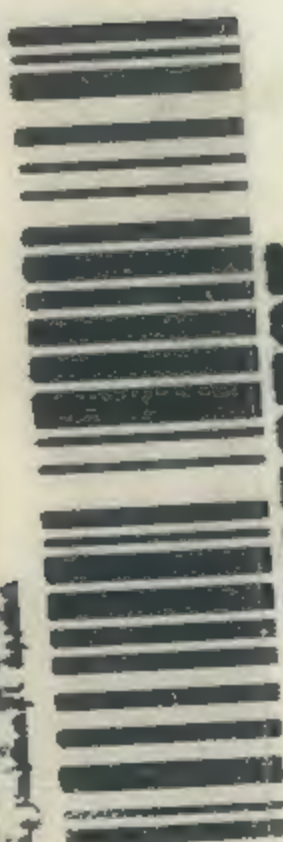
٢٠ قرشا

## هذه الرواية

ولدت بيرل باك مؤلفة هذه الرواية الانسانية المؤثرة في هيلزبورن بولاية فرجينيا الامريكية عام ١٨٩٤ من أبوين أمريكيين ذهبوا بها الى الصين في سن الطفولة ثم عادت واتمت تعليمها في احدى جامعات فرجينيا مسقط رأسها ، وعندما عادت الى الصين مرة اخرى تزوجت شابا امريكيا .

لقد نعت بيرل باك في الكتابة منذ مستهل حياتها ، وكانت روايتها « الارض الطيبة » التي نشرت عام ١٩٣١ ثمانية اعمالها الادبية وقد نالت بسببها جائزة بوليتزر المعروفة واصبحت فيلما سينمائيا ناجحا . وبعد ان اصدرت اربع روايات اخرى هي « الابناء » و « الزوجة الاولى » و « الام » و « بيت منقسم » ، نالت ميدالية الاكاديمية الامريكية للفنون والاداب عام ١٩٦٥ ، وقد ادى هذا بالاضافة الى ملفاتها الاخرى الى فوزها بجائزة نوبل في الادب عام ١٩٣٨ . وفي خلال ذلك اختيرت عضوا في المعهد القومي للفنون والاداب بالولايات المتحدة عام ١٩٣٦ ، وكان رصيدها من الروايات الصينية قد بلغ ثمانى روايات . فضلا عن ترجمة كتاب صيني مشهور هو « كل الرجال اخوة » . وعلى الرغم من انها تحولت في العهد الاخير الى الكتابة عن الحياة الامريكية سوف تظل امام العالم مؤلفة اروع الروايات عن الحياة الصينية .

theca Alexandrina



0253707

مكتبة الإسكندرية